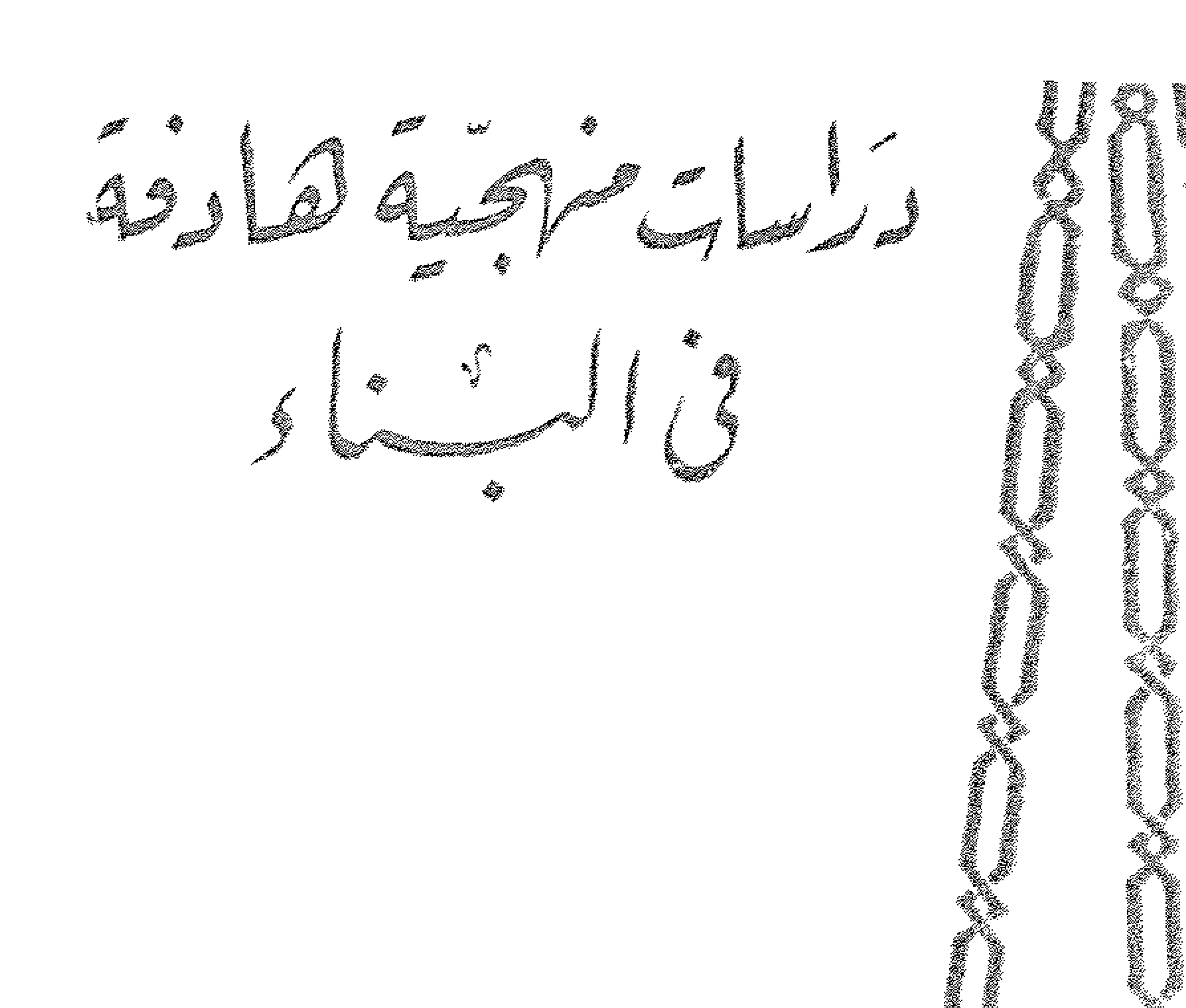
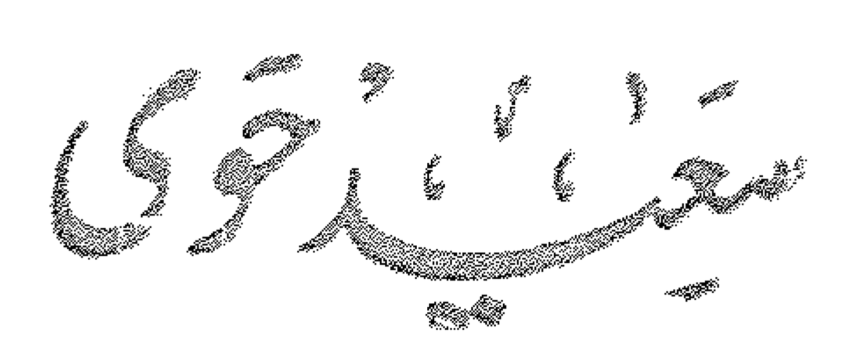
دراسات منهجية هادفة
في البناء

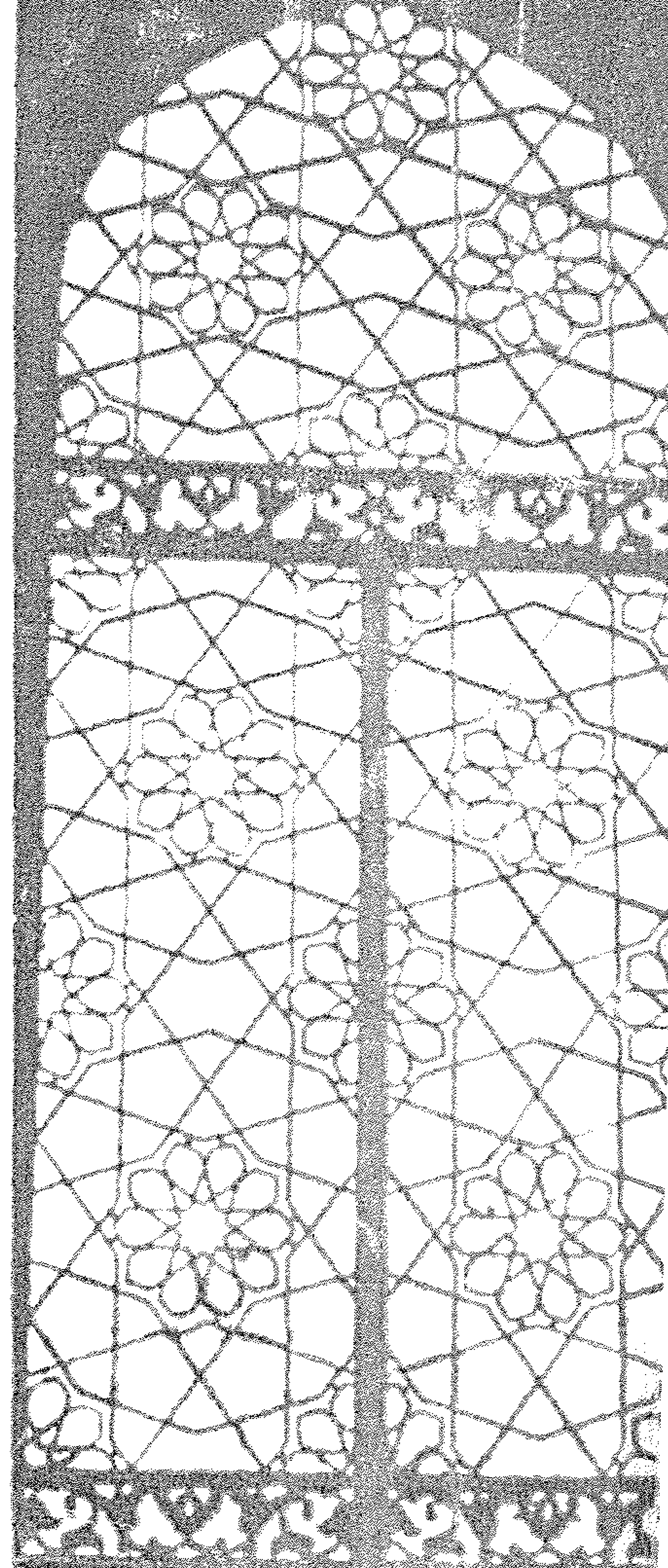




تربيتنا الروحية



سعيد حوى



يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة ت ٩٣٧٤٧٠

دراسات منهجية هادفة
في البناء

تربيتنا الروحية

سعيد حوى

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانية

ذو الحجة ١٣٩٩ هـ - نوفمبر ١٩٧٩ م

إهداء

درج الناس على أن يهدوا كتبهم لجهة ما ولم أعتد ذلك لأن كتبى هدية متواضعة منى لأمتى ولكن عندما تتجسـد الأمة فى رجال فقد يكون ذلك مبرزا لأن يجعـل الانسان هدية الأمة هدية لهم ولذلك فاننى أهدى هذا الكتاب لبركات بلاد الشام وراث النبوة فيها أمثال : الشيخ حسن حبنكة والشيخ ملا رمضان والشيخ عبد الفتاح أبى غدة وكنت أتمنى لو صدر هذا الكتاب والشيخ محمد الحامد والشيخ مصطفى السباعى والشيخ عبد الكريم الرفاعى والشيخ أحمد البيانونى والشيخ خالد الشقفه ، كنت أتمنى لو صدر هذا الكتاب وهم أحياء ، لكانوا شركاء فى الاهداء من أجل أن يمنوا على بتصحيح خطأ ٠

ملاحظـــة

كنت قد أزمعت أن أخرج هذه الرسالة تحت عنوان (تصوف الحركة الاسلامية المعــاصرة) ثم فكرت أن أخرجها تحت عنوان (الحياة الروحية لجند الله) ولكن لملابسات متعددة جعلتها تحت عنوان (تربيتنا الروحية) وانما ذكرت هذه الملاحظة هنا لأن مضمون الرسالة قد يكون مرتبطا بالعنوان الأصيل لها فليلاحظ القارىء ذلك ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هى الرسالة التاسعة فى سلسلة ((**فى البناء**)) . وكنت مترددا أن أجعلها هى والرسالة الثامنة التى عنوانها (جولات فى الفقهين الكبير والأكبر) جزءا من سلسلة الفقهين الكبير والأكبر ثم رأيت أنه قد لا تتاح لى فرصة الكتابة فى موضوع الفقهين الكبير والأكبر ثم ان سلسلة الأساس فى المنهج قد تغنى الى حد كبير عنها ولذلك جعلت هاتين الرسالتين جزءا من (**سلسلة فى البناء**) لأن رسالة جولات لها صلة فى البناء الثقافى للحركة الاسلامية ولأن هذه الرسالة لها صلة فى البناء الروحى والثقافى لهذه الحركة فاستقررت على أن تكون هاتان الرسالتان من هذه السلسلة . والذى دعانى الى كتابة هذه الرسالة أمور :

أولا : حاجة الحركة الاسلامية الى نظرية واضحة عن التصوف وعن السير الروحى بآن واحد . ان النظرة الواضحة عن التصوف تعصم عن الانحراف فى تياره الغالى أو فى التيار المعادى على غير بصيرة . والسير الروحى لأبناء الحركة الاسلامية شىء لا بد منه ومن ثم كان الفقه فيه كالفقه فى قضايا التنظيم والتنفيذ والتعريف وغير ذلك من أمور لا يسع المسلم المعاصر أن لا يكون له صلة نظرية وعملية فيها .

ثانيا : ندرة الكتاب الصوفى المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ومذاهبهم الفقهية حتى اننى كنت استشعر حرجا أن أذكر لانسان كتابا فى التصوف وذلك لأن الكثير من كتب التصوف داخلها مالا يرتاح له العليم فتجد عبارات غير منضبطة أو شطحات غير متزنة أو تضخيما لأمر على حساب أمر فكان لابد من كتاب يضع الأمور فى مواضعها ليكون بمثابة ميزان يستطيع المسلم منه أن ينطلق ليقرأ فى كتب التصوف على بصيرة فيما ينبغى أن يأخذ أو يدع على ضوء ضوابط سليمة ترتاح لها قلوب المنصفين .

ثالثا : ان كثيرين ممن كتبوا فى هذا العلم جعلوه علم الخاصة مع أنه العلم الذى يطالب به كل انسان لارتباطه بقضايا يطالب بها كل انسان كصحة القلب وزكاة النفس وغير ذلك من أمور كلها تكليفية فى حق عامة الخلق فكان لا بد من كتاب يجعل الأمر فى محله .

رابعا : ثم ان هذا العلم فى مسيرته التاريخية اختلط فيه أكثر من أى علم آخر أمور جعلته أحيانا كالألغاز وجعلته أحيانا وكأنه شىء آخر غير العلم وغير النصوص وجعلته أحيانا مستقلا عن علوم التوحيد والفقه وأصول الفقه بل جعلته أحيانا الهاميا له قوة الوحى فى التشريع أو فى التقرير وكل ذلك عجيب غريب فى علم يجب أن يكون كبقية العلوم الاسلامية محررا منقحا • انه من العجيب أن قارىء كتب التصوف يشعر أنه أمام ألغاز وراء الدين وبدلا من أن يكون هذا العلم طريقا للتحقق بالنصوص جعلوا التصوف شيئا وراء النصوص وذلك ما يجرح كبد الفقيه ومن ثم فانى لم استشعر اطمئنانا الا نادرا أن أدل انسان على كتاب تصوف ما لم يكن هذا الانسان فقيها وعنده وسوسة الفقيه فى تقليب الرأى فيما يقرأ • فيما اذا كان ما يقرؤه منطبقا على النصوص ؟ واذا كان من طبعى ألا أقول ما يجرح مشاعر مسلم فى قضية تحتمل أكثر من وجه فانى لا أرغب فى التدليل بأن أنقل وأنقد وأرد •

ولعل أبشع ما فى الأمر أن نجد كثيرا من المتحذلقين يأتون الى آية من آيات الله لا تفهم الا على وجه واحد ويحاولون أن يعطوها مضامين أخرى ويبنون على مثل هذا جبالا من الأمور والمسائل والأمر كله وهم أو تحريف وكان يغنيهم عن هذا كله الوقوف عند النصوص ومحاولة فهمها وتفهيمها والسير للتحقق بها انه لو كان ذلك لكان جيدا بل وكمالا وهذا الذى نريد تحقيقه فى هذه الرسالة وهذا الذى حاولناه مع غيره فى سلسلة (الأساس فى المنهج) •

خامسا : ثم ان أكثر المشتغلين فى هذا العلم تصوراتهم الاسلامية قاصرة ومفاهيمهم ضيقة ويعيشون بعيدين عن عصرهم وعن بديهيات الاسلام التى لا ينبغى أن تغيب عن مسلم معاصر • فأن يبقى هذا العلم قصرا على هؤلاء فان فى ذلك ابقاء لمريدى السير الى الله فى أجواء غير صحية فكان لا بد للحركة الاسلامية الجهادية أن تبلور هذا الموضوع كما بلورت غيره من الأمور التى تشكل ألف باء الفهم للاسلام وللعمل المعاصر من أجله • ولئن مرت عصور كان للتصوف الجاهل وللصوفية الجهلة دور فى اغفال قضية الجهاد فقد آن الأوان أن يعود التصوف الى وضعه الطبيعى فيكون فى خدمة قضية الجهاد كما هو الشأن فى كثير من الحالات التى انبثق فيها عن التربية الصوفية عمل جهادى وان ننس فلا ننسى ثورة الشيخ سعيد الكردى النقشبندى فى تركيا وثورة الشيخ شامل النقشبندى فى تركستان وحركة عالم كبير فى الهند التى هى أثر عن جهود الشيخ الفاروقى المجددى وحركة السنوسيين فى ليبيا وحركة الدراويش فى السودان • هذه معان وغيرها كثير سنراها كانت دافعا نحو تأليف هذه الرسالة •

* * *

وكل مسلم فى الحقيقة سائر الى الله ما دام يفعل ما أمره الله عز وجل ، وله حظه من مقامات السير بذلك ، ولكن البحث عن الكمال والوصول اليه واتيان البيوت من أبوابها ومعرفة المصادر والموارد والبدايات والنهايات والحدود والقيود للمقامات كلها دنياها وعلياها ٠ هذا الذى يطلق عليه اسم السير الكامل ، ومن هنا ندرك غلط الذى لا ينصور أى سير لله عز وجل الا من خلال التصوف ٠ وندرك خطأ الذى يأخذ على أصل وجود طريق التصوف والسير فيه وهو شىء ذكرناه فى كتاب جولات ردا على من ينكر وجود علم التصوف وهنا نريد أن نرد على غلاة الصوفية الذين لا يتصورون سيرا الى الله بدون سير على يدى أهل الطريق اذ الصحابة رضوان الله عنهم ومن بعدهم الى أن تقعدت قواعد علم التصوف ما كان لهم هم الا دراسة الكتاب والسنة وتطبيق ذلك فان لم يكن هذا سيرا فما هو السير ؟ ومن هذه النقاط البسيطة يستطيع المسلم أن يدرك بعض ملامح هذه الرسالة فنكتفى فى هذه المقدمة بذلك ٠

* * *

ولا شك أن الكتابة فى هذا الموضوع ستثير كثيرين أصبح التصوف عندهم هو رأس البلاء وسبب الفساد ٠

ولا شك أن هناك أسبابا كثيرة أوصلت هؤلاء الى مثل هذه النتائج ، ومع وجود هذه الأسباب ومع وجود هؤلاء الناس كتبت هذه الرسالة وأعتبر كتابتى لها فريضة ، فنحن فى عصر مادى وهذا يقتضى منا أن نقابله بفكر مكافىء وبحيوية روحية عالية ونحن فى عصر شهوانى جاهلى وهذا يقتضى منا أن نقابله بأشواق روحية راقية مع تأمين الشهوات المباحة وابقاء منافذها مفتوحة ، ونحن فى عصر قلما يوجد فيه من يضبط نفسه على مقتضى الأدب الاسلامى الرفيع وهذا يقتضى منا الحاحا على التربية النفسية الرفيعة واذا كان هذا كله طريقه التصوف الصحيح السليم فان الكتابة فى ذلك أصبحت ضرورية ، ثم ان الحركة الاسلامية الحديثة وهى حركة تجديدية فى كل جوانب المجتمع الاسلامى لا بد ٠٠٠ وأحد ملامحها الأصيلة أنها حقيقة صوفية من أن تكتب فى هذا الموضوع فتجدد فيه معيدة اياه الى أصوله الصحيحة ومنابعه الصافية ومبعدة عنه ما علق به من دخن كثير فتضع الأمور فى مواضعها فى هذا العلم وغيره ٠ واذا كانت هناك حساسيات عند أتباع هذا العلم فلا يقبلون مناقشة فى عبارة من عبارات أهله أو فى تصرف من تصرفاتهم ، واذا كانت هناك حساسيات عند المنكرين عليه فلا يقبلون اسمه ولا أهله ولا مباحثه ولا الكلام فيه فان المجددين فى هذه الأمة لا يسعهم أن يقابلوا أمثال هذا كله الا بكلمة الحق الصادقة والواضعة الأمور فى مواضعها

فهذا وحده الذى يحسن بالعالم وتصلح به الأمة واذا لم يفعل العالم ذلك فانه لا يكون قد أدى الأمانة ، أمانة العلم فى جيله .

* * *

ان تسعين بالمائة من الأمة الاسلامية خلال قرون متعددة لهم صلة بالتصوف وأهله بشكل من الأشكال اما بالاشتغال فيه أو بالتلمذة على أهله أو بالصلة بهم أو بالثقة فيهم أو بالانتساب الاسمى لهم أو لمن تتلمذ عليهم ولا زال التصوف وأهله حتى الآن هم الذين يصلون الى بيئات ومناطق لا يصل اليها غيرهم فاذا كان الأمر كذلك فان هذا الأمر وحده كاف لأن يعطى المبرر الكبير للكتابة فى هذا الموضوع لتحريره وتنقيحه ووضع الأمور فى مواضعها فيه فلا يكفى أن تذكر الخطأ فى شىء وانما عليك أن تبين الصواب فيه ولا يكفى أن تهدم بل عليك أن تبنى وعليك دائما أن تقدم البديل الصالح للمبدل عنه الخاطىء خاصة اذا كان ما أنت فيه يستحيل الاستغناء عنه أو التفريط فيه أو تجاهله .

* * *

لا بد من صيغة صحيحة كبديل عن الأساس الواهى أو الضعيف ولا بد من بيان الحق فى كل أمر ومن جملة ذلك مباحث علم التصوف وأفعال أهله وأقوالهم وهذا وحده مبرر كاف للكتابة فى هذا الموضوع على أن الأمر أوسع من ذلك وضرورات الكتابة فى هذا الموضوع أكبر بكثير مما يظنه الظانون فالقلب والروح والنفس والعقل والجسد وأشياء كثيرة كبيرة كلها تقتضى بيانا من العاملين فى الدعوة الى الله واذا لم يؤدوا واجب البيان الصحيح يبقى للضلال سلطانه على النفوس بواسطة البيان الخاطىء ، ويبقى للمستغلين لقضايا التطلعات العليا للقلوب والأرواح سلطانهم على من يسمع لهم دون أن يكون لديه ميزان صحيح أو معرفة سليمة من خلالها يعرف ما يسمع وما لا يسمع وما يقبل وما لا يقبل وما يجب فيه الرفض وما يجوز فيه القبول وما محل ما يلقى اليه وما يدعى اليه فى شرع الله ... وانى لأظن أن أكثر ما سيذهب الانكار على فيه فى هذه الرسالة هو قضية الاسم فهناك ناس لا يطيقون أن يسمعوا اسم تصوف وصوفية ولهؤلاء أقول على رسلكم فهذا التاريخ بينى وبينكم انه لم ينكر خلال العصور اسم التصوف أحد من الناس لأنه اصطلاح على علم كعلم النحو والبديع والمعانى والفقه وغير ذلك ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقول العلماء وحتى فى عصرنا هذه فتاوى ابن تيمية خرج منها مجلدان تحت اسم التصوف والأخلاق ولم أر على ذلك منكرا فأرجو التأنى فى الانكار على قضية لا مبرر للانكار فيها أصلا اذ ما مبرر

الانكار على اسم مباح أطلق على علم من العلوم حتى أصبح علما عليه فاذا تجاوزنا هذه النقطة وينبغى تجاوزها فان المضمون هو الذى ينبغى أن يكون محل النقاش فليكن همنا هو الوصول الى الحق فى المضمون أكثر من مناقشة فى جانب لا يترتب على النقاش فيه أى طائل ٠

* * *

ولقد حاولنا فى هذه الرسالة أن نقدم نوعا من التصوف المحرر على أصول الكتاب والسنة ومذاهب أهل الحق ، لايماننا أن هذا وحده هو الذى يجب أن يكون وأن يصير اليه الناس جميعا ، فالطريق الى الله لا يمكن أن يلغى بل يجب أن يوجد ولكن ينبغى أن يحرر ويدقق وتحرر مسائله تحريرا دقيقا فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين والمعصوم هو الكتاب والسنة وقديما قال أكبر أعلام الصوفية فى عصره أبو سليمان الدارانى رحمه الله : « ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها الا بشاهدى عدل من الكتاب والسنة لأن الله عـز وجل ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك » ومن هنا ندرك خطأ الصوفى الذى يريد أن يجعل كل حرف قاله صوفى معصوما والذى يريد أن يجعل لكتب الصوفية من العصمة ما للكتاب والسنة ، ان أمثال هؤلاء لا فارق بينهم وبين غلاة اليهود والنصـارى الذين قال الله عز وجل فيهم : **« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم »**(١) فاذا كان رأينا فى أمثال هؤلاء كذلك فرأينا فى الذين يرفضون أصل علم التصوف وما فيه لمجرد أن وجد خطأ فيه هو أن هؤلاء يجانبون الرأى الصحيح فى هذا الموضوع فيقابلون خطأ بخطأ ويتصرفون برد فعل انفعالى غير عقلانى ولا متزن ٠٠٠ ولقد حاولنا فى هذه الرسالة أن نضع قدم المسلم فى سير الى الله صحيح وخال من الخطأ وحاولنا أن نرسم الطريق لوجود طبقة من الوراث الكاملين لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحملون دعوة الله كاملة ويربون الناس ظاهرا وباطنا على الحق فان أصبنا فى ذلك فلله الحمد وان أخطأنا فاننا نستغفر الله ونحن على استعداد اذا قامت الحجة على خطأ منا أن نتراجع عنه جهرة فان الحق وحده هو الذى نحرص عليه ونحرص على التمسك به وان فى قول الله عز وجل : **« ونكتب ما قدموا وآثارهم »**(٢) لعظة لنا ولغيرنا تحول دون مجانبة الحق خشية من الخلق ، ونحب أن نؤكد أنه اذا كنا فى هذه الرسالة قد حاولنا ابراز ماهية سير صوفى محرر فحملنا خلال ذلك على انحراف وصححنا خطأ وأيدنا حقا فاننا فى ذلك لم نأت بدعا من الأمر فلم يزل العلماء خلال العصور يقررون السير الى الله ويؤيدونه ويهاجمون المتصوفة الخاطئين أو المبتدعين أو الجاهلين ولم يزل

---

(١) التوبة : ٣١ (٢) يس : ١٢

المتصوفة أنفسهم يبرزون الجوانب الايجابية فى هذا العلم ويحملون على الخطأ فى التطبيق ولنضرب على ذلك مثالين مثالا عن العلماء ومثالا عن الصوفية :

أولا : فى مقدمة كتاب (كفاية الأخيار) فى فقه الشافعية يقول مؤلفه : « اعلم أن طلاب العلم مختلفون باختلاف مقاصدهم ، وهممهم مختلفة باختلاف مراتبهم فهذا يتطلب الغوص فى البحر ونحوه لنيل الدرر الكبار وهذا يقنع بما يجد فى غاية الاختصار ، ثم هذا القانع صنفان أحدهما ذو عيال قد غلبه هم الرزق ، والآخر يتوجه الى الله تعالى بصدق وجد . فلا الأول يقدر على ملازمة الخلق ، والسالك مشغول بما هو بصدده ليله ونهاره مع نفسه فى قلق فأردت ... » لاحظ قوله : والسالك مشغول بما هو بصدده ليله ونهاره مع نفسه فى قلق ، فهنا كلام عن سالكين متوجهين الى الله عز وجل وفى مقام آخر من كتابه يحمل على الصوفية . من هذا كله ندرك أدب العلماء فالسلوك الى الله مطلوب ، وجوانب الخطأ تقوم هى وأهلها فى الله ولننتقل الى المثال الآخر .

ثانيا : فى قصيدة المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطى وهى قصيدة لها عند الصوفية مقام كبير ، يقول فى مقام من هذه القصيدة :

هذا الطريق من أجل الطرق فافهم هديت واقتده بنطق

ثم هو نفسه يقول فى مقام آخر :

فهذه طريقة قد درست وشجرة أغصانها قد يبست
كانت اذن مواردا شريفة فاستبدلت مذاهبا سخيفة
قد أسست على صحيح العقل وانها الآن بمحض الجهل
يدعى الذى يمشى عليها سالك وسالكوها اليوم حزب هالك

ثم يقول بعد أبيات :

يا قاصدا علم الطريق السالف

لا تقتد بهذه الطوائف ما منهم من علم المقصودا
منه ولا الوارد والمورودا لم يعرفوا حقيقة الطريقة
فالقوم جهال على الحقيقة فاحذرهمو خشية يفتنوكا

واترك سبيلا لم يزل متروكا

واذن فما أجرينا عليه هو دأب العلماء والصوفية بآن واحد خلال العصور . نقول هذا ليعرف الصوفى والعالم بآن واحد أننا لم نأت بدعا من الأمر بل ما نحن فيه هو الذى يجب أن يصار اليه والعبرة للتحقيق والحكم الفصل للنصوص قال تعالى : ((**فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**))(١) والصدر مفتوح لكل كلمة حق تقال سواء قالها صوفى أو سلفى بلا حساسية من أحد فلا يليق بطالب علم أن يكون الا عاشقا للحق باحثا عنه اذا عثر عليه اعتنقه أما ما سوى ذلك فشأن أهل الأهواء ...

* * *

أولا : ان للتصوف فيما آل اليه جانبين : جانبا عمليا وجانبا نظريا ، والجانب العملى منه ما هو متفق مع السنة ومنه ما يخالفها ، والجانب النظرى فيه منه ما هو من باب الكشوفات والالهامات ومنه ما كان شرحا لطريقة التحقق بالعقائد وأخلاق النفس ، والمعركة القائمة حول التصوف انما تدور بسبب بدع الأعمال وبسبب الكشوفات والالهامات وسنحاول أن نضع الأمور فى مواضعها فى الكثير من هذه الأمور فى هذه الرسالة . ان شاء الله تعالى .

ثانيا : ان علينا فى أمر التصوف واجبين : الأول : أن ندل الانسان على السير الصحيح الى الله عز وجل ، والثانى : أن نحرر التصوف من دخنه ليصل المسلم بذلك الى أن يكون عنده مناعة ضد الوقوع فى أسر جاهل أو جهل . وكل ذلك من أجل الوصول الى تربية صوفية رفيعة وواقعية ، وهذا الذى حاولنا فعله ، ولكن هذا كما قلت سيدخلنى فى صراعات مع جهات متعددة بعضها صوفى وبعضها سلفى وبعضها ذو حساسية خاصة أمام هذه الأمور . سيقول بعض الصوفية : ان هذا ما شم رائحة الذوق الصوفى وأنه لم يعرف اصطلاحاتنا وأنه لا يحق له أن يتكلم فى شىء لا يعرفه . وسيقول بعض أعداء التصوف : ان فى هذا الكتاب خدمة لحلقات الصوفية القائمة ، اذ كثيرون سيقرؤونه ويقتنعون بالسير وتكون الحصيلة أن يذهبوا الى شيخ من شيوخ الصوفية غير المتحققين بما ذكرت والذين يربون على الغلط فيسلكون على يديه وسينسون ما ذكرت أو يفتنون بغيره . وسيتهمنا بعض الناس أننا قطاع طريق ومناوءون للخير . ولعله لهذه الأسباب ولأسباب كثيرة مثلها بقيت مترددا آمادا كثيرة فى الكلام عن هذه المواضيع فكم مرة وصلت الى قناعة بضرورتها وكم مرة وصلت الى قناعة بأن على ألا أفعل وأن أكتفى

---

(١) النساء : ٥٩ .

بسلسلة (الأساس فى المنهج) عنها وأخيرا شرح الله الصدر للكلام ولله الحمد ولم يعد فى العمر فسحة حتى أحسب للخلق حسابا ولم يعد فى النفس مكان لأن يثنينى مدح المادحين أو قدح القادحين عن أن أقول لهذه الأمة الحبيبة الى : أمتى الاسلامية كل ما ينبغى أن يقال لها • وبالاجمال أقول لأصناف الناس الذين ذكرتهم :

١ ـ لقد تتلمذت فى باب التصوف على من أظنهم أكبر علماء التصوف فى عصرنا وأكثر الناس تحققا به ، وأذن لى بعض شيوخ الصوفية بالتربية وتسليك المريدين واشترطت عليه أن لا أقيد نفسى بطريقة وألا أتقيد فى هذا الشأن الا بالكتاب والسنة • أقول هذا ليعرف الصوفية أننى أتكلم بفضل الله عن علم وذوق وليعرف غيرهم أنه لا يستهوينى الا الكتاب والسنة •

٢ ـ ان الله عز وجل يقول : **« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »**(١) فنحن مهمتنا التبصير والله عز وجل يقول **« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه »**(٢) •

٣ ـ اننى حريص على أن يوجد نوع من التصوف السلفى له شيوخه وحلقاته : حلقات العلم والذكر وليس أمامى غير هذا الطريق •

٤ ـ لست حريصا على أن ينفض الناس عن شيوخهم ولست حريصا على أن ينقطع خير بل على العكس من ذلك أتمنى أن تزداد الصلات الطيبة بين الناس وأن تكثر حلقات الخير والعاملون لها ولكن على أن يكون ذلك كله مستقيما على أصول الشريعة وفروعها وألا يكون على حساب واجبات أخرى •

٥ ـ لقد ظهر من خلال التجربة للحركة الاسلامية المعاصرة أن الشيء اذا لم تكن أبعاده واضحة لا يؤتى ثماره والحركة الاسلامية المعاصرة اعتمدت التربية الصوفية فكرا وسلوكا بشكل مجمل فقد ذكر الأستاذ البنا فى رسالة التعاليم كيف أن مرحلة من المراحل طابعها صوفى من جانب ، وذكر فى رسالة المؤتمر الخامس أن من خصائص دعوتنا أنها حقيقة صوفية وترك فى مذكراته لمريد التربية الخاصة الحرية فى أن يسلك طريق ذلك وذلك فى معركة الكلام عن موقفه من التصوف ولكن الذى حدث أن تفصيلا سلفيا فى السير الى الله لم يتم فكان من آثار ذلك أن كثيرين من أبناء الحركة الاسلامية كانوا يستشعرون فراغا وخواء روحيا فأدى ذلك ببعضهم الى السلوك على يد

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الاسراء : ١٥

شيخ أو شيوخ لم يعرفوا حقيقة الدعـوة الاسـلامية المعاصرة وضرورتها فحرفوهم أو صرفوهم عن واجبات هي فى الذروة من فرائض الله فى هذا العصر ٠

٦ـ وأخيرا فان عصرنا عصر الشهوة وعصر النزوة وعصر المـادية ولابد أن نقابل هذه الأشياء فيه بما يكافئها ويقابلها وبجزم أقول : ان التربية الصوفية وحدها هى التى تقابل ذلك : فالشهوة لا يحل مشكلتها المقال وحده بل لا بد من الحال ولا بد من البيئة والتربية ، والمـادية لا يكافئها الكلمة وحدها بل لا بد من الشعور والذوق والاحساسات الايمانية مع المقال ، والتمرد لا يعالج بالكلمة وحدها بل يعالج بالاخبات لله والتقوى والورع والأدب وهذه طريقها العملى هو التصوف ، فاذا اتضح هذا كله لم يبق الا أن يناقش مناقش ولمـاذا اسم التصوف والجواب كما قلت من قبل ولمـاذا اسم النحو ولمـاذا اسم البديع ولمـاذا اسم الصرف ؟ انه مجرد اصطلاح على علم نشأ كما نشأت بقية الاصطلاحات وتأكد خلال العصور ، ومن الابتداء أحب أن أسجل (ولو كررت) أكثر من أمر حول هذه الرسالة :

(١) انني أريد فى هذه الرسالة أن أضع قدم المسلم فى طريق السير الى الله ليذوق حقيقة الايمان وبنفس الوقت أريد أن يتعرف المسلم على معنى الحقيقة الصوفية التى هى احدى سمات دعوة الأستاذ البنا رحمه الله ولم أرد أن أستوعب موضوع التصوف من بدايته الى نهايته فذلك بحث هو أليق بالدراسات العليا وبأهل الاختصاص ، وأنا أكتب لكل انسان ٠

(٢) كما أننى أريد من هذه الرسالة ورسالة (جولات فى الفقهين) أن أضع قدم المسلم على الطريق للدراسات الصوفية بحيث يقرأ كتب التصوف وبيده ميزان أو مصباح على ضوئه يسير ، وبه يزن ما يقرأ ، ومن ثم فأنا لا أعتبر هذا الكتاب الا سلما للقراءة فى كتب التصوف وخاصة كتب : المحاسبى والغزالى رحمهما الله وخاصة الرسالة القشيرية للعالم الفارس المجاهد أبى القاسم القشيرى ولا أنسى أن أذكر برسالة المسترشدين للمحاسبى وتعليقات الشيخ عبد الفتاح أبى غدة حفظه الله عليها ٠

(٣) ليست هذه الرسالة كما سنرى بديلا عن الصحبة والاجتماع ولا تغنى عن توجيهات الشـيوخ العالمين العاملين الواعين البصيرين باحـوال العالم وأحوال المسلمين والقادرين على نقل الانسان من حالة دنيا الى حالة عليا فى الصلاح ولكنها تدل على النوعية التى ينبغى أن يبحث عنها الانسان ليأخذ عنها وتدله على طبيعة الأخذ وتحذره من جوانب الخطأ ، وهى فى الوقت نفسه كافية كنقاط علام على الطريق الى الله اذا فقد الانسـان أمثال هؤلاء ، أو هى زاد

الطريق ريثما يعثر الانسان على أحد منهم يستريح للاخذ عنه عقل العالم ويستروح له قلب الفقيه ، ثم اذا أخذ منه أخذ على بصيرة ، على أنه اذا التزم الانسان بما فيها فاننى مطمئن الى أنها تغنيه وتكفيه فى سيره الى الله بما فيه نجاته عند الله ان شاء الله ثم أننى أجيز كل مسلم أحس من نفسه فهما صحيحا لها وطبقها وظهرت عليه آثار التطبيق أن يقرئها وأن يربى عليها وخاصة طلاب العلم من خريجى كلية شريعة أو أزهر أو متخرجين على شيوخ ٠

(٤) اننى لم أبن فى هذه الرسالة على فراغ ولم أنشىء علما من عند نفسى بل أخذت الكثير مما تيسر لى أن أقرأه من كتب الصوفية كما أن لى تجربتى، ونحن فى عصر يمر على هذه الأمة يختلط فيه الخير بدخن ، قال حذيفة سائلا رسول‌الله صلى الله عليه وسلم: فهل بعد الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن(١) أذكر هذا لأنه قد يقول قائل ان كاتب هذه الرسالة قد نقل النقل الفلانى عن الكتاب الفلانى الذى فيه كيت وكيت مما قد أعتبره أنا فى نفسى من الدخن الكثير ، يفعل ذلك ليسفه الرسالة وصاحبها ويهدم قيمة هذا الجزء الذى نقلته وانى لأرجو أن لا يقع المنصف فى مثل هذا لأن الخير قد يختلط بالدخن فقد نجد كتابا فيه الدخن الكثير ولكن فيه الخير الكثير أيضا فاذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن يحول بيننا وبين أخذ الخير وجود هذا الدخن كما لا يصح لانسان أن يلزمنى بكل كلمة قالها مؤلف فى كتاب على أن كلمته تمثل رأيى بمجرد أننى نقلت عبارة أو سريت على مسرى صاحب هذا الكتاب ٠

(٥) اننى أفهم حركة الأستاذ البنا ودعوته على أنها حركة حاولت أن تجمع فيها كل الخير الموروث محررة اياه من دخنه وكل الخير اللازم لهذه الأمة على أن يكون بلا دخن ، بل اننى أفهم أن هذا هو الواجب الأول للحركة الاسلامية المعاصرة ٠ لقد انطلق العمل السياسى فى الأرض الاسلامية بلا ضوابط ولا قيود وأراده الأستاذ البنا بناء منضبطا بالاسلام خاليا من الدخن منطلقا على أساس صحيح ٠

وانطلقت الحركة السلفية فى أكثر الأقطار بمفاهيم غامضة وأحيانا خاطئة وبطرق يختلط فيها الهدم بالبناء فأرادها الأستاذ البنا سلفية منضبطة واضحة المعالم تعرف ما ينبغى تهديمه وما ينبغى بناؤه وورثت الأمة الاسلامية ارثا ضخما من كتب التصوف ودوائره المتمثلة بمئات الطرق الصوفية وفى خضم الارث تجد خيرا كثيرا ودخنا كثيرا فأرادها حقيقة صوفية ٠٠ وقل مثل

---

(١) رواه البخارى ومسلم ٠

ذلك فى كل شىء ولم يكن حسن البنا رحمه الله مخطئا عبما جعل من سمات دعوته أنها حقيقة صوفية لأمور :

(أ) لأن التصوف نزعة أصيلة فى النفس البشرية فلا بد أن تكون جزءا من دعوتنا ولا بد أن تكون لنا مدرستنا الخاصة فيها ٠

(ب) لأنه ليس أمامنا خيار فى الرفض المطلق للارث الصوفى ولا فى القبول المطلق فكان لابد من وجود ميزان للاخذ وميزان للرفض ٠

(ج) انه بدون الاستفادة من التجربة الصوفية قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس البشرية التى عقدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر فكما أن الكثير من المسائل اليومية احتجنا للاجابة عليها لرأى الفقيه فان الكثير من المسائل العقلية والروحية والنفسية نحتاج فيها لتجربة المجرب وفيما كتبناه فى رسالة جولات وفى هذه الرسالة ما يكفى للاقناع بأن الأستاذ البنا كان على غاية الصواب اذ جعل من سمات دعوته الرئيسية أنها حقيقة صوفية٠

(٦) لقد جعل الأستاذ البنا رتبة النائب واحدة من رتب العضوية داخل الجماعة الاسلامية واننى اذ أعتبر أن نقطة البداية فى صحة أمتنا هو المجدد كما أوضحت ذلك فى رسالة من أجل خطوة الى الأمام ٠٠ (من سلسلة فى البناء) فاننى أعتبر أن وجود طبقة من الوراث الكاملين يغطون احتياجات الدعوة بما يسع الأمة أعتبر ذلك هو الخطوة اللاحقة التى لا بد منها بعد وجود المجدد وأى فشل فى ذلك انما هو فشل فى الصميم واننى أعتبر أن رتبة النائب فى الجماعة هى التى تقابل كلمة الوارث الكامل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى التى تقابل رتبة الشيخ المربى فى اصطلاح الصوفية واننى أحلم من خلال هذه الرسالة أن أساعد على وجود النائب فى الحركة الاسلامية بحق فلا تبقى هذه الرتبة بلا مضمون صحيح ٠٠ ان الصوفية عندهم اصطلاح المرشد الكامل ولقد كان الأستاذ البنا مرشدا كاملا بشهادة كبار الصوفية أنفسهم وكان كذلك مجددا والأخوة النواب هم خلفاؤه الحقيقيون وهى قضية يجب أن تأخذ مضمونها الكامل فى الدعوة ٠ ولا يصح أن نربط بين هذه الرتبة وبين زى بعينه فحتى الصوفية تجاوزوا هذا المعنى فكم من مرشد عندهم لا يقيد نفسه بزى العلماء أو هيئة تخالف ما ألفه الناس هذا مع حرصنا على الزى الاسلامى والهيئة النبوية ، ان هذا كله يجعل هذه الرسالة جزءا من البناء الاسلامى ٠

* * *

) لقد جربت كثيرا ورأيت كثيرا ونادرا ما وجدت كمالا فى النفس أو احسانا فى السلوك أو قدرة على التعامل العاقل الا اذا وجدت تربية اسلامية صوفية صافية وذلك لأن مفاتيح النفس البشرية انما هى فى هذه التربية وأصولها وقواعدها لأن الصوفية هم الذين ورثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تربية النفس وتزكيتها وتخصصوا لذلك وتفرغوا له وفطنوا لما لم يفطن له غيرهم وقامت لهم فيه أسواق من التجارب الثرة فى كل عصر فما لم يأخذ الانسان عنهم تبقى نفسه بعيدة عن الحال النبوية ، ان الصوفية هم الذين ملكوا العلم الذى تتهذب به النفوس البشرية ، ان فى علاقتها مع الله عز وجل أو فيما سوى ذلك من القدرة على التعامل مع الناس ٠٠ ولقد درجت الحركات الماسونية على أن تسمى الانسان الذى لم ينتسب الى المحافل الماسونية حجرا غشيما لأنه ليس منحوتا بحيث يمكن أن يأخذ محله المناسب فى بناء المجتمع والذى نقوله : ان الماسونية يمكن أن تنحت الحجارة ولكن تبقى الحجارة حجارة فى قسونها « **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة** »(١) لكن التصوف والبيئات الصوفية هى القادرة على ايجاد الانسان فى كمالاته كلها الانسان الذى يقوم بفرائض العبودية لله والانسان الذى يقدم أعظم العطاء فى باب التعامل مع الآخرين فيقوم بذلك مجتمع كله أدب وكله تراحم وكله عطف وكله مودة وكله ايثار وكله لطف ٠٠ لكن خلط بعض الصوفية الخير بكثير من الدخن فأثر على الهيكل العام للبناء ومهمتنا فى هذا العصر أن نوجد التربية الصوفية الكاملة الصافية وذلك بزرع بيئات صوفية صافية على أن يأخذ التصوف محله فى مجموع الاسلام فلا يكون ملاذا لكسل أو هربا عن جهاد ٠٠

* * *

وهناك ناس يطرحون دائما سؤالا وفى كل حال اذا أعيتهم الحجج وهو : أليس فى الكتاب والسنة ما يغنى عن هذا الكتاب والجواب : نعم ولكن هذا الكتاب يجمع المثل الى المثل ثم انه ليس كل انسان بقادر على أن يقرأ الكثير ويستوعب الجميع ويربط بين المواضيع ولا بد للانسان من أساس موضح ونقطة انطلاق سريعة المتناول ومن ثم كان هذا الكتاب فاذا كان الكتاب مقيدا بالكتاب والسنة ومحررا على ضوء ذلك فالانكار عليه خطأ لأن المنكر عليه ينبغى أن ينكر على أى كتاب ألف ، اذ ليس فى الكتاب والسنة ما يغنى ويكفى ٠٠ وهذا الذى ذكرته فى الجواب ههنا هو فى الحقيقة السر فى نشأة هذا العلم ونشأة كل علم لقد وجد علم التصوف واستقر ٠٠ وكما قررنا فى رسالة جولات لم يكن ممكنا ألا يوجد ، وأن لا يستقر ، فعندما تقرأ الكتاب والسنة

---

(١) البقرة : ٧٤

تجد كلاما كثيرا عن القلب والايمان والذوق وأمراض القلوب ودواء هـذه الأمراض وتجد كلاما عن صمم القلب وعماه وعن سلامته وسقمه وعن تقواه وفسوقه ، وعن النفس البشرية عن زكاتها وعن فجورها وأمثال هذه المعانى فشىء عادى أن يسجل علماء المسلمين كل ما له علاقة بهـذه المعانى وهـذه القضايا ضمن سجل خاص وأن ينشأ نتيجة لذلك علم خاص فى كل ما له علاقة فى حيثيات هذه المعانى ، وكان هذا العلم هو علم التصوف والسلوك فليس المستغرب اذن أن يوجـد هذا العلم بل المستغرب ألا يوجد اذ دأب علمـاء المسلمين أن يكتبوا فى كل موضوع على حدة فيضموا الشىء الى نظيره ومثيله ويشرحوا ويفصلوا ويجيبوا على أى سؤال له علاقة فى هذا الموضوع ومن ثم وجد العلم وتطور وحدث له ما يحدث لكل علم من التصدى له ممن ليس من أهله والتأليف فيه ممن يتقنه أو لا يتقنه ومن منحرف فيه ومستقيم ، انه ليس غريبا أن يوجد العلم الذى يسجل فيه المسلمون خلال تاريخهم ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة فى موضوع السير من الغفلة عن الله الى اليقظة ومن الشرود الى الالتزام ومن مرض النفس والقلب الى صحتها ولكن المستغرب ألا يوجد ، فاذا وجد العلم ووجد المختصون فيه ووجد الآخذون له فقد قام سوقه ، كيف وهو علم يحتاجه كل مسلم ، واذا كان كذلك فشىء عادى أن تقوم له مدارس وأن يكثر فيه الأخذ والرد وأن توجد أشياء كثيرة ترافق هذا العلم وتعتبر من مكملاته أو لوازمه ، وشىء عادى أن يكون الطريق الأقصر للراغب أن يتعلم أو يتعرف أو يعمل ، أن يقرأ هذا العلم فى كتبه وأن يأخذه من معدنه ، وفى هذا المقـام يقال ما يقال فى غيره من العلوم : الكتاب والسنة فيهما بيان كل شىء ومن ذلك ما له علاقة فى هذا العلم ولكن ..

هل كل انسان أحاط فى الكتاب والسنة وعنده قدرة أن يجمع النظير الى النظير وأن يعرف تفصيل المجمل وأن يضع الأمور فى مواضعها وهل الناس متساوون فى الفهم وفى بعد النظر وفى عمق الادراك ، ان الذين ينفرون المسلم العادى عن أخذ العلوم من كتبها وأهلها يطولون عليه الطريق بل يمنعونه من الوصول ، فكما لا يقال للمسلم تتبع موضوع الناسخ والمنسوخ من كتب التفسير ان أردته ، وكما لا يقال للمسلم تتبع أسباب النزول من مطولات كتب التفسير مع وجودها فيها ، بل يقال له اقرأ كتاب الناسخ والمنسوخ لفلان وأسباب النزول لفلان فهكذا هنا وفى كل علم فذلك الطريق الأقصر لتحصـيل العلم والتعرف عليه .

* * *

واذا كان لا بد من وجود علم فلا بد كذلك من تحريره وتنقيحه فكيف اذا حدث لهذا العلم ما حدث لعلم التصوف من كونه سار فى واد والتصـوف

العملى سار فى واد آخر • ونقصد بعلم التصوف مهنا التصوف العلمى المحرر على ضوء الكتاب والسنة والمرضى من قبل العلماء الراسخين فى العلم فاذا اتضح هذا كله فان عذرنا فى كتابة هذه الرسالة أصلا وفى تسميتها هذه التسمية أصبح قائما •• وانما أطلنا فى الاعتذار لكتابة هذه الرسالة وأطلنا فى تبيان الضرورات التى ألجأتنا لكتابتها لأن كثيرين من اخواننا الذين نحبهم ويحبوننا يتمنون لنا ولأنفسهم أن نبقى فى معزل عن المعارك العلمية الدائرة رحاها بين المسلمين اليوم لنكون أداة جمع للجميع على الخير ونشكل قاسما مشتركا بين الجميع لصالح معركة الاسلام وأنا أحرص على ما يحرصون ، ولكن عملية البناء لأنفسنا لا تعفينا عن أن نطرق هذه المواضيع وعملية البناء تأتى دائما فى الدرجة الأولى ••

* * *

ولقد أهملت فى هذا الكتاب بحث كثير من الأمور التى أعتبر أن بحثها لايخدم من الناحية النظرية أو العملية الا خدمات استثنائية لا تذكر ، لاعتقادى أن مثل هذه الأمور يجدها الانسان فى أى كتاب ولا يترتب على قراءتها فى هذه الكتب ما يمكن أن يسبب ضررا ولذلك أعفيت نفسى من الاشارة الى كثير من المباحث حرصا منى على أن تبقى هذه الرسالة مختصرة جدا لا يمل منها قارئها ولا يضيع فى ثنايا الحيثيات عن الجوهر الأصيل وأنا من طبيعتى أننى لا أحب أن أكتب فى أمر الا حيث أجد ضرورة لذلك وبالقدر الذى تحتاجه هذه الضرورة وههنا الأمر كذلك فاذا رأى راء أننى لم أسر فى هذا التأليف على الطريق المعتادة عند المؤلفين من كونهم يهتمون بذكر الاسم وسبب التسمية وغير ذلك مما يعتبرونه أركانا فى التأليف فى أى علم فذلك لاعتقادى أن هذا متوافر فى أى كتاب آخر ، والذى أحرص عليه هو أبعد من أن تكون هذه الرسالة اضافة كتاب فى علم على ما لذلك من مبررات ولكنى أعتبر ذلك مهمة المختصين ولا أعتبر نفسى واحدا من هؤلاء فى أى اختصاص وانما أنا مساعد فى عملية البناء ، فما تقتضيه هذه العملية أعتبر من واجبى أن أبذل فيه جهدا بقدر استطاعتى ، أقول هذا معتذرا عن القصور الذى يمكن أن يؤاخذنى فيه قارىء هذه الرسالة اذا لم يجد فيها بعض ما يحب أن يكون ، على أننى أظن أننى لم أفرط فى جوهر ينبغى أن يعرف ، ولا يصعب على القارىء أن يمد يده الى مثل الرسالة القشيرية ـ لأبى القاسم القشيرى أو لكتاب قواعد التصوف للشيخ أحمد الزروق ليجد جوابا على أى موضوع أهملته أو أهملت التوسع فيه وكم أتمنى لو طبع هذان الكتابان مع التعليق المختصر عليهما من فقيه صوفى •• وأخيرا أقول : ان الكتابة فى موضوع السير الى الله ضرورة تقتضيها ضرورات متعددة فهذا الانسان له ما يسمى بالنفس وما يسمى بالعقل وما يسمى بالقلب

وما يسمى بالروح وكل واحد من هذه المعانى عوالم عجيبة غريبة لا تنكشف للانسان الا من خلال السير الى الله عز وجل ومن ثم كان السير الى الله عز وجل ضروريا للانسان ليعرف الانسان ذاته وما انطوى عليه ومن ثم كان الانسان الذى لا يسير الى الله لا يعلم شيئا كثيرا عن آفاق النفس وآفاق الذات وهذا سبب أول يدفع الانسان نحو السير الى الله عز وجل ٠ والسير الى الله عز وجل هو الطريق الوحيد للمعرفه الصحيحة الذوقية الشعورية لله عز وجل فان الانسان يجهل الكثير عن خالقه عز وجل ما لم يسر الى الله عز وجل حتى لو كان مؤمنا ، ففارق كبير بين الايمان العقلى النظرى وبين الايمان الشعورى الذوقى وهذا سبب ثان يدفع الانسان الى السير الى الله عز وجل والنفس البشرية تمرض ولا تصح الا بسلوكها الطريق الصحيح الى الله عز وجل ، والنفس البشرية مطالبة بعظيم من الأخلاق ولا تنال الفلاح بدونه وهذا لا تتحقق به بدون السير الى الله عز وجل وهذا سبب آخر يدفع الى السير الى الله عز وجل ٠٠ ومن ثم كان السير الى الله عز وجل واجبا على درجات تختلف باختلاف الاستعدادات فلا بد من سير وعلى قدر الهمم تكون درجات السائرين قال تعالى : ((**قد أفلح من زكاها ٠ وقد خاب من دساها**))(١) ٠ وقال ((**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**))(٢) ٠ وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح ((لو كان الايمان فى الثريا لناله رجال من أبناء فارس)) (رواه البخارى) ٠٠ والسير الى الله عز وجل يقتضيه التنفيذ الواعى الحكيم لاوامر الله عز وجل فالذى لا يعرف أصول السير الى الله والغاية منها يفوته الكثير من تنفيذ الأوامر الالهية كقوله تعالى ((**اقرأ باسم ربك الذى خلق**))(٣) وكقوله تعالى ((**واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا**))(٤) كما يقتضيه تذوق المعانى الاسلاميه الواردة فى الكتاب والسنة كقوله تعالى . ((**كل شىء هالك الا وجهه**))(٥) وكقوله عليه الصلاة والسلام ((اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك))(٦) فالسير الى الله ضرورى والكتابة فيه ضرورية ودفع الأوهام فيه ضرورى وانهاء الغلو فى شأنه ضرورى ٠٠ وكل ذلك دافع الى كتابة هذه الرسالة على أنه كما قلنا من قبل : ((اننا نعتقد أن كل مسلم سائر الى الله ما دام يفعل ما أمره الله عز وجل وله حظ من مقامات السير بذلك ولكن البحث عن الكمال والوصول اليه واتيان البيوت من أبوابها ومعرفة المصادر والموارد والبدايات والنهايات والحدود والقيود للمقامات كلها دنياها وعلياها هذا الذى يطلق عليه اسم السير الكامل ٠ ومن هنا ندرك غلط الذى لا يتصور أى سير الى الله عز وجل الا من خلال التصوف والسير فيه وهو شىء ذكرناه

---

(١) الشمس : ٩ ، ١٠ (٢) الحج : ٣٧
(٣) العلق : ١ (٤) المزمل : ٨
(٥) القصص : ٨٨
(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية وهو حديث حسن ومعناه فى الصحيح ٠

من قبل ردا على من ينكر وجود علم التصوف وردا على غلاة الصوفية الذين لا يتصورون سيرا الى الله بدون سير على أيدى أهل الطريق اذ الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم الى أن تقعدت قواعد علم التصوف ما كان لهم هم الا فى دراسة الكتاب والسنة وتطبيق ذلك ٠ فاذا لم يكن هذا سيرا ٠٠ فما هو السير ومن هذه النقاط البسيطة يستطيع المسلم أن يدرك بعض ملامح هـذه الرسالة فلنكتف فى هذه المقدمة بذلك ٠ ولشعورنا أن مجموعة من الأمور تحتاج الى تصحيح قبل البدء بعرض موضوعات هذه الرسالة الخاصة بالتصوف جعلنا الباب الأول فيها (مدخل اسلامى عام) فالى الباب الأول ٠

الباب الأول

مدخل اسلامى عام

الاسلام كما قال الأستاذ البنا « نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة أو حق وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء » وقال رحمه الله « فاننا نعتقد أن الاسلام معنى كامل ينتظم شئون الحياة جميعا ويفتى فى كل شأن ويضع له نظاما محكما دقيقا ولا يقف مكتوفا أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لا بد منها لاصلاح الناس » وهذا الذى قاله الأستاذ البنا عن الاسلام هو عين الحق فى شأن الاسلام وهو من أهم البديهيات التى غابت عن أذهان الكثير من المسلمين فضلا عن غيرهم مع أن نصوص القرآن واضحة فى هذا الشأن قال تعالى : ((**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**))(١) فكلمة (**تبيانا لكل شىء**) واضحة فى أن القرآن قد غطى الحياة البشرية كلها باعطائها الجواب الشافى فى شئون الهداية فى كل أمر ، وانما غطى القرآن الحياة البشرية اما بالجواب المباشر واما بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله وحاله الذى هو شرح للقرآن ، واما بما أحال عليه الكتاب والسنة من طرق من خلالها تستنبط أحكام الاسلام فى الأحوال العادية والأحوال الاستثنائية بما يسع الزمان والمكان والاشخاص والأحوال ، وههنا مواضيع متعددة غفل عنها الكثيرون أو جهلها الكثيرون ، فكما غفل كثير من الناس أو جهلوا قضية شمول الاسلام فقد جهلوا أو أغفلوا قضية أخرى وهى قضية الايمان اذ الايمان بالاسلام كله شرط لاعتبار الانسان مسلما فاذا كان التصور العام عن الاسلام مخدوشا فشىء عادى أن تكون قضية الايمان نفسها مخدوشة ٠٠ وكثيرا ما يحدث لبس فى موضوع الصلة بين الاسلام والايمان وكثيرا ما يحدث خطأ فى فهم النصوص التى تذكر الايمان والاسلام فاقتضى ذلك أن نوضح هذه القضايا ٠

---

(١) النحل : ٨٩

ان كلمة الاسلام تطلق على الدين الذى أنزله الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم والذى فصلته نصوص الكتاب والسنة وهو بهذا المعنى كما رأينا نظام شامل كامل يسع مسائل الحياة البشرية كلها ففيه العقائد وفيه العبادات وفيه الشرائع وله مؤيداته فهو عقائد وشرائع وشعائر وهو تغطية كاملة شاملة لأمر الدنيا والآخرة بما يسع الزمان والمكان . وتطلق كلمة الاسلام صفة للانسان الذى دخل فى الاسلام فيقال : فلان أسلم بمعنى دخل فى الاسلام ويقال اسلام فلان بمعنى استسلام فلان وعمله فى هـذا الدين ومن ثم تطلق كلمة الاسلام على العمل فاذا أسلم قلب الانسان وجوارحه لله فى كل ما كلفه الله به ظاهرا وباطنا فذلك المسلم الحق قال تعالى : ((**أفمن شرح الله صـدره للاسلام فهو على نور من ربه**))(١) واذا أسلمت جوارح الانسان دونقلبه فذلك المنافق ما دام كذلك ، وأما الايمان فيطلق على مجرد التصديق القلبى مـع الاذعان كما يطلق أحيانا على ايمان القلب وما يقتضيه ذلك الايمان من آثار عملية وذلك هو الايمان الكامل الذى وقر فى القلب وصدقه العمل ، قال تعالى : ((**انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا**))(٢) وقال ((**انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون**))(٣) وعلى هذا فالايمان الكامل تصديق القلب واذعانه مع عمل الجوارح بمقتضيات ذلك . فالايمان الكامل والاسلام الكامل سواء فهما بمعنى واحـد اذ الاسلام الكامل استسـلام القلب والجـوارح والايمان الكامل هو تصـديق القلب وتصديق الجوارح ومن ثم نجد القرآن يقول ((**فأخرجنا من كان فيهـا من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**))(٤) فهؤلاء مسلمون ومؤمنون ايمانهم هو عين اسلامهم واسلامهم هو عين ايمانهم لأنهم مؤمنون كمل ومسلمون كمل ، والاسلام الكامل هو عين الايمان الكامل وأحيانا يتخلف الايمان عن الاسلام كأن يدخل أحد فى الاسلام ويعمل بأعماله ولم يصل نور الايمـان الكامل الى قلبه . قال تعـالى : ((**قالت الأعـراب آمنـا قـل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسـلمنا ولمـا يدخل الايمان فى قلوبكم**))(٥) فههنا عمل بالاسلام وتخلف فى نورانية القلب فى الايمان ، الا أن الآية تشـعر أن العامل بالاسلام هو على الطريق للتحقق بالايمان القلبى ، فههنا اذن نجد فارقا بين كلمتى الاسلام والايمان ، اذا أدركنا مبدئيا هذه المعانى أصبحنا نستطيع أن نفهم لمـاذا تذكر بعض الأمور أحيانا على أنها من الاسلام ولمـاذا تذكر نفس هذه الأمور على أنها من الايمان ولمـاذا تذكر بعض الأمور فى سياق الكلام عن

---

(١) الزمر : ٢٢

(٢) الأنفال : ٢ ــ ٤

(٣) الحجرات : ١٥

(٤) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦

(٥) الحجرات : ١٤

الايمان المحض بمعنى التصديق وأحيانا تذكر بعض الأمور فى سياق الكلام عن الاسلام بمعنى عمل الجوارح واستسلامها وفى هذه الجوانب كلها يقع نوع من الغلط أو يوجد نوع من القصور فى الفهم والتصور ٠

والملاحظ أنه كما حدث قصور فى التصورات حول الاسلام فقد وجد قصور فى التصورات حول مقامات السير فى دين الله ، وقصور فى العمل فى هذه المقامات نفسها هو أثر عن القصور فى التصور العام ٠

انه فى الأحوال العادية اذا قبلت الدخول فى دين الله ـ الاسـلام ـ فعلى أن اعرف ماهية دين الله وعلى أن أعرف ما هو واجب الوقت فى حقى وأن أنفذه سلبا أو ايجابا ، تنفيذا لامر أو انتهاء عن نهى ، وسيترتب على عملى فى الاسلام أن يتنور قلبى وأن يزداد نور الايمان فيه ، وكلما زدت فى العمل ازداد نور الايمان حتى يرتقى القلب الى مقام الاحسان « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » (رواه أبو نعيم فى الحلية ٠ وهو حديث حسن) اذ مقام الاحسان هو ذروة مقام الايمان بدليل الحديث « أفضل الايمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت » (رواه الطبرانى وأبو نعيم وهو ضعيف) وبقدر نمو الايمان والتحقق بمقام الاحسان سينعكس ذلك على سلوكى استقامة وعملا واحسانا وبذلك أتحقق بالتقوى التى هى هبة الله لعباده قال تعالى : **((والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم))(١)** وبقدر الاستمرار على تقوى الله نكون مؤدين حق الشكر ونحن فى سبيل الترقى فيه وهو أعلى المقامات وأرقاها ، قال تعالى : **((اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادى الشكور))(٢)**

وما التقوى الا الطريق الموصل لهذا المقام ، قال تعالى : **((فاتقوا الله لعلكم تشكرون))(٣)** انه بقدر وضوح قضية الاسلام وما يجب على فيه من عمل هو واجب الوقت ٠ وهذا يختلف سعة وشمولا باختلاف أحوال الناس ، وبقدر وضوح قضية الايمان فى جانبيه العملى والذوقى وبقدر وضوح قضية الاحسان فى جانبيها القلبى والذوقى والعملى وبقدر وضوح قضية التقوى فى جوانبهـا القلبية والتصورية والسلوكية وبقدر وضوح قضية الشكر فى القيام بحقوق العبودية الكاملة لله شكرا ، انه بقدر هذا كله يكون السير فى دين الله صحيحا وهذه مواضيع كثيرة فصلت فيها فى أمكنة متعددة من سلسلة (فى البناء) والأخطاء فى شأنها كبيرة وكثيرة والأخطاء فيها كثيرة ولكثرة الأخطاء فيها فلا علينا لو عرضنا هذه القضية بتوسع أكثر مكررين بعض المعانى كعادتنا عندما نريد من القارىء أن يتنبه لقضية ما بشكل أدق ٠٠٠

* * *

---

(١) محمد : ١٧ (٢) سبأ : ١٣ (٣) آل عمران : ١٢٣

رأينا أن الاسلام دين الله وأن الله عز وجل لم يترك قضية الا وقد ذكر حكمها اما صراحة أو استنباطا فالاسلام على هذا هو مجموع أحكام الله فى كل قضية فى العقائد والعبادات وأنظمة الحياة ، ويدخل فى الاسلام الايمان بنصوص الكتاب والسنة وبطرق استنباط الأحكام من الكتاب والسنة وعلى هذا فالاسلام شيء واسع الى حد لا يتصور ويكفى لنتصور هذه السعة أن ينظر الانسان الى هذا الارث الضخم من الكتب الفقهية التى تبلغ عشرات الآلاف والى هذا الارث الضخم فى كتب أصول الفقه وفى كتب العقائد وفى كتب التصوف وفى غير ذلك من التآليف من تفاسير وشروح لكتب السنه الى غير ذلك ، فاذا كان هذا هو الاسلام فما مجموع ما يكلف به الانسان ؟ وماذا ينبغى أن يأخذ كل فرد على حدة من هذا الدين ؟ وما هى مقامات السير فى هذا الدين الى الله عز وجل ؟ ٠٠ ان على الانسان أن يقبل هذا الدين ويؤمن به فاذا قبله فعليه أن يبدأ العمل فيما هو مفروض عليه منه أو مندوب وأن يترك ما هو محرم عليه أو مكروه فيبدأ يتعلم ويتعرف ويأخذ حظه من الصلاة والزكاة والصوم واذا جاءت أشهر الحج وكان عليه حج ويذكر الله ويتقيد نفسه بالكسب فلا يأخذ الا حلالا فهذا حظه من الاسلام بمعنى الاستسلام العملى لله وبالمعنى الوارد فى قوله تعالى : ((**قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم**))(١) ومن الآية ندرك أن استمرار الانسان بالقيام بأعمال الاسلام يرشحه ليأخذ حظه من مقام الايمان القلبى ، لاحظ قوله تعالى : ((**ولما يدخل الايمان فى قلوبكم**)) يقول النحاة ان (لما) تؤذن كثيرا بتوقع ثبوت ما بعدها نحو ((**بل لما يذوقوا عذاب**))(٢) أى الى الآن لم يذوقوه وسوف يذوقونه ٠ طبق هذا المعنى على قوله ((**ولما يدخل الايمان فى قلوبكم**)) أى الى الآن لم يدخل وسوف يدخل اذا استمررتم على ما أنتم عليه ، ولاحظ أنه سيدخل الى القلوب، والمراد بالقلوب هنا القلوب التى فى الصدور قال تعالى : ((**فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**))(٣) ٠ وهذا الموضوع سنتوسع فيه فيما بعد ٠ ان الانتقال من الايمان العقلى الى الايمان القلبى الذوقى هو المقام الثانى من مقامات السير الى الله فى دين الله عز وجل ان كثيرين يبقى ايمانهم فى حدود الأعمال الظاهرة والاقوال الظاهرة لاحظ هذا الحديث الصحيح : (سيخرج قوم فى آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يقرؤون القرآن لا يجاوز ايمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة) ٠ (رواه الشيخان وأبو داوود والنسائى) فههنا ظاهرة عبر عنها الحديث (ايمانهم لا يجاوز حناجرهم) فهو لا ينتقل من الحناجر الى القلب أى لا يتجاوز الكلام الى الفؤاد ٠

---

(١) الحجرات : ١٤ (٢) سورة ص : ٨ (٣) الحج : ٤٦

انها ظـاهرة مرضـية تعنى انقطـاع الانسـان عن السـير فى دين الله ووقوفه عند المرحلة الأولى منه ٠٠٠ فاذا اسـتطاع الانسـان أن يتجـاوز هذه المرحلة فيصـل عندئذ الايمان الى قلبه فان هذا الايمان يزداد ويزداد حتى يصبح شـعورا بصـفات الله عز وجل وأفعاله وعندئذ يصـل الانسان الى مقام الاحسـان الذى عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » (رواه مسلم) ٠ ان مقام الاحسان هذا هو ذروة الايمان فاذا تمكن الايمان فى القلب أصبح احسانا ولذلك ورد فى الحديث « أفضل الايمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت » (رواه الطبرانى وأبو نعيم) ٠ وبالجمع بين الحديثين ندرك أن الاحسان هو أفضل الايمان ومن تعريف الاحسان فى الحديث ندرك أن الاحسان هو عبادة الله فى حالة شعورية محددة ٠ والعبادة بشكل عام فى دين الله توصل الى مقام فى دين الله أرقى وهو مقام التقوى قال تعالى **« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »**(١) والتقوى هى مرحلة النضج الكامل للتفاعل مع الاسلام والايمان والاحسان فهى علم وعمل وهى ملكة قلبية وسلوك وهى حالة ينسجم فيها العقل مع القلب مع الجوارح وهى فى النهاية هبة الله لمن أسلم وعمل وأحسن قال تعالى : **« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم »**(٢) فالتقوى هبة الله لمن اهتـدى والهداية بدايتها الايمان بالله قال تعالى **«ومن يؤمن بالله يهد قلبه»**(٣) والطريق اليها المجاهدة ، قال تعالى **« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »**(٤) ايمان بالله يرافقه مجاهدة النفس بالقيام بالعبادة وأعمال الاسلام توصل الى التقوى التى هى ايمان واتباع كتاب كما ورد فى أوائل سورة البقرة وهو موضوع فصلنا فيه كثيرا فى كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقا) فاذا تحقق الانسان بالتقوى أوصلته التقوى الى مقام الشكر وهو أعلى المقامات فى السير فى دين الله تعالى ٠٠٠ ودليلنا أن التقوى توصل الى الشكر قوله تعالى : **« فاتقوا الله لعلكم تشكرون »**(٥) فالشكر ذروة المقامات وقليل أهله وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفلا أكون عبدا شكورا » رواه البخارى ٠ وقال تعالى **« اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادى الشكور »**(٦) فأن يعمل الانسان شكرا لله على منه بأن يسـخر كل شىء أعطـاه الله اياه فى الطـريق الأحب الى الله على ضـوء شرع الله دون أن يهمل أمـرا لله تاركا المحـرمات والمكـروهات مقيمـا الفرائض والواجبات والمندوبات على حـالة قلبية هى حـالة الشكر لله عـز وجـل ، ان هـذا هو ذروة السـير فى دين الله ٠٠٠ اذا اتضـحت هـذه المعـانى كلهـا أصـبح بالامكان أن ندرك مجمـوعة

---

(١) البقرة : ٢٠
(٢) محمد : ١٧
(٣) التغابن : ١١
(٤) العنكبوت : ٦٩
(٥) آل عمران : ١٢٣
(٦) سبأ : ١٣

الأخطـاء التى يقع الناس فيها فى هـذا الباب ، فهنـاك ناس يقفـون عند أن عليهم أن يصلوا ويصوموا ٠٠ ويؤمنوا ويعبدوا ٠٠ دون أن يكون عندهم تصور عام لدين الله ودون أن يصلوا الى التقوى بمعناها الواسع الذى هو الالتزام المطلق بشرع الله فى الشئون الفردية والشئون العامة وفى تحقيق الاسلام فى النفس وعلى الأرض ، ومن ثم فمع أنهم يسلمون بالتقوى الا أنهم لا يعرفون مضمونها الحقيقى وقد يتوهمون انها المقام الأدنى من المقامات فهى دون الاحسان عندهم ، وينتج عن ذلك ان تصورهم لمقام الشكر خاطىء وبالتالى فان تحققهم ضعيف أو قاصر ، وهناك ناس يبنون تصورهم على فهم قاصر لحديث شريف يفصلونه عن سواه من النصوص ويظنون أنه قد اجتمع فيه كل شىء مع أنه تفصيل لبعض المعانى وتبيان لاهمية بعضها وله محله فى مجموع الدين فلا يفهم منفصلا عن النصوص بل يفهم فى محله من مجموع النصوص ، هذا الحديث هو الحديث المشهور الذى تحدث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان وهو موضوع توسعنا فيه فى مقدمة كتابنا عن الاسلام فليراجع هناك ، فالحديث بين أهمية أركان الاسلام بالنسبة لمجموع الاسلام وبين ماذا يدخل فى كلمة الايمان وأعطانا مفهوما دقيقا لموضوع الاحسان فى دين الله فهو مبين لدين الله من حيث انه فصل فى قضايا مهمة فى دين الله ولا يعنى أن هذا وحده هو دين الله ٠

* * *

وكما وقع الكثير من الناس فى أغلاط حول ما مر فقد وقعوا فى أغلاط حول قضية التكليف والمكلف وأنواع التكاليف :

١ ـ من بين المخلوقات المشاهدة كلف الله عز وجل الانسان . وكلف الجن من المخلوقات المغيبة عنا قال تعالى : ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**))(١) فما هو التكليف ؟ ومن هو المكلف ؟ وما هى التكاليف ؟ أما التكليف فله تعريفان : التعريف الأول أنه الزام ما فيه كلفه والتعريف الثانى أنه طلب ما فيه كلفة والفارق بين التعريفين أن التعريف الأول فيه اشارة الى التكليف بفعل الواجب وترك المحرم وأن التعريف الثانى يدخل فيه فعل المندوبات وترك المحرمات ومن التعريف ومن اسم التكليف نفهم أن ما كلف الله عز وجل به عباده فيه شىء ما من المشقة فالذين يتصورون أن الدين هو لصالح الراحة فقط بمعناها العامى مخطئون ، وأما المكلف فهو الانسان البالغ العاقل السليم الحواس الذى بلغته دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو كذلك الجنى العاقل الذى بلغته دعوة الرسـل وكان سـليم الحواس وقال علماؤنا : ان الجن مكلفون من لحظة خلقهم فلا يتوقف تكليفهم على البلوغ ٠

---

(١) الذاريات : ٥٦

وأما التكاليف فمنها العقلى ومنها الفكرى ومنها العلمى ومنها العملى • والمكلف هو الله عز وجل بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام فالانسان لم يخلقه الله عبثا بل خلقه ليكلفه ولم يخلق الله عز وجل هذا الكون بلا حكمة بل خلقه لحكمة لا تتحقق دون وجود تكليف •

٢ ـ وأول الواجبات هو معرفة الله عز وجل ثم معرفة الرسل ثم معرفة شريعة الله عز وجل ثم معرفة ما يلزم كل مكلف من هذه الشريعة على حدة تفصيلا ثم معرفة ما يلزم لتحقيق هذه الواجبات اذ ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، والالتزام بكل ما يقتضيه ذلك من عمل ان فى التعليم أو فى التطبيق كذلك من باب الواجبات وفى هذا المقام تجـد أخطاء كثيرة ، فمثلا التصور العام الصحيح عن شريعة الله فريضة يهملها الكثير ومجموع ما يطالب به كل انسان من علم وعمل قضية لا يعرف الكثير حيثياتها فيعرضونها عرضا قاصرا مبتورا ومعرفة لوازم القيام بكثير من الواجبات المفروضة تغيب عن كثير من الناس فيهملون نتيجة لذلك فرائض ومن ثم كان من فرائض هذا العصر البيان المستوعب لهذه الشئون •

٣ ـ ويدخل فى باب معرفة الله معرفة صفاته وأسمائه وأفعاله وما يجب له وما يستحيل فى حقه وما يجوز وهو باب واسع وقع فيه أكثر الخلق بأخطاء كثيرة وعصم الله أهل السنة والجماعة فيه قال تعالى **((سبحان الله عما يصفون • الا عباد الله المخلصين))**(١) فعباد الله المخلصون هم الذين وصفوا الله عز وجل بكل كمال ، ويدخل فى باب معرفة الرسـول معرفة ما يجب فى حقه وما يستحيل وما يجوز ومعرفة مجموعة من المسائل فى هذا المقام • ويدخل فى باب معرفة شريعة الرسول أن يكون عند الانسان تصور عام عن هذه الشريعة وأصولها وفروعها وبديهياتها ومعالمها ، ويدخل فى باب ما يلزم كل مكلف من معارف تخصه أن يعرف الانسان ما يجب عليه من مقام الاسلام ومقام الايمان ومقام الاحسان ومقام التقوى ومقام الشكر ويختلف ذلك من انسان لانسان سعة وشمولا ويدخل فى باب التعرف على الطريق لتحقيق الواجبات معرفة الطريق لأداء كل فريضة ولاقامتها سواء كانت فريضة عينية أو كانت فريضة كفائية ومن جملة ذلك فى عصرنا أن يعرف الانسان الطريق الى جعل كلمة الله هى العليا فى قطره وفى مجموع أقطار الأمة الاسلامية ومجموع العالم وهذا كله هو الأساس العملى للعمل فهناك فرائض فى باب العلم وفرائض فى باب العمل •

٤ ـ وهناك تكليفات كلف الله عز وجل بها كل انسان على حدة ولكن هناك تكليفات كلف بها مجموع الأمة وقد أطلق علماؤنا على هذا كله تعبير

---

(١) الصافات : ١٥٩ ، ١٦٠

فروض العين وفروض الكفاية والناس كثيرا ما يغلطون فى هذا الموضوع فكثيرا ما ينظرون الى موضوع فروض الكفايات نظرة قاصرة هذه النظرة القاصرة تتعطل بها فروض الكفايات ، فمثلا من المعلوم أن فرض الكفاية يبقى فرض عين حتى يقوم وأحيانا يتعين انسان ما أو مجموعة ما بعينها لاقامة فرض كفاية وعندئذ يصبح فرض الكفاية فى حق هؤلاء فرض عين وكثيرا ما يحدث ان قضية النظرة الشاملة لفروض الكفاية تنعدم عند بعض الناس فينعدم نتيجة لذلك التوجيه نحوها فتبقى الأمة الاسلامية فى حال قصور أو تخلف أو تأخر ، وكثيرا ما يحدث أن تغيب عن بعض الناس معرفة الطريق لتحقيق الوصول الى فروض الكفاية كما يغيب عنهم معرفة الطريق لمعرفة الوصول الى التحقق بفرض العين وفى ذلك ما فيه ٠

٥ ـ وقد رأينا فى هذا الباب أن المكلف هو العاقل البالغ السليم الحواس الذى بلغته الدعوة فالبالغ اذن هو المكلف ولكن مرحلة ما قبل البلوغ لها أحكامها فى شريعة الله عز وجل واذا كان الانسان نفسه غير مكلف بها فغيره مكلف فى حقه بأن يؤهله لمرحلة ما بعد البلوغ ، فما هى مجموع القضايا التى ينبغى أن يعطاها كل انسان قبل البلوغ وكم من المسلمين يفطن لها ؟ ويعطيها حقها ؟ ان هذه كذلك من جملة المسائل التى يقع فيها الكثير فى أخطاء أو فى تصورات قاصرة أو ضعيفة وسبب ذلك كله ضياع التعليم الصحيح وفقدان الانسان المستوعب لرسالة الله عز وجل الا القليل ممن أكرمه الله عز وجل ٠

* * *

وكما وقع الكثير من الناس فى أخطاء حول ما مر فقد وقعوا فى أخطاء حول نظرتهم الى أشياء فى ذواتهم أو من ذواتهم أو بشكل عام فى النظرة الى ذواتهم ٠ فمثلا يعرف الانسان عن نفسه أن له عقلا ويتكلم الانسان عن شىء اسمه القلب وشىء اسمه الروح وشىء اسمه النفس وشىء اسمه الحياة وهذه الأمور كلها من ألصق الأشياء فى الانسان ولكنك تجد فى هذا المقام أغلاطا لا تكاد تحصر منها أغلاط عند غير المسلمين وأغلاط عند المسلمين ولا يستغرب القصور عند الكافر ان فاته الادراك الصحيح لهذه الأمور ، ولكن المسلم الذى عنده الجواب الصحيح لهذه الأمور هو الذى يستغرب فى حقه ألا تكون واضحة لديه ٠ ومن ثم نجد خلطا عند الكثيرين حول التصور عن العقل الشرعى والعقل الذى هو أداة التفكير وخلط فى الكلام عن جهاز التفكير الذى هو الدماغ وعن القلب الذى هو شىء آخر موجود فى الصدر ، ونجد خلطا بين الكلام عن القلب الحسى وعن القلب الآخر كما نجد عدم وضوح فى التصورات عن النفس والروح ٠ متى تكون النفس عين الروح ومتى تكون النفس والروح عين القلب وعين العقل ومتى تكون المسألة غير ذلك ثم الحياة

وصلتها بهذه الأشياء • حياة الحيوان المنوى ثم حياة الجنين قبل نفخ الروح فيه ثم حياة الجنين بعد نفخ الروح فيه ، هناك أخطاء كثيرة حـول هـذه الأمور بعضها صغير وبعضها لا يترتب عليه شىء وعلى كل فانه من المناسب أن نقول كلمة فى هذا الموضوع ولهذه الكلمة أهميتها بالنسبة لمجموع هذه الرسالة كما أن هذه الرسالة ستوضح بعض هذه الأمور شيئا فشيئا •••

* * *

يختلط على الكثير فهم قضية العقل والقلب والروح والنفس فى المصطلح الاسـلامى فيقعون نتيجة لذلك بأغلاط متلاحقة وكثيرا ما يدخل الكتاب الاسلاميون فى أبحاث ومناقشات نتيجة للغموض فى هذا الشان والسر فى ذلك والله أعلم أن الشارع أعطى هذه الأمور مصطلحات خاصة ويستعملها الناس على معان أخرى ومن ثم يقع اللبس فى هذا الشأن وهو لبس يؤدى أحيانا الى كفر أو الى انكار معلوم من الدين بالضرورة ولنضرب مثالا على ذلك : تطلق كلمة القلب على القلب الحسى الذى محله الصدر والشارع يطلق كلمة القلب على قلب آخر محله الصدر مرتبط بالقلب الحسى هو محل الايمان والكفر ، وألف الشـعراء والكتاب أن يتحدثوا عن القلب كمحل للعواطف من حب وبغض ولا شك أن الصلة قائمة بين القلب فى كلام الشعراء والأدباء وبين القلب الذى هو محل الكفر والنفاق والايمان كما سنرى ولا شك أن القلب الحسى شىء وهذا القلب شىء آخر ألا ترى مثلا فى عصرنا حيث أبدلوا قلبا حسيا بقلب حسى لم تتغير نتيجة لذلك العواطف ••• اذا أدركت هذا المعنى عرفت الفارق بين القلب فى اصطلاح الشارع والقلب فى اصطلاح النـاس والخلط فى ذلك سبب أخطاء كثيرة ••• وكما حدث هذا فى موضوع القلب حدث هذا فى موضوع الروح والنفس والعقل وأدى ذلك الى الوقوع فى أغلاط مرتبطة فى العقائد • ومن ثم كان علماؤنا يعتبرون الكلام عن هذا الموضوع جزءا من أبحاث العقائد وهى كذلك جزء رئيسى من أجزاء علم التصوف بل هى محوره الرئيسى لأن هناك جانبا غيبيا فى هذه الأمور والأمور الغيبية يكون التفصيل فيها من اختصاص الشارع فالشارع وحده هو الذى يحدثنا عنها وموقفنا منها هو الايمان والتسليم وهذا مظهر آخر من مظاهر كونها من أبحاث العقيدة ••• غير أن هذه الأمور وان كانت غيبية الا أن لها علاماتها ويستطيع صاحبها أن يحسها كما يستطيع الآخرون أن يستشعروا آثارها ومن ثم فهى قضايا غيبية من ناحية ، محسة من ناحية أخرى،للتجربة البشرية والاحساسات البشرية دخل كبير فى التعرف عليها ومن ثم كان هذا الموضوع متداخلا تتداخل فيه قضايا العقائد بقضايا التصوف بقضايا المـادة بقضايا العلم والتجربة ومن ثم كانت كل طائفة من الخلق عندها فى هذه الأمور تصورات تختلف عن تصورات طوائف أخرى ولكل طائفة فى هذا الشـأن دعاوى فى هذه الأمور •

والمسلم الحق العليم هو وحده الذى يضع الأمور فى مواضعها فى هذه الشئون لأنه على نور من ربه ، وربه دله على الطرق العملية التى توصله الى معرفة كل أمر بطريقه . فما يوصل اليه التجريب فالطريق اليه التجريب وما يوصل اليه العقل فالطريق اليه العقل وما يوصل اليه بيان الشارع فالطريق اليه هذا البيان وهكذا فاذا اتضح هذا فلنبدأ الحديث عن هذه المعانى ولا يفوتنا قبل ذلك أن نسجل ههنا أمرا هو : ان أمور العقائد الاسلامية لا تنفصل عن قضايا التحقق والتذوق والسلوك وأن الكلام عنها بشكل مجرد لا بد أن يكمله كلام عنها فى مكان آخر ومن ثم نجد الكلام عن القلب أو الروح أو النفس موزعا بين كتب العقائد والتصوف . وكون التصوف أصابه ما أصابه وكون علم العقائد تعقد كثيرا حتى صعب على الانسان العادى فهم مسائله فقد غابت معان كثيرة عن المسلم ونحن هنا بسبيل جلاء التصور العام عن النفس والروح والقلب والعقل ونبدأ بما قاله حجة الاسلام الغزالى فى احيائه . قال تحت عنوان : « بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى » : اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الابواب . ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نسرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلق بغرضنا : اللفظ الاول : لفظ القلب : وهو يطلق لمعنيين : أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم ... هو منبع الروح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته اذ يتعلق به غرض الأطباء ولا تتعلق به الأغراض الدينية وهذا القلب موجود للبهائم ...

ونحن اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك فانه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة اذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين . والمعنى الثانى : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاتب والمعاقب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسمانى وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى ادراك وجه علاقته فان تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما : أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب الا علوم المعاملة ، والثانى : أن تحقيقه يستدعى افشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنا اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها وعلم المعاملة يفتقر الى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر الى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثانى : الروح : وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت فانه لا ينتهى الى جزء من البيت الا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان والروح مثالها السراج وسريان الروح وحركته فى الباطن متال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء اذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وليس شرحه من غرضنا اذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق الى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا و (المعنى الثانى) هو اللطيفة العالمة المدركة من الانسان وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب وهو الذى أراده الله تعالى بقوله : ((**قل الروح من أمر ربى**))(١) وهو أمر عجيب ربانى تعجز العقول والأفهام عن درك حقيقته ٠

اللفظ الثالث : وهو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان : أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الانسان فيقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك» (رواه البيهقى فى الزهد باسناد ضعيف وله شاهد) ٠ المعنى الثانى:هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الانسانبالحقيقة وهى نفس الانسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فاذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ٠ قال الله تعالى فى مثلها : ((**يا أيتها النفس المطمئنة ٠ ارجعى الى ربك راضية مرضية**))(٢) والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها الى الله تعالى فانها مبعدة عن الله وهى من حزب الشيطان واذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لانها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه ٠ قال تعالى : ((**ولا أقسم بالنفس اللوامة**))(٣) وان تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء هى النفس بالمعنى الأول فاذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الانسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات ٠

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ (٣) القيامة : ٢

اللفظ الرابع : العقل : وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما : أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صورة العلم الذى محله القلب ، والثانى أنه قد يطلق ويراد به العلم المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الادراك أعنى المدرك فاذن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة وهى : القلب الجسمانى ، والروح الجسمانى ، والنفس الجسمانية الشهوانية ، والعلوم ، فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس ، وهى : اللطيفة العالمة المدركة من الانسان ٠ والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعانى خمسة والألفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف الألفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء ذلك قدمنا شرح هذه الأسامى ٠

وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذى يفقه من الانسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فانها وان كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها » ٠ (انتهى) ٠ من كلام الغزالى ندرك أن النفس والعقل والقلب والروح تأتى أحيانا بمعنى واحد وانما تختلف التسميات باختلاف الصفة التى للروح البشرية فاذا غلبت الشهوة هذه الروح سميت نفسا واذا غلبت الروح الشهوة المحرمة سميت عقلا واذا أصبحت لها مواجيدها الايمانية سميت قلبا واذا عرفت الله حق المعرفة وأعطته العبودية الخالصة سميت روحا ، كما أن هذه الأشياء تأتى أحيانا ويراد بها شىء آخر غير ما ذكرناه فقد يراد بالنفس الدم وقد يراد بها الحياة ويطلق الناس اسم العقل أحيانا على مادة التفكير وهى الدماغ ويطلقونه أحيانا على الذكاء ويطلقونه أحيانا على المعنى المنظم للجسم وكل ذلك مرتبط بالدماغ وقد يذكرون الروح ويريدون بها مجرد الحياة ثم ما هى هذه الحياة ؟ فانهم يختلفون فى الجواب ، ونتيجة لهذا كله فان مجموعة من الأخطاء فى هذه المقامات تقع ومجموعة من التشويشات كذلك تقع اذ يأتى مثلا كافر الى نص محمول على معنى فى هذه الشئون فيحمله على معنى آخر فيها ليشوش على الجهلة ، ونجد بعض المسلمين تستقر بهم أحد الملاحظ فى هذه الشئون فيحملون عليها كل هذه المعانى فى كل الأحوال فمثلا تبدأ رحلة الحياة بالنسبة للانسان منذ تخلقه حيوانا منويا ولكل حيوان منوى حياته الخاصة به فاذا ما اتحد

الحيوان المنوى بالبويضة وجدت قطعة حية مرتبطة بحياة جسد الأم حتى اذا بلغ كذا شهرا دخلته الروح فبدأ حركته الخاصة به فالحياة الخلوية موجودة قبل وجود الروح وهى لا تناقضها ولا تعارضها · ويأتى كافر يخلط بين قضية الروح والحياة عن عمد فيحاول أن يشوش كما فعل بعضهم اذ جاءوا الى قوله تعالى : ((**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم**))(١) فقالوا ان هذا النص محمول على أن الحيوان المنوى ميت بينما هو حى والمراد بالنص الحالة التى كانت لأجزاء الحيوان المنوى قبل تخلقه فان أجزاءه ليست الا ذرات ميتة صارت غذاء ثم منها وجد الحيوان المنوى فبدأت رحلة حياة الانسان ثم ··· فالحياة الخلوية اذن شىء ومجىء الروح بعد ذلك شىء آخر ولا يتناقضان بل هما شيئان متكاملان ·

لاحظ الآن حالة الجنون والحالة التى يسميها الصوفيه الجذب ، فالجنون حالة مرتبطة بالدماغ أحيانا بينما الجذب حالة مرتبطة بالقلب فللدماغ صلة بما يسميه الناس عقلا وللقلب صلة بما يسميه الناس عقلا والعقل الشرعى مرتبط بالدماغ من ناحية وبالقلب من ناحية أخرى ومن ثم قال العلماء : ان العقل هو القلب وتشهد لذلك نصوص كثيرة والمراد به ههنا العقل الشرعى الذى يضبط الانسان به تصرفاته على مقتضى شرع الله ، لاحظ أن نوعا من الأدوية يسكن الأعصاب فنجد الانسان اذا أخذها هادئا لا يستثار ولاحظ أن نوعا من الأدوية يجعل الانسان فى حاله هيجان كامل وهكذا نجد أن ما يلقى فى الدم يؤثر على حالة الانسان بشكل عام ومن ثم فالدم يمكن أن يكون فى بعض الحالات هو النفس وقد تطلق كلمة النفس على الذات كلها وقد تطلق على التصرفات الشهوانية والعصبية للانسان والناس يغلطون فى هذه المقامات فيسمون شيئا باسم شىء وتكون الجهة مختلفة ونحن ههنا لسنا بسبيل التفصيل ولكنا نريد أن نوضح نقطه من النقاط التى يقع فيها الغلط ونظن أن الأمر اتضح نوع وضوح كاف لمعرفة هذا الجانب ولنختصر الكلام فى هذا الموضوع بما يلى :

ان هناك حياة للجسم قبل حلول الروح فيه وان هناك نفسا للانسان هى أثر مجموعة العوامل الفيزيولوجية والبيئية فى الجسد بعد وجود الروح فيه وان هناك دماغا للانسان ينظم قضية الجسد كلها وللروح تعلق به وان هناك قلبا حسيا للانسان وللروح تعلق به فالجنين فى بطن أمه قبل حلول الروح فيه يستمد حياته من حياة أمه ولكنه بعد حلول الروح فيه تصبح له حياته الكاملة المستقلة نوع استقلال · ومن ثم فعندما تسحب هذه الروح من الانسان فيما بعد يموت وبهذا نفهم الفارق بين حياة الجنين بدون روح وهو فى بطن أمه

---

(١) البقرة : ٢٨

قبل نفخ الروح فيه وموته فيما بعد اذا سحبت الروح منه ، واذا حلت الروح فى الجســد تاثرت بالعوامل الفيزيولوجية والبــدنية المختلفة فاثرت عوامل الشهوة والغضب فيها فاما أن تتغلب على ذلك بسلوك الطريق الموصلة الى ذلك أو تغلبها عوامل الشهوة والغضب ، وههنا معترك الصراع بين هدى الأنبياء لابقاء الروح على طبيعتها السليمة وبين غواية شياطين الانس والجن فى أن يجعلوا الروح تتابع الهوى ، ان الفقهاء يسمون الدم نفسا فيقولون مثلا : اذا مات حيوان ليس له نفس سائلة ووقع فى المـاء ٠٠٠ ومرادهم بهذا الدم ٠ وعنون صاحب المنتقى لأحد الأبواب بقوله : « باب ما لا نفس له سائلة لم ينجس بالموت » لاحظ الآن هذا الكلام الطبى يقول الدكتور الطبيب (خالص كنجو) : « وما هو السر فى هذا الميل الجنسى ، انه يعود الى عملية الاباضة الداخلية حيث ينفجر جريب صغير حامل للبويضة ليقترن بها من المبيض الى البوق حيث يحدث اللقــاح فى الثلث الوحشى النهائى منه وهــذه الأخيرة ظاهرة تحتاج للوقوف عليها وتندلق الهرمونات من هذه القربة الصغيرة الى داخل الجسم بكثرة مما يرفع التوتر الجنسى عند المرأة وهذا بدوره يعود الى الحلقة الخفية حلقة التبادل المتعاكس ما بين النفس والجسم » ٠

اذن للدم ومحتوياته صلة كبيرة بالروح وتأثير عليها ٠ فى حديث ضعيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الغضب جمرة فى قلب ابن آدم » فللاشياء الموجودة فى الدم صلة بقضية الشهوة وقضية الغضب واذن فللتركيب الجسمى تأثيره على الروح وهذا التأثير يقوى أو يضعف والانسان يستسلم لهذا التأثير أو يقاومه أو يسعى للتحكم فيه ٠ والمهم أن هناك صلة بين الجسد وتركيبه ومواده وعالم الروح ولكل منهما تأثيره على الآخرة والرسل عليهم الصلاه والسلام هم الذين دلونا على حدود التعامل ما بين الجسد والروح أو ما بين النفس الشهوانية والروح ٠

* * *

وكما وقعت أخطاء فى التصورات كما مر فقد وقعت أخطاء حول قضية التقليد والاجتهاد وقضية مالا يسع الانسان جهله وما يسعه جهله وما يسعه أن يقلد فيه وما لا يسعه أن يقلد فيه وما يجب عليه أن يرفضه بداهة لأنه يناقض المعلومات من الدين بالضرورة وما يمكن أن يكون للبحث والتحقيق فيه سبيل ولادراك طرف من هذا الشأن نقول :

١ ـ يفرق علماؤنا بين التقليد فى أصول الشريعة وبين التقليد فى فروع الشريعة وبين التقليد فى الواضحات البديهيات وبين التقليد فى المشتبهات وهذه قضايا ندر من يضعها فى مواضعها ويعرف حدود مسائلها وقد كثر

الجهل بها حتى بين الذين يتصدرون للعلم والتعليم ويعرفها الناس باسم العلماء ومن ثم عمت البلوى وطمت ولم تعد الأمور واضحة عند الكثير من الناس فالأصل أن التقليد فى أمور أصول الدين أى فى العقائد لا يجوز والأصل أن التقليد فى كل ما علم من الدين بالضرورة لا يجوز على خلاف بين العلماء فى حدود عدم الجواز هل يصل الى الكفر أو الى الفسوق والأصل عندهم أن التقليد لغير العالم فى فروع الشريعة التى لا يستطيع الانسان العادى أن يعرف حكم الله فيها بنفسه أن يقلد فيها من هو مظنة معرفتها وهم الأئمة المجتهدون وحدود هذه المعانى واسعة ، فما هى هذه العقائد التى لا يجوز التقليد فيها وما هى بديهيات الشريعة التى لا يسع مسلما الا أن يعرفها ؟ وما هى الفروع التى يسع المسلم أن يجهلها فيقلد فيها ؟ كثيرا ما يكون قصور فى التعبير عن هذه الأشياء ، ان معرفة الله والطريق الى التعرف على رسل الله عليهم الصلاة والسلام ومعرفة الأدلة التى تدل على الله وصفاته ومعرفة الأدلة التى تثبت أن محمدا رسول الله ۰ كل ذلك من الأصول ومعرفة أصول الشريعة الاسلامية وأنها الكتاب والسنة والاجماع وما اعتمده الكتاب والسنة والاجماع من معايير وموازين متفق عليها كل ذلك من الأصول وما كان واضحا فى الكتاب والسنة والاجماع من أمور اذا كان هناك تواتر لفظى أو معنوى فكله من باب الأصول ، ان القرآن كله متواتر اللفظ وكثير من نصوص السنة متواتر اللفظ أو المعنى وكل ما كان من هذا القبيل اذا كان واضح المعنى قطعى الدلالة فان مدلوله يكون من باب المعلوم من الدين بالضرورة لا يسع مسلما جهله والتقليد فيه مما لا ينبغى ۰

٢ ـ غير أن هناك فارقا بين التقليد فى بعض أنواع العقائد والتقليد فى بعضها الآخر والتقليد فى بعض الأصول والتقليد فى الفروع فهناك قضايا تقليد الشارع وحده فيها هو الواجب وقضايا : القناعة العقلية مع الشرعية هى الواجب وفى الفروع تقليد الأئمة هو الواجب لغير المجتهد مع معرفة الدليل اذا كان المرء عالما وتقليد الأئمة فيها هو الواجب للعامى ولا يلزم بمعرفة الدليل وهذه كذلك من غوامض المسائل فى هذا المقام ۰

٣ ـ ويدخل فى الأصول والبدهيات الشرعية أمور كثيرة : منها معرفة الله ومعرفة السير القلبى اليه ومنها معرفة الرسول ومنها معرفة ضرورة اتباع الكتاب والسنة ومنها معرفة الواجبات والمحرمات ومعرفة أنواع من السنن الثابتة بالمتواترات ويدخل فى ذلك أشياء كثيرة من جملتها معرفة وجوب تزكية النفس وقضايا الايمان القلبى والعقلى ومنها التصور العام للاسلام ومنها وجوب الجهاد لاعلاء كلمة الله ومنها وجوب الحكم بما أنزل الله ومنها وجوب معرفة أن الأمة الاسلامية أمة واحدة وأن وحدتها السياسية واجبة وقضايا كثيرة لا تدخل تحت حصر ۰ وفى هذا الكتاب بيان لبعض القضايا ووضعها فى محلها ۰۰

٤ ـ وهذه الأمور التى يجوز فيها تقليد الشارع وحده والأمور التى يجب أن يصل فيها الانسان الى قناعة عقلية لا يشترك فيها أن يحسن الانسان تعدادها ولا ذكر التفصيلات فى شأنها وانما يكفى فيها أنه لو سئل الانسان عنها ألا ينكرها وأن يذكر بعض الأدلة الاجمالية فيها . اذا أدركت حدود التقليد فانك تجد محل الغلط الكثير فى هذا الشأن حيث تجد انسانا يقلد حيث لا يجوز التقليد وانسانا يتحرج عن التقليد حيث يجوز التقليد وانسانا تدفعه الثقة فيقلد فى الأخطاء المنسوبة الى انسان وقد تكون مكذوبة عليه وكل ذلك لا بد للمسلم أن يحرر ذاته منه ...

وهكذا ومن خلال ما مر عرفنا أن هناك أغلاطا فى التصور العام عن الاسلام وأغلاطا فى التصور حول قضية الايمان وأغلاطا فى التصور العام عن مقامات السير فى دين الله وأغلاطا فى قضية التكليف وأغلاطا فى التصورات عن النفس والعقل والقلب والروح وكل ذلك تنعكس سلبياته على المسلم وعلى الحياة الاسلامية نوع انعكاس واذا بحثنا عن سبب مجموعة الأغلاط التى ذكرناها فاننا نجد أن سببها يعود الى فقدان العلم الصحيح المستوعب الشامل وخاصة عند العلماء الذين عنهم يأخذ الآخذون المفاهيم والتصورات والذين هم القدوة العملية واليهم المرجع ...

النظرة الكلية الشاملة للاسلام أحيانا نجدها مفقودة ، الفهم الصحيح المستوعب للكتاب والسنه نجده قاصرا ... التصور العام عن طرق استنباط الأحكام الشرعيه نجده ضعيفا ... العلوم التى انبثقت عن الكتاب والسنة من فقه وتوحيد وتصوف نجد التصورات فى شأنها اما قاصرة أو ضعيفة أو غير شاملة أو فيها أخطاء ، ما يلزم من جوانب أخرى كلها ضرورى لاستكمال الثقافة الاسلامية المتكاملة نجده مهزوزا أو معدوما ... القدوة الصالحة فى هذا كله والبيئات الصالحة لعطاء هذا كله تكاد تكون محصورة ...

ومن أجل بعض هذا كتبنا كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقا) وكتبنا رسالة (جولات فى الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما) وكتبنا هذه الرسالة لأن التصوف ودوائره كان من أهم الأسباب التى عن طريقها تسلل الغلط الى كثير من الدوائر ... وقبل أن نبدأ الكلام فيه نحب أن نعتذر لعلمائنا وشيوخنا الأجلاء اذ أننا ونحن نتهم بالقصور ونوزع التهم يمينا وشمالا لم نتعمد أن نمس منهم أحدا (حاشا لله) ولكن نريد أن ترتفع هممنا وهمم اخواننا طلاب العلم لنحصل جميعا ما ينبغى لنا من كمال . وانما فصلت فى هذا المدخل فى هذه الأمور التى ذكرتها حتى لا يغيب عن بال أحد محل بحثنا فى هذه الرسالة بالنسبة لمجموع ما يحتاجه الانسان وأن هذه الرسالة ليست الا تصحيحا لبعض الأدواء فى جانب واحد وكل ذلك للتنبيه على أن هذه الرسالة جزء من كل . هذا الكل هو سلسلة (فى البناء) ولنبدأ الكلام فى علم التصوف .

الباب الثانى

فى مجالات علم التصوف الأصلية

تجد فى كتب هذا العلم عشرات الآلاف من المسائل تجدها فى معرض تقرير مسائله أو فى ذكر قضايا تاريخية أو فى معرض الكلام عن أئمته وأعلامه المشتغلين فيه ، ولكن مجالات هذا العلم الأصيلة ترجع الى مجموعة أمور وكلها يكمل بعضها ، وبعضها متداخل ببعضها الآخر فهو فى مباحثه الرئيسية يبحث فى الروح وفى القلب وفى العقل وفى النفس كما يبحث فى الجانب التحقيقى من علم العقائد ٠ كما يبحث فى الجانب الباطنى القلبى من قضايا الفقه ثم هو الجانب العملى التحققى بالكتاب والسنة وهو محاولة للتحقق الكامل بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسيرهم فى مقامات الاسلام والايمان والاحسان والتقوى والشكر وغير ذلك ومباحثه هذه ذات جانبين : نظرى مكمل وعملى متبع ، ونستطيع أن نقول : ان هذه هى مجالات هذا العلم الرئيسية ، ولكن ككل علم لا بد أن تنشأ بسبب مجالاته الرئيسية مجالات أخرى متفرعة عن هذه المجالات وهذا كله يقتضى اصطلاحات لغوية ومصطلحات عملية وتعبيرات خاصة كما يقتضى وجود مدارس وأئمة ، ويقتضى وجوب تجارب ووقائع كما اقتضى وجود خطأ وصواب وهذا يحتاج الى تحقيق وتحرير وتنقيح ، وهذا كله اقتضى ضوابط وقواعد تضبط الشطط وتبعد عن الانحراف وتبقى الأمور فى اطارها الصحيح وكل هذا ارتبط بهذا العلم وأصبح أجزاء فيه وهذا الباب تعريف فى مجالات هذا العلم الرئيسية كما حددناها ، فلنعرض لها باختصار لندرك طبيعة هذا العلم من خلال معرفتنا لهذه المجالات الرئيسية فيه ٠

أولا — الروح فى علم التصوف :

ليس فى هذا العلم فى أصوله بحث فى قضايا الروح أو ماهيتها فهذا شىء محكوم بالنصوص ، والنصوص لم تتحدث عن هذه الماهية « **ويسألونك عن الروح ، قال الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا** »[1] ٠٠٠ فالبحث

---

(١) الاسراء : ٨٥

عن ماهية الروح تكلف ، وأهل هذا العلم بعيدون عن التكلف ، وانما كلامهم فى الروح يدور حول قضيتين هما :

ارجاع الروح الى أصل معرفتها وارجاعها الى كمال عبوديتها ، فالله عز وجل قال : **((واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى))**(١) ٠٠٠ قال : أبى بن كعب جمعهم فجعلهم أرواحا ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم **((ألست بربكم قالوا بلى))** ٠٠ فالروح فى أصل الخلقة عارفة بالله مقرة له بالعبودية معترفة أنه ربها ولكن هذه الروح بمخالطتها الجسد تبدأ تطرأ عليها الطوارىء فتفقد من معرفتها وعبوديتها نتيجة لذلك ونتيجة لسماعها وتلقيها وأخذا من بيئتها كما قال عليه السلام : ((يولد الانسان على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) (رواه البخارى وغيره) ٠ فالروح تبدأ تتأثر بمجموعة العوامل التى تحيط بها من جسد وبيئة ويترتب على ذلك ما يترتب من بعد كثير أو قليل عن معرفتها الخالصة بالله وعبوديتها له وهذا يقتضى ارجاعا لها الى أصلها والى كمالها ٠٠٠ وكثيرا ما يقع الناس فى غلو يبعدهم عن الفطرة أو فى تقصير يبعدهم عن العبودية ، قال تعالى : **((يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق))**(٢) ٠ وقال تعالى عن أهل الكتاب : **((وكثير منهم فاسقون))**(٣) ٠

ان ارجاع الروح الى وضعها الأصيل الكامل ليس عملية سهلة وكذلك لا يتقنها كل انسان وعلى كل حال تبقى قضية مطلوبة من الانسان ، وهذا العلم يبحث فيما يبحث فى هذا الشأن ٠ فالروح ينبغى أن تعود الى معرفتها الكاملة بالله وهذا يقتضى فيما يقتضى أن نتحقق بأسماء الله مع العبودية الكاملة لله ٠ وهذا طريقه علم صحيح ومجالسة مع أهل ذلك وذكر لله عز وجل ، قال تعالى : **((وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرا ٠ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا))**(٤) ٠ لاحظ قوله تعالى : **((فاسأل به خبير))** ان هذا النص يحتمل أكثر من معنى أحدها أن تسأل العارفين فى الله عن الله ٠ وفى وصية لقمان لابنه يقول تعالى : **((واتبع سبيل من أناب الى))**(٤) فالرجاعون الى الله طريقهم مسلوكة ، فالعلم بالله وصفاته والعلم بالعبودية الخالصة لله وطريقها والأخذ عن أهل ذلك والاقتداء بهم مع الذكر الكثير معه وتذكر الآخرة طريق الروح الى العودة ٠ ونلح على قضية الذكر لانه بالذكر يتم التحقق

---

(١) الأعراف : ١٧٢ (٢) النساء : ١٧١

(٣) الحديد : ٢٦ (٤) الفرقان : ٥٨ ، ٥٩

(٥) لقمان : ١٥

الكامل بأسماء الله وبمعرفته ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « وأنا معه اذا ذكرنى » (متفق عليه) • فالله عز وجل مع العبد اذا ذكره العبد ومعية الله للعبد آثارها كثيرة من جملتها رعاية الله للعبد فلا يخطىء ولا يزل ومن جملتها أن يحققه الله عز وجل بأسمائه فمعية الله لروح الانسان تجعل هذه الروح تأخذ عن أسماء الله وصفاته بقدر ما تتذكر هذه الروح وتتقرب الى الله بذكر أسمائه • فهذا أول مجال من مجالات علم التصوف •

ثانيا ــ القلب فى علم التصوف :

عن القلب فى كتاب الله وسنة رسوله كلام كثير فالله عز وجل أخبرنا عن القلب كثيرا « **فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** »(١) فالقلب يعمى ، وقال تعالى : « **ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم** »(٢) فالقلوب تقسو ، وقال تعالى : « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** »(٣) فالقلوب تمرض • وقال تعالى : « **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** »(٤) وقال تعالى : « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** »(٥) فالقلب يصيبه الختم ويكون عليه الران ، وقال تعالى : « **ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا** »(٦) فالقلب الكافر يصغى لوسوسة شياطين الانس والجن وقال تعالى : « **يوم لا ينفع مال ولا بنون • الا من أتى الله بقلب سليم** »(٧) • فللقلب وضعه الصحى الذى يكون به سليما وقال تعالى : « **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** »(٨) • فالقلب يمتحن كما يمتحن الجسد وبالتالى فانه يسقط أو ينجح ، وقال تعالى : « **لهم قلوب لا يفقهون بها** »(٩) فهناك قلوب لا تعقل ، وقال تعالى « **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** » (١٠) فالانسان يريد ولكن القلب لا يطاوع ، وقال تعالى : « **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** »(١١) فلا هداية لقلب الا بالايمان بالله ، وقال تعالى : « **ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** »(١٢) فهذه حالة للقلب يطبع الله بها على قلب صاحبها ، وكذلك تجد كلاما كثيرا عن القلب فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم •

---

(١) الحج : ٤٦
(٢) الحج : ٥٣
(٣) البقرة : ١٠
(٤) المطففين : ١٤
(٥) البقرة : ٧
(٦) الأنعام : ١١٣
(٧) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩
(٨) الحجرات : ٣
(٩) الأعراف : ١٧٩
(١٠) الأنفال : ٢٤
(١١) التغابن : ١١
(١٢) محمد : ١٦

يقول عليه الصلاة والسلام : « ألا وان فى الجسد لضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (رواه البخارى) ويقول عليه الصلاة والسلام : « تعرض الفتن على القلوب عودا عودا فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما أشرب من هواه » (رواه مسلم) قال ابو خالد فقلت لسعد يا أبا مالك : ما أسود مرباد ؟ قال : شدة البياض فى سواد ، قلت فما مجخيا ؟ قال منكوسا • ويقول عليه الصلاة والسلام : « ان الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الكتاب وعلموا من السنة • يقول حذيفة : ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر كوكب ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : ان فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبة من ايمان ولقد أتى على زمان ، وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه وان كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه وأما اليوم فما كنت أبايع منكم الا فلانا وفلانا » (رواه الشيخان وأبو داوود والنسائى) . ويقول عليه الصلاة والسلام : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » قال ابن كثير عن سند هذا الحديث : وهذا اسناد جيد حسن •• وهكذا نجد كلاما كثيرا عن القلب فى كتاب الله وفى سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ••• هذا القلب ما هى علامات صحته وسقمه • وما هى موازين استقامته وانحرافه وما هى ضوابط كمالاته ونقصانه وكيف نعيد الابصار الصحيح اليه والسمع الغيبى اليه ، كيف يستنير وكيف يظلم ؟ ما هو طريق السير الى تنويره ، كل ذلك جزء من علم التصوف وكل ذلك له اختصاصيوه والمتتبعون له والعالمون فيه ولا يجوز أن تخلو الأمة الاسلامية منهم ومتى خلت الأمة منهم فهذا يعنى أن أنواعا من العلوم بدأت ترتفع من الأرض • أخرج الترمذى باسناد قال عنه : (حسن غريب) عن أبى الدرداء قال : «كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره الى السماء ثم قال : هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرون منه على شئ فقال زياد بن لبيد الانصارى كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه أبناءنا

ونساءنا فقال النبيصلى الله عليه وسلم : « ثكلتك أمك زياد ان كنت لأعدك من فقهاء المدينة هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم » • قال جبير فلقيت عبادة بن الصامت فقلت ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء فأخبرته الذى قال فقال : صدق ان شئت حدثتك بأول علم يرفع ، أول علم يرفع من الناس الخشوع يوشك أن ندخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلا خاشعا ••• » والآن لاحظ هذه النصوص :

قال تعالى : ((**وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم** ــ أى السورة المنزلة ــ **رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون**))(١) وقال تعالى : ((**قل هو** (أى القرآن) **للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى**))(٢) وقال تعالى : ((**واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا**))(٣) وقال تعالى : ((**قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة المؤمنين**))(٤) وقال تعالى : ((**ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب**))(٥) وقال تعالى : ((**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله**))(٦) وقال تعالى : ((**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**))(٧) انك ترى من ملاحظة هذه النصوص موازين تعرف بها صحة القلب ومرضه من خلال أحواله مع القرآن وندرك من خلالها كيف أن لبعض الناس قلبا ، واذن فبعضهم لا قلب له والقلب فى هذا كله هو غير القلب الأحمــر الذى ينظم عملية توزيع الدم والذى يشترك فيه الانسان والحيوان ، انه قلب آخر مرتبط بذلك القلب نوع ارتباط ومحله الصدر • قال تعالى : ((**ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**))(٨) • وقال تعالى : ((**وبلغت القلوب الحناجر**))(٩) وهو موضوع مر معنا من قبل •

هذا الموضوع ، موضوع القلب صحته ومرضه ، جزء رئيسى من مباحث علم التصوف ، فالصوفية العاملون تقريبا هم أبرز من تكلم فى هذا الموضوع خلال العصور حتى أصبحوا أهل الاختصاص فيه ولكن لما غلب الجهل على المتكلمين فى هذا العلم • اختلط الأمر حتى أصبح ما هو طريق صحة للقلب علامة على الخطأ ومن ثم فقد عمت أمراض القلوب فكان ذلك جزءا من أمراض هذا العصر وكان شيئا طبيعيا أن يكون جزءا من أجزاء التجديد الاسلامى المعاصر احياء هذا الجانب •

---

(١) التوبة : ١٢٥ — (٢) فصلت : ٤٤
(٣) الأنفال : ٢ — (٤) يونس : ٥٧
(٥) سورة ق : ٣٧ — (٦) الزمر : ٢٣
(٧) محمد : ٢٤ — (٨) الحجر : ٤٦
(٩) الأحزاب : ١٠

مما مر تتبين أهمية هذا الجانب من علم التصوف ، وتتبين كذلك أهمية هذا العلم ، ومن النصوص التى ذكرناها ومن الملاحظات التى أبديناها يصبح بالامكان أن نضع خطوطا عريضة لقضية القلب هى بمثابة نقاط علام على الطريق الأقوم لهذا الموضوع ٠

(١) ان عالم القلب عالم واسع ومرضه وصحته قضيتان دقيقتان يتوقف عليهما خراب الدنيا والآخرة أو عمارها ٠ فالقلب اذا كان مريضا رافق ذلك فى الدنيا مواقف متناقضة خاطئة يبقى الانسان معها فى قلق وحيرة وكان عاقبة أمره الى بوار وخسار ((**ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**))(١) ٠

(٢) اصلاح القلب يحتاج الى علم وعمل وصحبة ، العلم ، ليعلم الانسان ما هية الصحة من المرض والعمل لانهاء المرض وطرده والصحبة لاستمرار الهمة فى السير ٠ والمذاكرة فى شأنه حتى لا يتصور متصور ما دون الصحة صحة ، وهذه الأمور كلها بعض مباحث هذا العلم ، علم التصوف ٠

ثالثا ــ العقل فى علم التصوف :

يلاحظ فى المصطلحات الاسلامية أن هناك العقل التكليفى والعقل الشرعى ، فالعقل التكليفى يملكه كل انسان ما لم يكن مجنونا وبه يكلف الانسان فهذا حد أدنى من العقل يملكه الانسان المكلف وبسببه يكلف ويحاسب ويكون مسئولا أمام الله عن تصرفاته ثم بعد ذلك ، الناس قسمان ، فقسم فقهوا عن الله وعقلوا خطابه فآمنوا به والتزموا فيه فهؤلاء هم العقلاء الحقيقيون وفريق لم يفقه عن الله ولم يلتزم فهؤلاء لا عقل لهم : العقل الشرعى قال تعالى حاكيا ما يقوله أهل النار : ((**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير**))(٢) ٠ هذا النوع من العقل مقره القلب وله درجات فهناك العقل الشرعى الكامل الذى مظهره ضبط الانسان شهواته على أمر الله مع الفهم عن الله والتسليم له ٠ هذا النوع من العقل وكيفية الوصول اليه هو أحد مباحث علم التصوف ٠

كيف تفقه قلوبنا عن الله ؟ كيف يكون ضبطنا لأنفسنا على مقتضى أمر الله ، ما هو الطريق لذلك ؟ كل ذلك من مباحث علم التصوف ولا شك أن هذا مرتبط بقضية الارادة الخيرة وتقويتها ومخالفة النفس الأمارة بالسوء وتربيتها فموضوع العقل هذا مرتبط بعالم القلب من ناحية وعالم النفس من ناحية أخرى ٠٠٠ ان القلب عندما يكون ضعيفا أمام قوة النفس الأمارة بالسوء فانه يستسلم لرغباتها وأهوائها المخالفة لشرع الله وكلما قوى القلب بدأ

---

(١) النساء : ٨٨ — (٢)) الملك : ١٠

يستعصى على هذه الرغبات ولكنه يبقى ضعيفا أمام بعضها الآخر فمع كراهيته للمعصية نجده مغلوبا على أمره أحيانا أمام هوى نفسه الأمارة وهكذا نجد الناس أنواعا تتدرج قوة ضبطهم لأنفسهم من الصفر الى المائة بالمائة على حسب كمالهم ٠ الضبط الكامل هو العقل الشرعى الكامل ، فكيف تتم عملية الارتقاء بالعقل من نقطة البداية حيث يبدأ الفقه عن الله حتى نقطة النهاية حيث ينضبط سلوك الانسان انضباطا تاما على أمر الله فى كل شىء ، هذا الجانب يبحثه علم التصوف ويتكلم فيه ٠

والانضباط على أمر الله لا يعنى أن يخرج الانسان من شهوات نفسه كلها ، فالانسان مبتلى بهذه الشهوات وقد أعطاه الشارع المسار الصحيح لتحقيق الشهوات المباحة وفتح له منافذ للخلاص من الشهوات المحرمة وهذا كله جزء من الطريق ، فالسير الحقيقى الى الله سير يتفق مع الفطرة ٠٠ ولا يعارضها ولا يحاربها ٠٠ نجد مسلما راغبا فى التوبة من الزنا مثلا فاذا وجد فى ظرف شهوانى وجد نفسه مغلوبا على أمره مساقا الى المعصية من قبل نفسه وشيطانه مع كراهته لما هو فيه كيف يفعل هذا المسلم ليقوى قلبه على دفع المعصية والبعد عنها ؟

هناك مجموعة أمور عليه أن يفعلها ٠ أن يزداد نور قلبه ، أن تزكو نفسه ، أن يسير فى الطريق الصحيح لقضاء شهوته فى حدود المباح أو أن يخفف من دوافع الشهوة بواسطة بعض الرياضات من تحكم بالتغذية واتعاب للجسد وتخفيف للطعام وبعد عن مثيرات الشهوة وغير ذلك ٠ كل ذلك جزء من العلاج ليتغلب المسلم على المعصية ، وتغلبه على المعصية هو عقل فى حقه بالنسبة لهذا الموضوع ، غير أن الأمر واسع جدا : فهناك الشهوات الحسية وهناك الشهوات المعنوية كحب الرئاسة والجاه والحرص على الدنيا وغير ذلك ٠ وهناك ضبط الجوارح ومنها اللسان على أمر الله ، وهناك ضبط النفس والقلب على أمر الله ٠ وهناك السير نحو تحقيق الأوامر كلها ٠ كل ذلك أثر من آثار وجود العقل الشرعى عند الانسان ، وهذا العقل الشرعى حتى يصل اليه الانسان فيصبح هو مسيره بشكل عفوى غير متكلف له سيره وأصوله وهذا كله أحد مجالات هذا العلم ومباحثه الرئيسية ، والسير العملى الصحيح فى هذا العلم هو فى الحقيقة سير للوصول الى العقل الشرعى الكامل ، فالراغبون فى هذا العلم عليهم أن يرغبوا فى مثل هذا ، والمعترضون عليه عليهم ألا يعترضوا على مثل هذا ٠

رابعا ـــ النفس فى علم التصوف :

بعض الصوفية يعتبر النفس هى الروح بعد مخالطتها الجسد ، فمخالطة الروح للجسد جعلت للجسد تأثيرات عليها ، هذه التأثيرات سببها احتياجات

الجسد فى الأصل اذ تتبناها الروح ، فاذا ما أصبح للجسد مطالب مرضية ولم يكن هنالك ضبط للنفس وصلاح فى القلب فإن مطالب النفس تصبح لا نهاية لها والجسد يسير فى خدمتها نحو البوار ، والروح عندما خالطت الجسد أصبح لها تطلعاتها ومن تطلعاتها الرغبة فى الخلود الحسى أو المعنوى وهو الموضوع الذى استغله الشيطان فى ازلال آدم **« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »**(١) وهكذا تتولد عند النفس معان تصل فى أحيان كثيرة الى أمراض وهذه الأمراض يتولد بعضها عن بعض وتتزايد أو تتناقص ولكنها تبقى أمراضا ومن ثم جاءت شرائع الله عز وجل بمجاهدة هذه النفس حتى تستقيم ، يقول عليه الصلاة والسلام « والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات ذات الله »(٢) وقال تعالى **«وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى»**(٣) ومن ثم كانت نقطة البداية فى الصحة النفسية أو المرض النفسى ، عدم الرضا عن النفس ، يقول ابن عطاء فى الحكم « أصل كل معصية وشهوة وغفلة ، الرضى عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه » وقال الشيخ زروق (وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضى عن النفس وخوف الخلق وهم الرزق فيتولد من الأول الشهوة والغفلة والمعصية ومن الثانى الغضب والحقد والحسد ومن الثالث المرض والطمع والبخل) ، ثم قال : (لكن التزام أصل واحد ينفى جميعها وهو عدم الرضا عن النفس فى جميع الأحوال والحذر منها فى كل الأوقات) وقال السلمى « وأما أخلاق النفس فمنها الكبر والعجب والفخر والخيلاء والغش والبغض والحرص والأمل والحقد والحسد والضجر والجزع والهلع والطمع والجمع والمنع والجبن والجهل والكسل والبذاء والجفاء واتباع الهوى والازدراء والاستهزاء والتمنى والترفع والحدة والسفه والطيش والمراء والتحكم والظلم والعداوة والمنازعة والمعاندة والمخالفة والمغالبة والمزاحمة والغيبة والبهتان والكذب والنميمة والتهويش وسوء الظن والمهاجرة واللؤم والوقاحة والغدر والخيانة والفجور والشماتة ٠٠ الى غير ذلك مما يكثر تعداده فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها والمجاهدة فى تبديلها بأحسن منها فمن لم يعرف ذلك لم يزدد مع مرور الأيام الا ادبارا ، فتبدل الكبر بالتواضع والحدة بالتؤدة والكذب بالصدق وبالله التوفيق » ٠ واستطرادا نقول ، ان أصول المعالجة كما يراها أئمة السلوك الى الله تكمن فى مخالفة النفس اذا طالبت بمعصية أو بتوسع فى المباح٠ وفى احتمال الأذى من الخلق فى طاعة الله ، وفى التحكم بلباسها ضمن الحدود الشرعية والمسنونة ، ولنرجع الى أصل الموضوع :

---

(١) : ١٢٠ (٢) رواه الترمذى وابن حبان ٠ وهو صحيح ٠
(٣) النازعات : ٤٠

قال تعالى « **ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها** »(١) وقال تعالى «**ان النفس لأمارة بالسوء**»(٢) وقال تعالى « **ولا أقسم بالنفس اللوامة** »(٣) وقال تعالى « **يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعى الى ربك راضية مرضية • فادخلى فى عبادى • وادخلى جنتى** »(٤) هذه آيات ذكرت حالات للنفس ، فهناك نفس مزكاة ونفس مدساة ونفس أمارة بالسوء ونفس لوامة ونفس مطمئنة تستحق من الله الرضى وهى فى ذاتها راضية عن الله • يفهم من هذا كله ومن قوله تعالى « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى** »(٥) ان النفس بحاجة الى مجاهدة • قال تعالى « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** »(٦) هذه المجاهدة ما هى ، وما هى حدودها ؟ وما هى وسائلها المشروعة ؟ وما هى كمالات النفس المزكاة التى ينبغى أن تتحقق بها ، كل ذلك أحد مباحث علم التصوف الرئيسية وهو أحد مجالات هذا العلم • ان تزكية النفس هى احدى أمهات أمور التصوف بل انها لتكاد أن تكون علما على هذا العلم وهى قضية أهملت فى هذه الأمة تقريبا الا عند هذه الطائفة مع أنه من المقاصد الرئيسية لبعثة الرسل عليهم السلام تزكية الأنفس • قال تعالى « **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة** »(٧) انك نادرا ما تجد من يتكلم فى شأن تزكية النفس وهو عارف ما هية هذه التزكية وطريقها من خارج هذه الطائفة ولكى يكون الأمر واضحا فحاول أن تقارن بين آثار علماء المسلمين خلال العصور وأحص من منهم تكلم فى هذا الموضوع فانك لا تجد الا القليل من خارج هذه الطائفة أعطى هذا الموضوع حقه أو أغناه • وحتى ابن القيم رحمه الله وهو أحد الأفذاذ الذين تكلموا فى هذا الموضوع كانت نشأته وتربيته الأولى صوفية ثم تتلمذ على ابن تيمية فأعطى التصوف اتجاها سلفيا ولولا النشأة الأولى ما استطاع ابن القيم أن يفيض فيما أفاض فيه ولولا ابن القيم ما وجد فى مدرسة ابن تيمية من يتكلم فى هذا العلم ويخصه بالتأليف •• ومما مر معنا ندرك أن تزكية النفس تحتاج الى مزك وتحتاج الى مجاهدة من قبل صاحبها وهذا يقتضى علما ، علما بكمالات النفس ونقائصها وعلما بطريق التحقق فى الكمالات وطرق التخلص من النقائص وكل ذلك هو أحد مجالات علم التصوف الرئيسية •

---

(١) الشمس : ٧ ـ ١٠ (٢) يوسف : ٥٣
(٣) القيامة : ٢ (٤) الفجر : ٢٧ ـ ٣٠
(٥) النازعات : ٤٠ (٦) العنكبوت : ٦٩
(٧) البقرة : ١٥١

خامسا ـ التصوف والجانب التحققى من علم العقائد :

فى علم العقائد عادة تعرض مسائل الاعتقاد وتعرض الادلة عليها وتذكر عادة أمهات الأمور التى وقع فيها خلاف بين أهل السنة والجماعة وغيرهم ولا يتشار الى الجانب الذوقى والعاطفى والشعورى والتحققى والطريق الى ذلك الا لماما ، فمثلا يعرض فى علم العقائد أن الله عز وجل متصف بالسمع والبصر والكلام والارادة والقدرة والحياة والعلم ولكن أن يستشعر العبد أن الله يسمعه وأن الله يراه وأن يتذوق القلب وهو يقرأ القرآن أن القرآن كلام الله وأن يستشعر الانسان أن كل شىء مخلوق هو أثر قدرة الله عز وجل ٠٠ هذه المعانى وأمثالها لا تبحث عادة فى كتب علم العقائد وانما تبحث عادة فى كتب التصوف ، فهى التى تبحث عن تذوق معانى العقيدة مع ملاحظة أن هذا التحقق ليس من باب المندوبات بل أحيانا يكون من باب الفرائض ، ونلاحظ أن السنة أعطت قضية التذوق لمعانى العقيدة الكثيرة الكثير « ذاق طعم الايمان : من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا » (مسلم والترمذى) « ثلاث من كن فيه وجد فيهن طعم الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن أحب عبدا لا يحبه الا لله ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » (رواه الشيخان والترمذى والنسائى) ٠ فى كتاب للعقائد قد تقرأ كلاما عن الايمان وحده وعن الكفر ومظاهره وعن النفاق وتعريفه ولكن كتب التصوف هى التى تتحدث عن الطريق للتحقق العملى بمعانى الايمان والطريق العملى للتحقق باليقين والاطمئنان وطرق التخلص من النفاق ، وهذه كلها قضايا لا يكفى فيها أن يعرف الانسان حدها فقد يعرف الانسان حدها ويبقى بينه وبين حقائقها بعد اذا لم يسر فى طريق ذلك ((**قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم**))(١) أخرج الطبرانى فى الكبير باسناد رجاله رجال الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنه قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ جاءه حرملة بن زيد فجلس بين يديه فقال يا رسول الله : الايمان ههنا : وأشار الى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار الى صدره ولا نذكر الله الا قليلا فسكت عنه صلى الله عليه وسلم فردد عليه ذلك حرملة فأخذ صلى الله عليه وسلم بطرف حرملة فقال : اللهم اجعل له لسانا صادقا وقلبا شاكرا وارزقه حبى وحب من يحبنى وصير أمره الى الخير ٠ فقال حرملة يا رسول الله : ان لى اخوانا منافقين كنت فيهم رأسا ألا أدلك عليهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: « من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ومن أصر على دينه فالله أولى به ولا تخرق على أحد سترا » وهكذا نجد أن قول اللسان شىء وما فى القلب شىء آخر ، فما هو الطريق للتحقق بمعانى العقيدة ؟

---

(١) الحجرات : ١٤

تجد انسانا يحفظ الكثير عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه بعيد عن الاقتداء به وتجد انسانا لا يعرف الا القليل ولكنه حريص على الاقتداء ، تجد انسانا قد أخذ حظه من وراثة النبوة فى صفاتها الضرورية كالأمانة والتبليغ والصدق والفطانة وتجد انسانا يتكلم فى مثل هذا وهو أبعد الناس عن ذلك فمجرد العلم شيء والسير للتحقق وطرق ذلك شيء آخر فما هو العلم الذى يدل على الطريق ويكمل الجوانب التى تتحدث عنها كتب العقائد عادة ؟

ان هذا العلم هو علم التصوف من بين العلوم الاسلامية ولئن خالط هذا العلم الكثير فهذا لا يلغيه أو يجعلنا نتحسس منه بل علينا أن نصفيه ونعطيه حدوده وحقوقه ، فعلم العقائد هو الذى يقيد علم التصوف ، وعلم التصوف هو الذى يكمل علم العقائد من حيث انه الجانب التحققى فيه فاذا زاد على ذلك بأن ناقضه أو أوجد عقائد جديدة تخالف كتابا أو سنة أو تخالف عقائد أهل السنة والجماعة خلال العصور كما ورثت عن السلف فههنا الانحراف والزيغ والابتداع الخبيث ، عندما تقرأ فى كتاب صوفى أو تسمع من صوفى كلمة لم ترد فى كتاب أو سنة أو لم تجر عادة على ألسنة السلف مما ليس من قبيل الاصطلاح أو من قبيل الفهم الصحيح للنصوص ، أو من قبيل التحقق بمعنى مذكور فى الكتاب والسنة فلا عليك أن ترده وأنت مطمئن على أن ما فعلته هو عين التصوف الحق وليس سواه وهؤلاء أئمة السلوك الذين أجمعت الأمة على قبولهم معك ٠٠ يقول أبو سليمان الدارانى : « ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها الا بشاهدى عدل من الكتاب والسنة فان الله ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك » ومن وصايا أئمة السلوك المشهورة قول أحدهم « يا بنى كن محدثا صوفيا ولا تكن صوفيا محدثا » وما ذلك الا لأن الصوفى المحدث يجعل النص من وراء الهوى أما المحدث الصوفى فيجعل الهوى من وراء النص ٠ عندما تجد فى كتاب أو تسمع من انسان فهما لنص يخالف فهم أئمة الاعتقاد أو أئمة الاجتهاد أو أئمة التفسير أو قواعد الفقه فأسقطه بدون تردد ٠ ان التصوف هو التحقق ، فاذا ما أراد أهله أن يعطونا عقائد جديدة أو اجتهادات فقهية جديدة أو تصورات خاطئة أو بناءات فاسدة فى قضايا العقائد على أحاديث موضوعة أو ضعيفة فلا ينبغى أن نتردد فى الرد ، بل ان مثل هذه المعانى هى أول ما يحمل عليه الحديث : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (رواه البخارى) ٠ ترى أى حدث أكبر من أن نحدث فى قضايا العقائد بما لم يجر على قلب صحابى أو على لسانه ، بل لو نطق به أحد أمام ذلك الجيل لقتلوه أو عزروه بلا تردد ٠٠ اللهم اننا سلم لمن سالمت ، حرب لمن حاربت ، برآء من كل ما خالف ما كان عليه هدى رسولك صلى الله عليه وسلم وأصحابه ٠ لقد أصبح من علامات الوصول عند متأخرى الصوفية أن يقول الانسان « أنا الله » وأصبح علامة على الفتوح

أن يقول قائل ان الكون هو الله • فوالله ما لهؤلاء اذا قالوها الا السيف يقطع رقابهم مهما لبسوا من مسوح الترهب وتزينوا بأزياء الصلاح • جاء القرآن ليقول : **((لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم))**(١) وهؤلاء يقولون عن كل شيء انه الله ترى هل يتردد مسلم فى أن يستعمل السيف مع هؤلاء •• أنا أقول هذا الكلام وأنا أعلم ما يتأولون به هذا الكلام ولكن والله لأن نقتل من يقول هذا وان كان له تأويل أفضل ألف مرة أن نعتقد بصلاحه أو نسكت عليه مهما كان له من تأويل وأى تأويل يمكن أن يقبله قلب مسلم لانسان يقول « أنا الله » أو مثال ذلك من الكفر اللعين الخبيث • ان التصوف الحق هو التذوق للعقيدة الحق فاذا ما زاد على ذلك أصبح زندقة ولم يعد تصوفا ، على أننا نقول : ان علينا ألا نتسرع فى الحكم بالكفر الا بعد التثبت من فهمنا ومن نسبة القول الى صاحبه • وعبارة : هذا النص كفر والله أعلم بصاحبه عبارة حكيمة اذا وافقت محلها حقيقة • وبعد هذا الاسنطراد نرجع لنقول :

ان من مجالات علم التصوف الرئيسية هذا الجانب الذى أسميناه بالجانب التحققى بالعقائد الاسلامية ، عقائد أهل السنة والجماعة ، أما ما سوى ذلك فليتق الله أهله ، ترى هل فهم أحد من سلف هذه الأمة أن العذاب فى مثل قوله تعالى **((فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا))**(٢) بأن العذاب ههنا من العذوبة • وهل فهم أحد من السلف مثل قوله تعالى **((والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور • وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل))**(٣) ترى هل فهم أحد من سلف هذه الأمة من مثل هذه الآية أن الكفار يتلذذون بالعذاب حتى لو عرض عليهم أن يخرجوا من النار ما خرجوا • أليس ربط هذه المعانى بالتصوف اثباتا لعقائد مناقضة لما عليه السلف ولما ذكره أهل السنة والجماعة فى كتبهم أليس هذا هو الضلال والكفر بعينهما • شيء عجيب مثل هذه الاتجاهات والأعجب من ذلك أن يعتبر القائلون بمثل هذا أنهم عارفون بالله وأنهم أهل الحقيقة • تالله انهم لأجهل خلق الله بالله وانهم لأهل حقيقة الكفر •

ان الله عز وجل قال : **((وجعلوا له من عباده جزءا ، ان الانسان لكفور مبين))**(٤) أن يجعل أحد لله من عباده جزءا فذلك كفر مبين • أترى هؤلاء الذين يقولون بأن الكون هو جزء من الذات الالهية تكثف : أفهؤلاء عارفون بالله ؟ يا ويلهم . يا ويلهم ، اللهم انا نبرأ اليك من تأويل الجاهلين وغلو الغالين وانتحال المبطلين •• ان هذا النوع من التصوف الذى حرف النصوص عن

---

(١) المائدة : ٧٢
(٢) النبأ : ٣٠
(٣) فاطر : ٣٦ ، ٣٧
(٤) الزخرف : ١٥

مواضعها والذى يثبت عقائد مناقضة أو مخالفة لعقائد أهل السنة والجماعة ليس تصوفا اسلاميا بل هو الضلال عن الحق ، ان التصوف الذى نعرفه والذى ندعو اليه هو التصوف الذى يتحقق به الانسان بمعانى العقيدة ، صاحبه عارف بالله معرفه اهل السنة والجماعة • له معرفة ذوقية شعوريه تتفق مع محكمات الكتاب والسنه ، صاحبه متحقق بالقدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والباطن صاحبه يستشعر أمر الآخرة وكأنه رأى عين ، وقل مثل ذلك فى استشعاره أمور العقيدة كلها أما أن يكون للصوفية عقائد خاصة بهم فان هذا هو الضلال عن التصوف نفسه كما أراده أئمته الذين تكلموا فيه وابتدأوه علما منبثقا عن الكتاب والسنة ، يحترم الفهم الصحيح والتذوق الصحيح للنصوص • اما ان يحرف النصوص عن مواضعها فذلك طريق اليهود مع كتبهم لا طريق المسلمين ، تالله لقد ضل هؤلاء أكثر من ضلال النصارى ، فالنصارى جعلوا المسيح جزءا لله وهؤلاء جعلوا كل شىء جزءا لله • التصوف الحق تحقق بأمور العقيدة فقط ولا زائد على ذلك •

سادسا ـ التصوف كمكمل لعلم الفقه :

تبدأ كتب الفقه عادة بأبحاث الطهارة من حيث الفعل والقول ولكنها نادرا ما تتحدث عن المعانى القلبية التى ينبغى ان ترافق عملية الطهاره ثم تتحدث عن الصلاة • شروطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها ومكروهاتها ومفسداتها ولكنها لا تتحدث عن المعانى الباطنة التى ينبغى أن ترافقها كالخشوع مثلا • والطريق اليه والعوامل المؤدية اليه ، مع أنه علم من العلوم بشهادة النصوص بل هو أول علم يرفع من الأرض كما ورد فى الحديث الذى مر فى هذا الباب •

فما هو العلم الذى يكمل علم الفقه فى هذه الشئون ؟ لا شك أنه علم التصوف فهو العلم الذى يبحث عادة عن مثل هذه الشئون ولا تقتصر مهمة علم التصوف عند هذه الشئون اذ يكمل علم الفقه فى النواحى الباطنة كتعليم الاخلاص والطريق اليه ، بل هو الذى ينمى استعداد الانسان بالالتزام بالأحكام الفقهية ، بل ان الانسان لا يكمل التزامه الا اذا كمل سيره ، ومن ثم فقد تحدث أئمة السلوك عن الفناء فى أفعال الله وعن الفناء فى صفاته وعن الفناء فى ذاته وهى مواضيع سنرى ما فيها ثم يتحدثون عن الفناء فى الأحكام فالنتيجة العادية للمعرفة الذوقية لله عز وجل هى الالتزام الكامل بأحكامه ومن هنا نفهم ضلال بعض المحسوبين على التصوف اذ يعتبرون السير الى الله قرين التفلت من أحكامه ، وكيف يكون الأمر كذلك والله عز وجل يقول لرسوله صلى

الله عليه وسلم ((**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**))(١) ولذلك قال الجنيد فى طائفة جعلت الوصول الى الله قرين التفلت من أحكام الشريعة ، قال فى هؤلاء : ((نعم وصلوا ولكن الى سقر)) ، وقديما قال الفقهاء : ((من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق)) فالتصوف لا بد منه كمكمل للفقه ، والفقه لا بد منه كحاكم للتصوف وكحاكم للعمل وموجه له ومن فاته شيء من ذلك فقد فاته نصف الأمر ٠٠

التصوف والفقه علمان متكاملان فاذا تعارضا فذلك الخطأ أو الضلال أو الانحراف ، والمقصود بالتعارض أن ينطلق الصوفى بعيدا عنالفقه مع أن الفقه هو الحاكم أو يبتعد الفقيه عن التطبيق فذلك علامة على فسوق القلب٠ يقول الشيخ أحمد الزروق فى كتابه (قواعد التصوف) : ((يحكم الفقيه على الصوفى ولا يحكم الصوفى على الفقيه)) فاذا ما اتضح هذا الأمر نقول : عندما نقول على الفقيه أن يتصوف أو على الصوفى أن يتفقه فعلينا أن نكون واضحين فى أن المراد أن يشمل علم الفقيه ما له علاقة بالأحكام وما له علاقة بطريق العمل والتحقق ، وأن يشمل علم الصوفى ما يلزمه من الأحكام التى يحتاج اليها وأن يرافق ذلك كله عمل صحيح على ضوء العلم الصحيح ولذلك قال كبار أئمة السلوك كالشيخ الرفاعى ((ان نهاية العلماء والصوفية واحدة ، نقول هذا ههنا لأن بعض جهلة الصوفية يقذفون فى وجه كل انسان هذه العبارة ((من لا شيخ له فشيخه الشيطان)) يقولها صوفى جاهل وهو يدعو لشيخه الجاهل ، ويقولها صوفى جاهل وهو يدعو لشيخه العليم ٠ ويقولها صوفى مخطيء وهو لا يعرف أن يضعها فى مواضعها ٠٠٠ ان من لا شيخ له ، أى من لا يوجد من يعلمه العلوم الشرعية ٠ أى الانسان الجاهل الذى لا يتعلم ويرفض التعليم فهذا انسان شيخه الشيطان ، أما الانسان الذى يسير على ضوء العلم فهذا امامه العلم والشريعة ٠

ومن القواعد التى ذكرها الشيخ زروق فى كتابه (قواعد التصوف) موضوع احتياج المريد للشيخ فقال : ان التقوى لا تحتاج الى شيخ لوضوحها ، وقال : ((واللبيب يكفى الكتاب فى ترقيه ولكنه لا يسلم من رعونة نفسه)) فالمهم اذن هو قدرة الانسان على التعلم ثم أخذ العلم والسير على ضوء هذا العلم ٠٠٠ هذا هو الحد الأدنى الذى افترضه الله على عباده وهذا يمكن أن يتوافر للانسان اذا كان عنده قدرة على التعلم والفهم من خلال مطالعات شخصية فى الكتب المعتمدة الموثقة كما يمكن أن يأخذه الانسان من العلماء العاملين سواء كانوا ممن اصطلح على تسميتهم أنهم صوفية أو لا وهو

---

(١) الجاثية : ١٨

موضوع سنراه ولكننا أحببنا أن نؤكده بأن نذكره أكثر من مرة ، ولنعد الى موضوعنا ، ان علم التصوف وعلم الفقه علمان متكاملان ولا بد منهما لكل انسان مع ملاحظة أن ما يحتاجه انسان منهما يختلف عما يحتاجه انسان آخر ويبقى التوسع فيهما أو فى واحد منهما من فروض الكفايات فى حق الأمة ومن باب المندوبات فى حق كل مسلم وبهذه الفقرة أدركنا مجالا رئيسيا من مجالات علم التصوف ٠

سابعا ـ التصوف والجانب العملى التحققى بالكتاب والسنة :

الكتاب والسنة نصوص ، والمسلم مكلف بالفقه لها والتحقق فيها ، فاذا وجد فقه للنصوص ، دون تحقق فيها كان هناك خلل ومن ثم نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان خلقه القرآن » ونجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يحفظون بعض القرآن فيتفقهون بما حفظوه ثم يعملون به ثم ينتقلون الى غيره ٠

والعلماء العاملون والصوفية المحققون خلال تاريخ هذه الأمة هم الذين اجتمع لهم الفقه والتحقق بآن واحد ٠ ما هو الايمان وما هى حقيقته وكيف التحقق بذلك ؟ ما هو الاسلام وما هى حقيقته وكيف التحقق بذلك ؟ ما هو الاحسان وما هى حقيقته ؟ وكيف التحقق بذلك ؟ ما هى التقوى ؟ وما هى حقيقتها وكيفية التحقق بذلك ؟ ما هو الشكر وما هى حقيقته وكيفية التحقق بذلك ؟ وقل مثل ذلك فى الصبر والتسليم والرضا والتوكل ومحبة الله والاخلاص ٠٠٠ وقل مثل ذلك فى الحلم والكرم والعفة والتواضع وعدم الاستشراف لما فى أيدى الآخرين ، والزهد والورع والخشوع ٠٠٠ وقل مثل ذلك فى آداب الظاهر والباطن ٠ ان فى الصلاة أو فى الزكاة أو فى الصوم أو فى الحج أو فى السفر أو فى الجهاد أو فى التناصح والمذاكرة أو فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو فى أدب الصحبة والجوار أو فى البر وصلة الأرحام الى غير ذلك مما تحدثت عنه النصوص ٠٠٠ الفقه الصحيح للنصوص والتحقق الصحيح بها يمثل الأخذ الكامل للكتاب والسنة ٠ وقد بذل العلماء الربانيون كامل الجهد للوصول الى فقه الكتاب والسنة ، وبذل الصوفية المحققون كامل الجهد للتحقق بالكتاب والسنة لتبقى معانيها حية تتمثل بأناسى هم محل القدوة خلال العصور وبذلك كله بقى ويبقى الاسلام حيا ، ولا يأتى الخلل الا من فهم خاطىء أو قاصر أو من تحقق قاصر أو ناقص وقد وجد هذا وهذا فكان ما كان ، ولا بد من عودة كاملة لهذا وهذا حتى يصلح الأمر ويحيا الاسلام ٠ والطامة الكبرى تكون عندما يجتمع فهم خاطىء وتحقق خاطىء ٠ وأبشع ما نرى ذلك عند جهلة الصوفية فعندئذ يقع فى هذه الأمة ما وقع فى غيرها من تحريف للكلم عن مواضعه وتحقق فى مسارب الضلال وههنا تأتى مهمة العلماء الربانيين فى ارجاع الأمور الى نصابها فى نفى تأويل

الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين ، عند قوله تعالى : **((ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء))(١)** وقف بعض جهلة الصوفية ، فأرجع الضمير فى كلمتى **((منه))** الى الله عز وجل وذلكتحريف للكلم عن مواضعه وفهم جاهل للنصوص لم يقل به أحد من هذه الأمة وأمثال ذلك ما أكثره عند أمثال هؤلاء فاذا ما سكت العالم أمام هذا الهراء فماذا بقى من معالم للعلم بل للاسلام لم تهدم ٠

ان واجب العالم العامل فى هذا المقام أن يعيد الأمر الى نصابه من أجل سلامة الفهم وأن يحقق المسلم بما يستوجبه الفهم الصحيح للنص فى الفرار من قسوة القلب بمعرفة أسبابها والفرار من موجباتها والتحقق بما يقابلها من اخبات لله رب العالمين وخشوع له ، ان هذا هو المجال الصحيح للعالم والصوفى أو للعالم الصوفى وما سوى ذلك فليس من العلم فى شىء ولا من التصوف فى ورد ولا صدر وفى هذا المقام نذكر هذا النص : أخرج الدارمى عن معاذ أنه قال : انه يفتح القرآن على الناس حتى تقرأه المرأة والصبى والرجل فيقول الرجل قرأت القرآن فلم أتبع ثم يقوم به فيهم فلا يتبع ، ثم يحتظر فى بيته مسجدا فلا يتبع ، فيقول : « قد قرأت القرآن فلم أتبع وقمت به ، فلم أتبع واحتظرت فى بيتى مسجدا فلم أتبع ، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه فى كتاب الله ولم يسمعوه عن رسول الله لعلى أتبع ٠ قال معاذ : فاياكم وما جاء به فانه ضلالة » وأخرج أبو داوود عن معاذ رضى الله عنه أنه قال : « ان وراءكم فتنا يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير ، فيوشك قائل أن يقول ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن وما هم بمتبعى حتى أبتدع لهم غيره فاياكم وما ابتدع فانما ابتدع ضلالة وأحذركم زلة الحكيم فان الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق » وقال : « اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التى يقال ما هذه ؟ ولا يثنينك ذلك عنه فانه لعله يراجع وتلق الحق اذا سمعته فان على الحق نورا » ٠

ان المجال الصحيح للتصوف الصحيح هو التحقق الصحيح بالنصوص على ضوء الفهم الصحيح ، فالصوفى الحق هو الذى لا يكتفى بمجرد الفهم بل يحاول أن يجمع مع الفهم التحقق حيث يفوت غيره ذلك ٠ أما ما سوى ذلك فليس تصوفا بل هو انحراف وضلال ٠٠٠ عندما تعرف السنة يقال فى تعريفها : هى ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أى صفة ، والصفة على أنواع منها الصفة الحسية ومنها الصفة

---

(١) البقرة : ٧٤

المعنوية ، والصفة المعنوية أو الباطنة يسميها الصوفية حالا ، والصوفية المحققون هم من أكثر خلق الله حرصا على التحقق بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الظاهرة والباطنة ، فكما أنهم حريصون على الاقتداء به فى لباسه وطعامه وشرابه وهيئته فهم حريصون على الاقتداء به باطنا وعلى أن يتحققوا بحاله عليه الصلاة والسلام وهم فى هذا كله على غاية من التحقق والتتبع ، وهو أمر يفوت الكثير من المسلمين الكثير منه ؟ وهؤلاء يأخذون الكثير ، الكثير فيه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى يسمع من جوفه أزيز كأزيز المرجل) - رواه أبو داوود والترمذى - من كثرة خشوعه عليه الصلاة والسلام · هذا حال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب اللباس اليه القميص أى ما يسمى باصطلاح الناس اليوم (الجلابية) فهذه صفة ، والصوفية أكثر الناس مسارعة الى التحقق بصفات رسول الله صلى الله عليه وسلم العملية والحالية ، فهذا مجال رئيسى آخر للتصوف الحق ، فاذا أدرك انسان ما ذكرناه فى هذه الفقرات السبع ، أدرك بالتالى ماهية علم التصوف ومجاله الحقيقى · وأدرك بالتالى جوانب الغلو والانحراف عن هذا العلم ، كما أدرك خطأ الذين يحاربونه كله ، وأدرك من خلال ذلك كثيرا من الأسباب التى تدعو بعض الناس الى أن يحاربوا هذا العلم بسبب انحرافات بعض المنتسبين اليه وعلى أهل العلم فى كل عصر أن يضعوا الأمور فى مواضعها ، دون حساسيات من ناحية ، ودون وجل ودون خوف من لومة اللائمين بالباطل فذلك جزء من التحقق بقوله تعالى : ((**يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**))(١) نسأل الله أن يجعلنا منهم ···

وشىء عادى ، وهذه مجالات التصوف أن يعتبر التصوف ، علما وأن يكون لهذا العلم اصطلاحاته ككل علم ومن ثم نجد فى هذا العلم اصطلاحات حال ومقام وبقاء وفناء وقبض وبسط وغير ذلك من اصطلاحات كثيرة وكلها يعبر عن معان صحيحة فى الأصل ولو أعطاها بعض المنتسبين الغلاة لهذا العلم مفاهيم خاطئة فهذا لا يؤثر على جوهر الحقيقة ·

وكما نشأت لهذا العلم وفيه اصطلاحات فقد وجد عند أهل هذا العلم كثير من الأمور اعتمدوها لاقامته ، وللتحقق بمضامينه كاثر عن نص أو أثر عن تجربة · هذه الأمور أصبحت جزءا كذلك من هذا العلم · وما دام الأصل المعتمد فى هذا العلم أن الفقه الصحيح هو الحاكم فلا حرج فى أمر يعتمد اذا كانت الفتوى الصحيحة المستقيمة تجيزه · أما اذا كان غير ذلك فهو مردود على صاحبه كائنا من كان · وبهذا كله نكون قد أدركنا حقيقة من حقائق

---

(١) المائدة : ٥٤

التصوف الأولية اذ عرفنا مجالات هذا العلم الأصيلة · واذا أردنا الآن أن نبسط الأمر بعد أن أدركنا أبعاد هذا العلم وآفاقه ومجالاته الرئيسية فاننا نستطيع أن نقول : ان التصوف باختصار هو السير الى الله فى الطريق الذى حدده الله لمرضاته · والصوفية يعبرون عن هذا بكلمة : السير الى الله ، ومعناها فى الحقيقة ما ذكرناه · فليكن الباب الثالث فى هذا الموضوع ، وهو فى الحقيقة بداية الكلام عن الجانب النظرى والعملى فى هذا العلم ومن الآن فصاعدا علينا أن نعطى للعمل محله بعد الفهم ·

الباب الثالث

فى السير الى الله

ماذا يعنى ؟ ما هى أركانه ؟ ما هى نقطة البداية فيه ؟

السير الى الله يعنى الانتقال من نفس غير مزكاة الى نفس مزكاة ، ومن عقل غير شرعى الى عقل شرعى ومن قلب كافر أو منافق أو فاسق أو مريض أو قاس الى قلب مطمئن سليم ، ومن روح شاردة عن باب الله غير متذكرة لعبوديتها وغير متحققة بهذه العبوديه الى روح عارفة بالله قائمة بحقوق العبودية له ، ومن جسد غير منضبط بضوابط الشرع الى جسم منضبط انضباطا كاملا بشريعة الله عز وجل ، وبالجملة من ذات أقل كمالا الى ذات أكثر كمالا فى صلاحها وفى اقتدائها برسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وحالا . هذا كله داخل فى عباراتهم فى تعريف السير الى الله وهو فى مجمله كله سير الى الله عز وجل . وبعضهم يقصر السير الى الله على حالة وحيدة وهى حالة الانتقال من الايمان العقلى الى الايمان الذوقى ، ومن حالة الشعور القلبى بأفعال الله الى الشعور بصفاته الى الاستغراق الروحى ، أو ما يسمى عندهم بمقام الفناء ثم مقام البقاء ولكن هذا فى الحقيقة أحد مظاهر السير وواحد من أجزائه ومرحلة فيه . وما أكثر الأغلاط التى ترافق هذا الموضوع عند الكثير من الناس وما أكثر الأوهام التى تصيب تصورات الناس فى هذا الشأن . وما أكثر ما يختلط الجوهر بالعرض والحقيقة بالخطأ فى هذا الموضوع ، ولذلك كان الكلام فى هذا الموضوع صعبا ومحيرا وتقريبه وتبسيطه أمرا فيه مشقة كبيرة . فكثيرا ما تصبح الوسائل غايات والبدايات نهايات ، وما هو كالمقدمة لما بعده يصبح وكأنه كل شىء ولنضرب على ذلك مثلا : بعضهم يعتبر الوصول الى القلب السليم المطمئن هو ذروة السير الى الله ويعتبرون ذلك غاية الغايات وينسون واجبات كثيرة .

ان الوصول الى القلب السليم هدف ولكن القلب السليم هو الذى أصبح يتلقى أوامر الله بمنتهى التسليم والرضى ويسير الجسم به على حسب أوامر الله بكامل القوة والحيوية والجدية ، ومن أوامر الله الأمر بالجهاد وجعل كلمة الله هى العليا ... فأن ترى صوفيا مشغولا بقضية القلب السليم طوال

حياته وهو ناس أوامر الله باعلاء كلمته وغافل عن واجبات الوقت الكثيرة ويعتبر ما هو فيه هو الكمال مع تفريطه بكثير من الواجبات ۰۰۰ مثل ذلك غلط كبير ، ان لم نقل أكثر من ذلك ، ان الفارق بين صاحب القلب السليم وغيره كما يكون فى جوهر القلب يكون فى صلاح العمل ، وقوة الأخذ بكتاب الله وأحكامه ، وقديما كان ادعاء المعرفة بالله عاملا من عوامل الفرار من الورع ۰۰۰ فأى معرفة هذه تلك التى ينطفىء بها مع الانسان نور ورعه ؟ هذا رسـول الله صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بالله ، كان أكثر خلق الله خشية ومن ثم قال عليه السلام : « انى لأتقاكم لله وأكثركم له خشية » (متفق عليـه) ۰

ان الكلام عن السير الى الله ليس سهلا ۰۰۰ أولا : لأنه لا يمكن حصره وضبطه ، وثانيا : لأن الناس فى هذا الشأن أصناف ولكل مشربه الذى ألفه وحصر فيه مالا يدخل تحت حصر وينظر الى الأمور كلها بمنظاره الخاص به ويحاسبك على ذلك وهذا كذلك مظهر من مظاهر الغلط فى هذا الشأن ومن العجيب أنك تجد عند كثير من الناس القاعدة المسلمة والعمل المخالف ، فمثلا من عبارات الصوفية المشهورة على لسان كل واحد منهم : « لله طرائق على عدد الخلائق » وهى عبارة واضحة المعنى تشير الى أن طرق الوصول الى الله كثيرة جدا ولكنك تجد الكثيرين يربطون بين الوصول وبين معان بعينها ، هذه المعانى قد لا يستطيعون اقامة الدليل على اعتمادها فى السنة الثابتة أصلا فكيف يعلق أمر الوصول الى الله وهو من أهم الأمور الشرعية على الاطلاق بقضايا لم تكن النصوص فيها واضحة وضوحا كاملا تدل على مفاهيم بعض من هؤلاء للامور الآنفة الذكر ، ولذلك أجدنى مضطرا لعرض قضية السير الى الله عز وجل مرة ومرة بشكل ثم بآخر ليتضح الأمر فى هذا الشأن وليتجنب المسلم الأغاليط ، وأهم من هذا كله ليأخذ حظه من السير الى الله على بصيرة ۰

ان كثيرين من النـاس ربطوا بين التصوف والألغاز وجعلوه مليئـا بالأسرار فضخموا وأوهموا حتى أصبح التصوف علما على الشىء الذى لا يمكن فهمه أصلا ، وجعلوا التصوف شيئا خاصا بطبقة من الناس وهو فى أصله ومضمونه مطالب به كل الناس ، فهل كان واحد من الصحابة الا وله سيره الخالص الى الله عز وجل ؟ وهل الصحابة الا قدوة الخلق فى كل شىء ؟ ولمـاذا الدعاوى والتبجحات ؟

هذا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو الذى تمر عليه أكثر الطرق الصوفية على شك فى ذلك ، عندما سأله بعضهم : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء ؟ قال : لا الا فهما أوتيه عبد من كتاب الله وما فى هذه الصحيفة ولم يكن فى الصحيفة الا بعض الأحكام الشرعية ۰

هذا هو الأمر : الانسان كلما صفا حاله مع الله ، دق فهمه عن الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم • انى أريد أن أرجع فى التصوف الى أصوله الصحيحة ليكون زادا للجميع ثم لكل انسان سقفه وفهمه وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بمعـان ولكنها ليست من قبيل التكليف العام للامة ثم ان تفسير هذه المعانى معروف ، فلا يجوز لأحد أن يحملها على ما ينقض الشريعة • لقد خص حذيفة رضى الله عنه بتعريفه على المنافقين ، وسر ذلك واضح وهو أن يوجد فى جيل الصحابة من يضع الأمور فى مواضعها اذا أصبح لواحد من المنافقين وضع ما يمكن أن يؤثر على المجتمع الاسلامى ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : أخذت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين ، جرابا بثثته بينكم ، وجرابا لو ذكرته لقطع منى هذا الحلقوم » (رواه البخارى) والجراب الثانى لمح عنه أبو هريرة عندما كان يقول : أعوذ بالله أن تدركنى سنة ستين وامرة الصبيان وقد تبين بعد ذلك أنه يعنى امرة يزيد بن معـاوية ، واذن فالأمر مرتبط بقضية أحـداث سـياسية معينة ستجرى على هـذه الأمة لانه لو تكلم بها لقتل بسبب ما سيتركه كلامه من اثار ، ثم لو كان ما عنـد أبى هريرة مما كلفت به الأمة لأظهره ، ثم لا يصلح كلامه منكئا لأى انسان يدعى أن هذا الذى خص به هو من نوع كذا وكذا مما لا يتفق مع أصل شرعى ، اذ فى هذه الحالة يستطيع كل مدع ، وكل عدو للاسلام ، وكل زنديق ، وكل باطنى أن يدعى أن ما هو فيه وما يدعو اليه هو من مثل هذا الجراب : هذا كلام ساقط لا تقوم به حجة • ليس هناك فى الاسلام ظاهر ينقض باطنا ولا باطن ينقض ظاهرا ومن ادعى ذلك فانه كافر باجماع المسلمين ((**قل هذه سبيلى أدعوا الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين**))(١) « وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء » (رواه ابن ماجه) ، بحجة الأسرار صار لكل قضية رموزها ، وبحجة معرفة أسرار الذات الالهية ، طرح بعضهم قضية وحدة الوجود حتى أصبح المسلم عند هؤلاء اذا لم يقل بها لا يكون عارفا بالله ، ونجد بعضهم يراوغ فى هذا الشأن فان جاءه متشرع فسرها له بشكل وان جاءه مستسلم فسرها له بشكل آخر ، ونحن لا نحاسب الناس على نياتهم ولكن نحاسبهم على أقوالهم • قال بعض الصوفية :

وما الكون فى التمثال الا كثلجة وأنت لهـا المـاء الذى هو نابع
فمـا الثلج فى تمثـالنا غير مائه وغيران فى حكم قضـته الشرائع

ماذا يفهم الفاهم من هذين البيتين سوى أن هذا الكون هو الذات الالهية بعينها ولكنها تكثفت فصارت كونا ، كالمـاء تكثف فصار ثلجا ، فالشرائع

(١) يوسف : ١٠٨

تقول : ان الثلج غير المـاء أى أن الكون غير المكون ولكن صاحب هذا القول يقول : ان الثلج هو المـاء وبالتالى الكون هو الله أو هو جزء من الذات الالهية تكثف ٠

وعبر بعضهم عن هذا الموضوع بالمثالى التالى : ان هذا الكون بالنسبة للذات الالهية كله كموج البحر فلا هو عين البحر وليس غيره ٠ ونقول : ان موج البحر هو جزء من البحر ٠

لهؤلاء نقول : أفهمونا قوله تعالى : ((**وجعلوا له من عباده جزءا ، ان الانسان لكفور مبين**))(١) ما المراد بهذا ؟ أليست هذه الآية واضحة فى الانكار على من جعل لله تعالى جزءا وأن من جعل ذلك كافر بين الكفر ٠٠٠ فهل الأسرار المدعاة فى التصوف نتيجتها أن نضل كما ضلت أمم سابقة ؟ نعوذ بالله من ذلك ٠

نحن نعلم أن هناك حالات للسالك يحس فيها بأحدية الذات الالهية ويستشعر فيها اسم الله الصمد وهى حالة يستشعر فيها السالك فناء كل شىء ولكن هذا الشعور لا بد أن يرافقه الاعتقاد بأن الله خالق وأن هناك مخلوقا وأن الخالق غير المخلوق ٠ ان التصوف هو تذوق العقيدة لا تقريرها بما يخالف النصوص والفهم الصحيح لها ولا يفوتنا ههنا أن نقول ان هناك ناسا يؤولون مثل هذا الكلام الذى ذكرناه تأويلات يتفق ظاهرها مع شرع الله ، وقد سمعنا بعض شيوخنا يحمل البيتين على محمل مقبول شرعا ، أمثال هؤلاء الناس نحاسبهم على أقوالهم ونكل نياتهم الى الله عز وجل ، فاذا كانت أقوالهم فى هذا الشأن كاعتقادهم فيه فنرجو لهم السلامة والا فنصوص الكتاب ظاهرة فى الحكم عليهم ٠٠٠

ان التصوف علم يحتاجه كل الناس ويسع كل الناس وقد يدق فهم بعض السالكين لبعض النصوص وقد يفهم بعض السالكين الى الله من معانى النصوص ما لا يشعر به الآخرون وكل ذلك لا غبار عليه اذا لم ينقض نصا أو يخالف نصا أو اجماعا ، غير أنا نرى كثيرا من الكلام عند طبقات من الصوفية لا نرى له مثيلا فى عصر الصحابة ، ولا فى عصر التابعين ، ولا فى عصر تابعى التابعين ، ويخالف النصوص ويخالف الاجماع ٠ ثم بعد ذلك يقدم التصوف للامة على أنه هو هذا ويريد أصحابه هؤلاء من الأمة أن تسلم لهم بذلك ومن لم يسلم يا ويله من الالسنة الحداد والقلوب المنكرة ٠٠٠ لهؤلاء نقول

---

(١) الزخرف : ١٥.

على رسلكم : ان الله حد حدودا وأنزل شرائع ونصوصا هى الفيصل بين الحق والباطل وهى وحدها الحكم والميزان وما سوى ذلك ضلال وأوهام ٠٠٠

على ضوء ما ذكرناه مناعتبارنا أن التصوف هذا شأنه سنعرض قضية السير الى الله غير أننا نحب أن ننبه الى أننا ونحن نحاول أن نفهم التصوف علما للجميع ونرسم ملامح للطريق تسع الجميع ، أن علينا أن نتأنى فى الحكم ٠٠٠ فقد نقل عن كثير من أئمة التصوف بعض المعانى وكثير منها يمكن أن يكون له وجهه الفقهى والعلمى والشرعى ومن ثم فعلينا أن نتأنى فى الحكم على ما نقرأه من كتبهم وما نسمعه من أقوالهم وما نراه فيمن حولنا ، علينا أن نتأنى فى الحكم ليكون حكمنا على بصيرة ، فاذا اطمأننا الى أن حكمنا على قضية ما حكم صحيح شرعا ، وأن ما حكمنا عليه أنه خطأ لا يحتمل غير ذلك فلا ينبغى عندئذ أن نتردد فى الحكم على أننا فى هذه الرسالة سنضع كثيرا من الأمور فى نصابها بحيث يتضح وجه الخطأ أو الصواب فى كثير من الأمور مما له علاقة فى التصوف وأهله ولنبدأ بالمقصود :

ان ركنى السير الى الله اللذين يستحيل سير بدونهما هما العلم والذكر فلا سير الى الله بدون علم ولا سير الى الله بدون ذكر ، فالعلم هو الذى يوضح الطريق والذكر هو زاد الطريق وأداة الترقى قال عليه الصلاة والسلام « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه أو عالما ومتعلما » (رواه ابن ماجه وهو صحيح) ، نحن بحاجة الى العلم لنعرف الأوامر الالهية ، ولنعرف حكمتها فننفذ الأوامر ونحقق الحكمة ، ونحن بحاجة الى الذكر ليكون الله معنا فى سيرنا اليه ، يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى « وأنا معه اذا ذكرنى » (متفق عليه) وسترى قضية الذكر وأهميتها فى السير الى الله بشكل واضح فى تفصيلات تأتى ٠ فركنا السير الى الله علم وذكر ويستحيل أن يكون سير الا بذلك ، غير أن السلاك على نوعين :

نوع غلب عليه الذكر مع أخذه حظه من العلم ونوع غلب عليه العلم مع أخذه حظه من الذكر وكل واحد منهما واصل فى النهاية باذن الله عز وجل ، ولا شك أن العلم المراد منه هو العلم بالكتاب والسنة وما يحتاجه السالك فى سيره قبل أى شىء آخر ، وأن المراد بالذكر هو الذكر المأثور أو المندوب اليه الداخل ضمن أوامر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فى باب الذكر ٠٠

ان الناس بشكل عام نوعان ، نوع رغبته فى العلم كبيرة وقدرته على العلم موجودة ونوع قدرته على العلم محدودة وطاقته على العبادة والعمل والذكر كبيرة فهذا طريقه الاكثار من الذكر ولا بد له من العلم ، ولقد قال ابن البنا السرقسطى « والقوم فى هذا على فرقين ، وحكمهم فيه على ضربين :

الفرقة الأولى :

« ففرقة طريقهم مبنية　　على العقائد وحسن النية »

وهذا يقتضى علما وحسن توجه الى الله ٠

« قالوا فان النفس كالمرآة　　ينطبع الماضى بها والآتى »

أى مما هو مستقر فى أصل الخلقة للروح من معرفة الله والعبودية له والتسليم لأمره ماضيا وحاضرا ومستقبلا (وانما يعوقها أشياء) أى يعوق الروح عن أصل معرفتها أشياء هى « ترك المحاذاة أو الصداء » أى يعوقها عن معرفتها وعبوديتها اما غفلتها أو الصدأ المتراكم عليها بسبب الذنوب أو الغفلة ، واذا كان الأمر كذلك ، فالعلاج هو ازالة الصدأ بحسن التوجه الى الله عز وجل وذلك لا يتم الا بذكر « قالوا وان العين قد تغور » أى يذهب ماؤها والمراد بالعين هنا أصل الفطرة « وانما يخرجها الحفير » أى يرجع الماء فى العين بعد نضوبه الحفر وذلك عن طريق الذكر « وهذه طريقة الاشراق » أى هذا النوع من السير الى الله يسمى طريق الاشراق ٠ قال ابن عجيبة وتسمى طريقة الجلاء والتصفية لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر بتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، أقول وهذا كله لا يتم الى بعلم وذكر « كانت وتبقى ما الوجود باقى » فهى طريقة فى السير الى الله مستمرة لأن كثيرين يسهل عليهم بعد أخذ حظهم من العلم أن يستغرقوا فى الذكر والعبادة ٠

الفرقة الثانية :

« وفرقة قالت بأن العلما　　من خارج بالاكتساب أسمى »

أى أرفع وأعظم فهذه طريقة الأصل فيها العلم ولا بد من الذكر « وشرطوا العلوم فى اصطلاحه » أى فى اصطلاح هذا النوع من السير « اذ لا غنى للباب عن مفتاحه » فالعلم هو مفتاح الوصول الى الله عز وجل ولكن أى نوع من العلم ؟

« فليس للطامع فيه مطمع　　ما لم تكن فيه علوم أربع »

فهذه العلوم مع الذكر هى شرط الوصول وقد حددها « وهى علوم الذات والصفات » أى معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه « والفقه والحديث والحالات» أى وعلم الفقه وعلم الحديث أى والقرآن ثم علم الأحوال والمقامات والمنازلات ومخادع النفوس ومكايدها وما يجرى مجرى ذلك « وهذه طريقة البرهان » أى هذا النوع من السير ، سير قائم على الدليل التفصيلى فى كل قضية « وهى لكل

حازم يقظان » أن كلا من الطريقتين لا بد له من علم وعمل ، وأول العمل الذكر ، ولكن كما قلنا من قبل • طريقة : العلم فيها له المقام الأول من حيث نسبة العمل وللذكر المقام الثانى ، وطريقة : الذكر فيها له المقام الأول من حيث نسبة ما يقضى فيه من الوقت ، وللعلم المقام الثانى فلا بد فى كل من الطريقتين من علم وعمل ، ولذلك يقول ابن البنا نفسه :

« اذا الطريق العلم ثم العمل ثم هبات بعدها تؤمل »

وانما قيدنا الأولية فى الطريقين من حيث نسبة ما يعطى لكل منهما من الوقت لأن الأولية المطلقة فى كل من الطريقتين للعلم لأن العلم هو الامام ولذلك قالوا :

« وكل من بغير علم يعمل أعماله مردودة لا تقبل »

فالعلم هو البداية لكل أنواع السلاك الى الله عز وجل ولذلك قال : ابن البنا : « فان أتى القوم أخو فتون » ، الفتون كما قال فى مختار الصحاح هو الافتتان ، أى اذاجاء الشيوخ انسان مفتتن بما يقطع عن الله وبما يشغل القلب عنه من ذنب وغيره « وقال يا قوم أتقبلونى » « تقبلوه صادقا أو كاذبا » فذلك أدبهم مع الله ، قال تعالى **« واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم • وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين »**(١) ولذلك قال « اذ كان محتوما عليهم واجبا » ، أى أن يقبلوا كل من جاءهم ثم بين بماذا يأمرونه ابتداء فقال : « وحذروه من ركوب الاثم وأمروه باقتباس العلم » لاحظ قضية العلم كبداية « وأمروه بلزوم الطاعة والملاء والقبلة والجماعة » « وقرروا فيه شروط التوبة وأمروه بلزوم الصحبة » « ثم أمدوه بعلم ظاهر » ، لاحظ قضية العلم « حتى استقامت عنده السرائر » ••

ان ركنى الطريق كما قلنا علم وذكر ، ولا بد من تحديد لقضية العلم ومن تحديد لقضية الذكر ، فكل انسان يطالب من العلم بقدر حاله وبقدر احتياجه ، وهو موضوع يختلف باختلاف الناس والبيئات واختلاف العصور ، فهناك قضايا يطالب بها كل انسان ، وقضايا يطالب بها انسان دون انسان ، لم يكن الصحابى مثلا بحاجة الى أن يتعلم علوم اللغة العربية لأنه يفهمها ويتكلمها على السليقة ، ولم يكن بحاجة الى علم تجويد لأنه يتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن كما أنزل ويؤديه كذلك ، وكثير من الشبه والبدع وأنواع من الكفريات وزخارفها لا يصادفها جيل ويصادفها جيل آخر ،

---

(١) الأنعام : ٥٤ ، ٥٥

أو لا يصادفها انسان فى مكان ويصادفها انسان فى مكان آخر ، وكثير من الأمور يطالب بها جيل ولا يطالب بها جيل آخر ، فمثلا لا يطالب جيل يعيش فى ظل دولة اسلامية بالعمل لاقامة دولة اسلامية ولا بالعلوم اللازمة لذلك ، ولكن جيلا فقد الدولة الاسلامية مثلا ولم يعد يعيش فى قطر كلمة الله هى العليـا فيه ، مثل هذا الجيل بحاجة الى أن يعرف العلوم اللازمة لاقامة فريضة الله هذه ، ان قضية العلم والذكر كركنين فى السير الى الله لا بد أن تفهم فهما صحيحا ، خاصة فى عصرنا الذى غفل الناس فيه كثيرا عن فرائض وضيعوا كثيرا من طاقاتهم فى الدفاع عن قضايا ليست من باب السنن ، وهى اما من باب المباحات أو من باب البدع ، وكل ذلك لا يستأهل أن يقف المسلم المعاصر عنده طويلا ..

اذا اتضح الى حد ما موضوع العلم والذكر كركنين فى السير الى الله فقد آن لنا أن ندخل لب الموضوع بشكل أوسع ، ان لب الموضوع فى السير الى الله هو الوصول الى القلب السليم ، ففى الحديث « ان فى الجسد لمضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذ فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (رواه البخارى) ان صلاح القلب به صلاح النفس وصلاح الجسد وهو صلاح للروح ، اذ فى هذه الحالة تكون الروح فى وضعها الصحيح ، وهو نقطة البداية فى الاستقامة ، وبهذا الصلاح يكون استعداد الانسان للتلقى عن الله كاملا ، والقدرة على الخلاص من الفتنة متوفرة باذن الله ، ومن ثم فنقطة البداية الصحيحة لحياة اسلامية كاملة هى صلاح القلب واصلاحه ، والسير الى الله فى جوهره هو هذا السير فى القلب نحو صلاحه ثم الاستمرار به فى حالة الصلاح والقيام بحقوق العبودية الخالصة لله عز وجل حتى الموت ، وفى هذه الدائرة أغلاط كثيرة يقع فيها السلاك الى الله عز وجل ستتبين لنا شيئا فشيئا .

الباب الرابع

فى ماهية السير القلبى إلى الله

يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى مر معنا من قبل : «القلوب أربعة ، قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط عليه غلافه وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة ، يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلبت على الأخرى ، غلبت عليه » فى هذا الحديث : بيان لأنواع القلوب البشرية بالنسبة لقضية الايمان وواضح من الحديث أن القلب الكافر الذى ربط على غلافه والقلب المنكوس لا فائدة منهما فى قضية الايمان ، والقلب الذى فيه مثل السراج يزهر هذا هو القلب الهدف وهو القلب السليم وهو غاية سير السائرين فى عملية اصلاح القلب ، والقلب الذى هو محل العلاج هو القلب الذى لا زال فيه بقية من نور الفطرة أو هو القلب الذى فيه بقية من ايمان مثل هذا القلب هو محل العلاج ، وهو القلب الذى يفترض على أصحابه فرضا أوليا أن يسيروا فى الطريق الى صلاحه واصلاحه ، هؤلاء الفريضة الأولى فى حقهم هى السير نحو صلاح قلوبهم حتى تصل الى أن تكون القلب المؤمن العارف ولا شك أن القلب الكافر والقلب المنافق الفريضة الأولى فى حق أصحابهما هى الاسلام والايمان ولكن هذا مما لا نطمع فيه ، اذ لا محل عند هؤلاء للسماع أصلا فضلا عن الاستجابة ، قال تعالى **((انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين • وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون))**(١) واذن فالفريضة الأولى فى حق مرضى القلوب هى اصلاح قلوبهم ثم الاستمرار بها فى حالة معينة باعطائها الزاد اليومى اللازم والغذاء الذى تحتاجه ، وهى قضية تختلف من انسان لانسان ثم ملاحظتها من فترة الى أخرى بالقيام بعملية تحديد الايمان فيها وهكذا الشأن حتى الوفاة • ولن يستطيع أحد أن يحافظ على سلامة قلبه وصحته وهو مقصر فى فريضة من الفرائض أو هو مستمر

---

(١) النمل : ٨٠ ، ٨١

على منكر من المنكرات لاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرة » (أخرجه مسلم وأبو داوود) ، فأنت ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل شيئا ما ليبقى قلبه على حال معين ، ثم انه عليه الصلاة والسلام يقول : « ان الايمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الايمان فى قلوبكم» (أخرجه الطبرانى فى الكبير وأخرجه غيره وهو حديث حسن) ، ويقول عليه الصلاة والسلام « جددوا ايمانكم ·· قيل يا رسول الله كيف نجدد ايماننا قال : أكثروا من قول لا اله الا الله » (رواه الامام أحمد باسناد جيد) · انه من خلال هذه النصوص ندرك صحة ما قلناه ·· ان المرحلة الأولى هى الانتقال بالقلب من مرض الى صحة ثم المرحلة الثانية اعطاء هذا القلب الزاد اليومى والزاد اللازم كل حين ليبقى القلب محافظا على حالته الايمانية الرفيعة ويبقى هذا هو الشأن فى حق كل انسان حياته كلها حتى يلقى الله عز وجل ، قال تعالى **« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »**(١) أى الموت فان به انكشاف الأمور الغيبية على حقيقتها ·· والطريق الى اصلاح القلب العلم ثم العمل بالاسلام ، ومحل الذكر فى العمل هو الأول فهذه قضايا ثلاث · يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث : «ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا فذلك من فقه دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (أخرجه الشيخان) ، من هذا الحديث ندرك أن طبيعة القلوب تتحدد وتتبين من خلال موقفها من العلم والهدى الذى بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتلقى والعلم هو الذى به تتبين حقيقة القلوب · ان تجاوب القلوب مع الوحى أو عدم تجاوبها ، أخذها للعلم أو عدم أخذها له ، كل ذلك متوقف أولا على العلم ، فالعلم هو الأول كوسيلة للاصلاح ، لكن القلوب تتفاوت فى مواقفها وعلى كل فاذا كانت القلوب من النوع الذى يحفظ ولا ينبت أو من النوع الذى لا يحفظ ولا ينبت وكان فيها ايمان فانه لا بد من عملية اصلاحية علاجية وههنا يأتى كوضع ضرورى دور المربى والولى والمرشد أو الشيخ الكامل ·

بشكل عام ندرك من هذا الحديث أن العلم لا بد منه ، ومع العلم العمل بالاسلام كطريق لا بد منه لتتسلل أنوار الايمان شيئا فشيئا الى القلب حتى يستنير كله ، قال تعالى : **« قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »**(٢) · فالايمان لم يدخل ولكنه على وشك

---

(١) الحجر : ٩٩

(٢) الحجرات : ١٤

الدخول بسبب الاسلام وأعمال الاسلام • فكل عمل من الاسلام يفعله الانسان اذا صحت النية فيه له نوره الذى يتسلل الى القلب فاذا تصورنا الآن انسانا قلبه فيه ايمان ونفاق وتصورنا أن هذا الانسان قطع مدد النفاق عن قلبه بتركه الفسوق وأعمال الكافرين وبتركه المعاصى وتصورنا أن هذا الانسان أقبل بهمة ونشاط على أعمال الاسلام من صلاة وزكاة وصوم وجهاد وذكر وقراءة قرآن وغير ذلك ، مثل هذا الانسان لا يلبث بعد فترة حتى يستنير قلبه ويصل بسرعة الى القلب المؤمن الذى فيه مثل السراج يزهر ، والفرائض كلها لا بد منها كطريق فى عملية الاصلاح هذه ومن الفرائض الصلاة وهى ذكر ولكن باب الذكر أوسع ، والذكر فى قضية القلوب له المكان الرفيع ، قال تعالى : ((**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**))(١) ولكن الوصول الى الحالة التى يعطى الذكر فيها القلب اطمئنانا يعتبر وضعا متقدما فى السير الايمانى ولذلك جاء قوله تعالى : ((**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب**)) ••• والفلسفة الكثيرة فى هذا المقام لا تغنى شيئا عن العمل الكثير • انه بقدر الهمة على العلم وعلى العمل وخاصة الذكر يستطيع الانسان أن يقطع مراحل كبيرة ، ولحكمة ما نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد كلفوا بالآيات الأولى من سورة المزمل سنة كاملة : ((**يا أيها المزمل • قم الليل الا قليلا • نصفه أو انقص منه قليلا • أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا • انا سنلقى عليك قولا ثقيلا • ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا • ان لك فى النهار سبحا طويلا • واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا**))(٢) • أن يقبل المسلم على صلاته فريضة ونافلة وأن تكون له أوراده الكثيرة من الأذكار وقراءة القرآن مع العلم والقيام بفرائض الوقت كلها ، ان شيئا ما من هذا القبيل يختصر به المسلم سيره الى اصلاح قلبه بسرعة كبيرة وذلك بقدر ما يبذل من جهد وطاقة فالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ••• فاذا وصل الى طمأنينة القلب وحياته وتنوره بقى عليه أن يحافظ على هذه الحالة وأن يزيد نورانية قلبه وذلك بالمحافظة على حد أدنى من الأوراد المتعددة تكفى احتياجات قلبه •

وهذه الاحتياجات تختلف باختلاف الناس فالانسان المضطر لخلطة بيئات فاسدة أو كافرة تختلف حاجات قلبه عن انسان يعيش ليلا ونهارا فى بيئة المسجد وفى أجواء الصالحين • ولذلك نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب الناس الى أنواع كثيرة من الأذكار والأوراد وترك بعد الفرائض والواجبات للانسان حرية الاختيار للمندوبات وما أكثرها ثم على كل مسلم أن يلاحظ حاله القلبى فى كل فترة فيجدد ايمانه بالاقبال على كلمة التوحيد ولذلك نلاحظ أن الله عز وجل فرض علينا فرائض سنوية كالصوم والزكاة

---

(١) الرعد : ٢٨

(٢) المزمل : ١ ـ ٨

وبعضها عمرية كالحج ٠ وكل ذلك له محله فى قضية استمرارية الايمان وتجديده وحياته وصلاح القلب وفى دوائر مما ذكرناه تقع أغلاط كثيرة يرتكبها كثير من الناس فلنحاول أن نحدد بعض هذه الأغلاط من خلال عرض بعض الأمــور :

أولا : ما أمر الله عز وجل الانسان بشيء ولا نهاه عن شيء الا وفى ذلك حكمة ومصلحة للانسان ومجموعة ما فرض الله عز وجل على الانسان وشرعه له هو الذى فيه دواؤه وعلاجه ٠ فلو حدث أن الانسان عطل أمرا ما من الأوامر فلا بد أن يترتب على ذلك فساد فى نفسه وفيمن حوله ٠ هذه ناحية والناحية الثانية أنه ما من أمر ولا نهى شرعه الله عز وجل الا وفى ذلك حكمة فاذا لم يحقق الانسان الحكمة من تنفيذه الأمر يترتب على ذلك فساد فى نفسه وفساد فيمن حوله ولنضرب على ذلك أمثلة تبين المراد : فرض الله عز وجل الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والكسب الحلال وصلة الأرحام وبر الوالدين وغير ذلك من الفرائض ، وكل فريضة يخاطب بها الانسان اذا أتى بها ترتب على ذلك مصلحة لا تتحقق الا بها واذا تركها ترتبت على ذلك مفسدة لا تزول الا باقامتها ، فهذا القتال فى سبيل الله عندما يكون فريضة فيهمل يترتب على ذلك كما قال الله عز وجل : ((**فهل عسيتم ان توليتم** (أى عن اقامة فريضة القتال) **أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم**))(١) فحيث لا يكون قتال فى سبيل الله يوجد افساد وقطيعة رحم ٠ وهكذا قل فى أى فريضة تعطل أو أى حرام يرتكب لا بد أن يترتب على ذلك فساد ، قال تعالى : ((**فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء**))(٢) ثم كل فريضة شرعها الله عز وجل انما شرعها لحكمة ، فهذه الصلاة قال الله عز وجل فيها : ((**ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**))(٣) وقال تعالى فيها : ((**وأقم الصلاة لذكرى**))(٤) فعندما يؤدى الانسان الصلاة ولكنه يكون فيها غافلا عن ذكر الله ولا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر لا يكون قد أدى حكمة الصلاة ، وقل مثل ذلك فى كل فريضة ٠ فهذا الصوم شرعه الله عز وجل كطريق موصل للتقوى وضبط النفس ، قال تعالى : ((**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**))(٥) ويقول عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » (رواه البخارى) فلو أن انسان صام ولم يحقق حكمة الله التى من أجلها شرع الصوم لا يكون قد أقام الفريضة حق القيام ومن ثم ندرك أن المربين الذين لا يربون على أن يحقق المسلم الحكمة التى من أجلها كان الأمر والنهى هؤلاء مقصرون ولا يمكن

---

(١) محمد : ٢٢
(٢) المـائدة : ١٤
(٣) العنكبوت : ٤٥
(٤) طه : ١٤
(٥) البقرة : ١٨٣

أن تستقيم مع تقصيرهم نفس الانسان ولا حياة الناس • وفى موضوعنا الذى نحن فيه لا يمكن أن يتم صلاح للقلب البشرى أصلا بهذا التفريط ••• وفى اغفال هذه القضية تكمن أهم أغلاط بعض المتصدرين للتوجيه والتربية من الصوفية وغيرهم ومن ثم فلا تصلح على يدهم القلوب ولو ادعوا فى ذلك الدعاوى العريضة وخدعوا بذلك أنفسهم ومريديهم والمسلمين ••• أن يكون للمسلم موقف من كل شيء سلبا أو ايجابا هذا واجب وقته فهو ضد الكفر وأهله ونظامه ومع الاسلام وأهله ونظامه •• أن يعطى المسلم ولاءه للمسلمين ويحجبه عن الكافرين ••• أن يعمل المسلم من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وذلك لا يكون الا اذا كان الاسلام حاكما والمسلمون حاكمين •• هذه كلها فرائض فعندما تجد مربيا يربى على تعطيلها بل على محاربة أهلها فكيف يستقيم قلب الانسان على مثل هذا التضليل ••• ان هؤلاء لا تصلح بهم القلوب بل تفسد بهم العقول والقلوب والأرواح والأجساد والفرد والمجتمع والانسانية ••• هؤلاء ليست قلوبهم ربانية ولا محمدية ••• هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حياد فى الصراع بين الكفر والاسلام ؟ هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمحون لأنفسهم أن يروا الكفر البواح وهم لا يعملون على انهائه ؟ ماذا فعل أبو بكر للردة ؟ والآن هذه الردة مستشرية فى كل مكان وكأن الدنيا عند بعض الناس فى غاية الاسلام ••• ولو أن هؤلاء اقتصروا على موقف العاجز واعترافه لهان الخطب ولكنهم مع عجزهم يربون على العجز ويفلسفون له ويحاربون من يتحملون فى الله عبء الصراع مع الكفر وأهله وما أقساه من صراع ••• انهم فى هذا لا يخرجون عن كونهم نماذج تنطبق عليهم الى حد كبير أو قليل هذه الآيات : ((**وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا • ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما**))(١) ((**قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم : هلم الينا ، ولا يأتون البأس الا قليلا • أشحة عليكم ، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا**))(٢) ان من لم يفهم قضية صلاح القلب فى الاطار الذى ذكرناه من أنه التطبيق الكامل للفرائض مع التحقق بالحكم التى شرعها الله عز وجل ••• ان من لم يفهم المسألة كذلك فانه يكون على غلط عظيم فى فهم قضية القلب السليم •

ثانيا : ومن مظاهر الغلط الرئيسية التى يقع فيها بعض ممن يتصدرون لعملية اصلاح القلوب من الصوفية والعلماء وغيرهم • أن الكثير منهم تغيب

---

(١) النساء : ٧٢ ، ٧٣ (٢) الأحزاب : ١٨ ، ١٩

عنه أن من شروط صلاح القلب أو اصلاحه التخلى عن معان ، كما أن من شروط ذلك التحقق بمعان • فالذكر بأنواعه وأعمال الاسلام بأنواعها ، كلها قضايا ذات صلة باصلاح القلب وعدم التفريط بالقيام بحق الأمر والنهى شرط لصلاح القلب واصلاحه •

وفى هذا المقام يقع بعض الناس فى غفلة عن البديهيات ولتوضيح هذا المقام فلنستعرض بعض المعانى • قال تعالى : ((**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**))(١) فههنا مرض يستحيل معه شفاء القلب والعلة الرئيسية ههنا هى وجود الانسان الذى عنده استعداد لسماع الأكاذيب وعنده استعداد للتجسس على المسلمين لحساب الكافرين ((**سماعون للكذب**)) وما أكثر الذين يسمعون الاشاعات الكاذبة ويصدقونها فى المسلمين ((**سماعون لقوم آخرين**)) وما أكثر الذين يتطوعون فى نقل أخبار المؤمنين للكافرين •• من هذا المثال ندرك أن قضية صلاح القلب لها شروطها السلبية كما أن لها شروطها الايجابية ولكن القليلين هم الذين يدركون ذلك •

(ب) قال تعالى : ((**ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ، وقال الله انى معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل • فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية**))(٢) لاحظ أن قسوة القلب ههنا كانت عقوبة على نقض الميثاق فى معان بعينها ، فما هى هذه المعانى ؟ اقام الصلاة وايتاء الزكاة والايمان بالرسل ونصرتهم واقراض الله قرضا حسنا ، والآن لاحظ أن الله عز وجل جعل قول المسلم : سمعنا وأطعنا عهدا وميثاقا ••• قال تعالى : ((**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا**))(٣) والآن فلنسائل أنفسنا أى شىء أخذ العهد به على بنى اسرائيل فى هذه الآية لم يؤخذ علينا ؟ من صلاة أو زكاة أو ايمان بالرسل أو نصرة لهم أو اقراض لله عز وجل ، قال تعالى : ((**انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا • وداعيا الى الله باذنه**

---

(١) المائدة : ٤١
(٢) المائدة : ١٢ ، ١٣
(٣) المائدة : ٧

وسراجا منيرا »(١) ، **« انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا • لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه »**(١) ، فلو أن المشتغلين فى صلاح القلوب لم يلاحظوا مثل هذا فأهملوا شيئا منه كنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصرة شريعته ونصرة سنته ونصرة دينه ونصرة حملة شريعته فكيف يتم صلاح القلب والحالة هكذا ••• ومن هذا المثال ندرك كذلك أن قضية صلاح القلب لها شروطها السلبية والايجابية • ولعله من هذا المثال والذى قبله نعلم أن من الشروط الأولى لصلاح القلب الانتماء الصحيح لجماعة المسلمين الحقيقية والاخلاص لها وفيها ومحاربة أعداء الله معها بدلا من أن نكون عونا لهم وجواسيس عليها ، ان الانتماء لجماعة المسلمين المتمثلة بالحق وأهله هو الطريق الصحيح لنصرة الرسل عليهم الصلاة والسلام ولذلك فلا صلاح للقلب اذ لم يتم الانتماء ، يقول عليه الصلاة والسلام : « **أن تلزم جماعة** المسلمين وامامهم » (رواه البخارى) ، والجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك ، هذا ما فسرها به ابن مسعود رضى الله عنه ••• فأن نجد ناسا يحاربون التجمع على الحق ونصرته فذلك خطأ وضلال وأنى يكون مع ذلك صلاح قلوب ؟ اعتبر بعضهم حسن البنا رحمه الله مخطئا لأنه تدخل فى السياسة وكان المسلم بالخيار ••• وكل الاتجاهات الكافرة تتجمع لتصل الى الحكم لتحقق أهدافها الكافرة التى بها القضاء على الاسلام ••• كأن المسلم فى الخيار والشأن كذلك أن لا يتجمع على الاسلام لينصره ويحول دون القضاء عليه ، كأن هؤلاء لم يفهموا من الاسلام أبدا بديهياته التى تقول : بأن كلمة الله يجب أن تكون العليا وأن على المسلم أن يسير فى طريق ذلك ، وكيف تكون كلمة الله هى العليا اذا لم يعمل المسلمون لذلك بطريق ذلك ؟ كل اتجاه كافر يعمل للوصول الى الحكم فى عصر أصبح الحكم يتدخل فى الصغيرة والكبيرة ، فالى من نوكل بقاء الاسلام واستمراره بعد أن كلفنا الله بذلك بقوله تعالى : **« ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض »**(٣) وقال : **« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم »**(٤) أم نريد أن نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى : **« فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون »**(٥) ان اصلاح القلب هو احدى مهمات الرسل الأساسية فاذا تصدر لها من يريد أن يتصدروا لمقام الأنبياء دون دفع ثمن ذلك فيافداحة الكارثة ، قال تعالى : **« وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير »**(٦) وفى قراءة ورش : **« وكأين من نبى قتل معه ربيون كثير »** واذن فكثير من الرسل قتلوا ••• ولقد رأيت ممن يدعون أنهم يسيرون فى طريق اصلاح القلوب من يعتبرون القتل علامة على عدم الكمال فهل هؤلاء

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ (٢) الفتح : ٨ ، ٩

(٣) محمد : ٥ (٤) محمد : ٣١

(٥) المائدة : ٢٤ (٦) آل عمران : ١٤٦

يعقلون ؟ هذا عمر قتل ٠٠ وهذا عثمان قتل ، وهذا على قتل ، وهذا طلحة قتل وهذا الزبير قتل ، فهلهؤلاء لم يكملوا والقاعدون عن الجهاد هم الكمل ؟ أهذه تربية للقلوب أم افساد لها ؟ نعوذ بالله أن نضل أو نضل ، يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه الامام أحمد : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » ويقول : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم فان القلب القاسى بعيد من الله » (رواه مالك) وقال تعالى عن أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم والذين مر ذكرهم معنا فى هذه الفقرة « سماعون للكذب أكالون للسحت »(١) أى للحرام والرشا ٠ هذه النصوص وأمثالها تدلنا على كثرة الشروط السلبية والايجابية لصلاح القلب من بعد عن اللقمة الحرام وبعد عن الكلمة الزائدة وغير ذلك وكثيرون من الذين يشتغلون فى تربية الناس لا يفطنون لمثل هذا ٠

ثالثا : لا يصل القلب الى أن يكون مؤمنا خالص الايمان فيه مثل السراج يزهر ، الا اذا وصل الى معرفة الله معرفة ذوقية قلبية صافية والانسان بقدر معرفته بالله ، يزداد خضوعا لأحكامه وتطبيقا لها والتزاما بها وأخذا بقوة لها مهما ترتب على ذلك من خرق عادات أو ضغط مجتمع أو انحراف سلطة ٠ فالتلقى الكامل عن الله والعمل بشريعته وأخذ كتابه بقوة ذلك مقتضى صلاح القلب ، قال تعالى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة »(٢) « واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم »(٣) وقال الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ٠ انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا »(٤) هذا كله يشير الى أن الوصول الى القلب العارف هو مقدمة التلقى الكامل عن الله عز وجل ومن هنا نفهم خطأ الذين يتصورون أن السير الى معرفة الله لا يتطلب أخذ الأحكام ثم يتصورون أنه اذا وصل الانسان الى المعرفة فلا عليه لو فرط فى الأحكام ٠ وهذا هو محل الخطأ الكبير عند الكثير من الناس ٠ هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر خلق الله معرفة لله وأكثرهم جهادا فى سبيله وأكثرهم التزاما بأحكام شريعته فأين هذا النفس الآن عند الذين يشتغلون فى قضايا القلوب « لا بد من وضع الأمور فى مواضعها فى هذه الشؤون كلها » مما ذكره صاحب الرسالة القشيرية عن اثنين من كبار الصوفية كانا فى قتال أهل الكفر فالتفت أحدهما الى الآخر يقول : أتحس الآن بمتعة كتلك التى شعرت بها ليلة عرسك ؟ ثم قال : أما أنا فكذلك ، فانظر بالله عليك حال هذا الصنف من الصوفية الذين يجددون فى القلب تذكر حال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان أحدهم يرى أحلى أيامه يوم جهاد

---

(١) المائدة : ٤٢
(٢) مريم : ١٢
(٣) الزمر : ٥٥
(٤) الجاثية : ١٨ ، ١٩

كما قال خالد رضى الله عنه : « ما ليلة يهدى الى فيها عروس أنا لها محب فى يوم شديد زمهريره أحب الى من أن أكون على رأس كتيبة من المهاجرين أصبح قوما أو أمسيهم » وقارن بين هذا الحال وحال الذين ألفوا الدعة والمتعة فى أشد عصر وأصعبه يمر على الاسلام والمسلمين ، وباختصار نقول : ان السير القلبى يعنى الوصول الى الايمان الخالص ومعرفة الله الكاملة ؛ وأن لذلك طريقه السلبى والايجابى وأن ذلك كله هو مقدمة الأخذ الكامل القوى لشريعة الله عز وجل واقامة أحكامه وجعل كلمة الله هى العليا ٠

وفيما بين البداية والنهاية يوجد قصور وتقصير وأغلاط واهمال ، ونسأل الله أن يلهمنا الحق وأن يجعلنا من العاملين ٠

الباب الخامس

فى الأوراد والواردات
وفى أجواء آيات المشكاة

قال تعالى : ((**الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم • فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال • رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار • ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب**))(1) ان فهم هذه الآيات من أعظم العون على فهم قضية القلوب وقضية السير الى الله عز وجل ولذلك سنحاول أن نتفهمها من خلال أقصى ما نستطيع من عرض مبسط لها •

فى الآية مثل : أحد أجزائه المشكاة والمصباح والزجاجة •

المشكاة : هى الكوة غير النافذة فى الجدار ، والمصباح هو السراج ، والزجاجة هى القنديل الذى يحوى السراج المنير •

هذه الأجزاء الثلاثة فى المثل ماذا تقابل ؟ انها تقابل فى الانسان المؤمن ثلاثة أشياء ، جسده وقلبه والنور الموجود فى هذا القلب ، فالجسد يقابله المشكاة ، والقلب يقابله الزجاجة والنور يقابله السراج الموجود فى قلب الزجاجة ودليلنا على ما ذهبنا اليه من أن جسد المؤمن يقابل المشكاة وأن قلبه يقابل الزجاجة وأن النور الموجود فى قلبه يقابل السراج الموجود فى قلب الزجاجة ، ما قاله ابن كثير : وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس

---

(1) النور : ٣٥ ـ ٣٨

عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى : ((**الله نور السموات والأرض ، مثل نوره**)) قال هو المؤمن الذى جعل الله الايمان والقرآن فى صدره فضرب الله مثله فقال : ((**الله نور السموات والأرض**)) فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، قال : فكان أبى بن كعب يقرأها : « مثل نور من آمن به » فهو المؤمن جعل الايمان والقرآن فى صدره ، وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس أنه قرأها كذلك : « مثل نور من آمن بالله » من هذا النقل ندرك أن ما اتجهنا اليه صحيح و ((**الله نور السموات والأرض**)) بمعنى أنه هاديهما فلا هداية فى السموات والأرض الا بنوره ، جل جلاله ، ثم ضرب مثلا لهدايته الأشياء بنوره بهداية المؤمن وضرب لهذه الهداية الأمثلة العظيمة لتتبين عظمة هدايته وجلالها ، واذن فالمشكاة جسد المؤمن الذى يحوى قلبه ، والزجاجة هى قلب المؤمن الذى يحتوى نور القلب الذى به يهتدى المؤمن فيرى الأشياء على حقائقها ويسير على هدى من ربه بسبب هذا النور ، هذه هى المرحلة الأولى فى هذا المثل ، ثم تأتى المرحلة الثانية فى المثل : هذه الزجاجة التى تحتوى المصباح هى القلب الذى يحتوى النور ، شبه فى شدة نوره بالكوكب المضىء الذى يشبه الدر لفرط ضيائه وصفائه ونلاحظ هنا أنه دمج الكلام عن الزجاجة ومصباحها أى القلب ونوره بأن شبه الجميع بالكوكب الدرى فالسراج مضىء والزجاجة نفسها مضيئة لصفائها ونقائها وهذه هى المرحلة الثانية فى المثل ، ثم تأتى المرحلة الثالثة : هذا المصباح فى الزجاجة من أين يوقد ؟ من أين يستمد نوره ، كيف تستمر نورانيته ؟ أو نقول : هذا النور فى القلب أو هذا القلب المنور من أين يستمد نورانيته وما هو المدد الذى يأتيه ؟ وما هو المولد لهذا النور ؟ قال تعالى : ((**يوقد**)) أى هذا المصباح فى الزجاجة ، أى النور الموجود فى قلب المؤمن ((**من شجرة مباركة**)) أى كثيرة المنافع ((**زيتونة لا شرقية ولا غربية**)) قال النسفى : يعنى ليست من المشرق ولا من المغرب بل الوسط منهما .. » والزيتونة هنا شريعة الله عز وجل قال ابن كثير : فشبه المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى وما يشبهه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل الذى لا كدر فيه ولا انحراف ، لاحظ قول ابن كثير : « والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق » فالزيتونة هنا اذن هى شريعة الله وهى لا شرقية ولا غربية بل هى ربانية خالصة ونحن فى عصرنا ندرك معنى كون شريعة الله لا شرقية ولا غربية بشكل أوسع مما كان السابقون يدركونه بعد أن أصبح الشرق علما على الشيوعيين والغرب علما على الرأسماليين ، وهذه هى المرحلة الثالثة من المثل ، ثم تأتى المرحلة الرابعة من المثل : هذه الشجرة المباركة التى يستمد منها القلب نوره ، هذه الشريعة النافعة التى يستمد منها القلب نوره كم هو عظيم نور زيتها ؟ قال تعالى : ((**يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار**)) قال النسفى : « وصف الزيت بالصفاء والوميض وأنه لتلألئه يكاد يضىء من غير نار »

فما أعظم نورانية هذه الشريعة التى تمد نور القلب ؟ وما أعظم بالتــالى نور هذا القلب الذى يستمد نورانيته من شريعة هذه شأنها ولذلك قال تعالى : **« نور على نور »** فهذه هى المرحلة الخامسة من المثل : قال النسفى : « أى هذا النور الذى يشبه بهالحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوى النور ، وهذا لأن المصباح اذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فان الضوء ينتشر فيه والقنديل أعون شيء على زيادة الانارة وكذلك الزيت وصفاؤه » قال ابن كثير : وقال السدى فى قوله تعالى : **« نور على نور »** قال : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه • كذلك نور القرآن ونور الايمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما الا بصاحبه ، لاحظ قوله : كذلك نور القرآن ونور الايمان حين اجتمعا • وبهذا ينتهى المثل الذى ضربه الله عز وجل لتوضيح نوع هدايته وعظمها ••• ومن خلال المثل أدركنا أن العمل بشريعة الله هو الذى يمد نور الايمان بالمدد الدائم وقد رأينا كلمة السدى الأخيرة فى هذا الموضوع حيث قال : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الايمان حين اجتمعا فلا يكون واحـد منهما الا بصاحبه ، من هنا نعلم أن العمل بالقرآن هو المدد الدائم للقلب الذى به يبقى سراج القلب مشتعلا وبه يبقى الانسان مهتديا وبقدر ما يعمل الانسان بهذا القرآن يزداد نور قلبه اجتماعا واضاءة وتعكس المشكاة أى الجسد هذا النور فتضيء الطريق لصاحب النور ولغيره ••• ولنستمر فى عرض الآية ، مما مر من الآية ندرك عظيم هداية الله وندرك وضوح نوره ولكن لمـاذا يبقى نـاس على الكفر ، والجواب أن هؤلاء لا يريد الله هدايتهم ولذلك قال تعالى : **« يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم »** • أى يهدى بنور شريعته أو يهدى الله من يشاء لأهل الايمان حتى يأخذوا منهم ويهتدوا بهديهم • والآن تأتى الآية الثانية لتبين لنا أين نجد هذا النوع من الناس الذين هذا شأن قلوبهم فى النور والهداية •

قال تعالى : **« فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه »** قال النسفى : « أى كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد » ، والمشكاة هى جسد المؤمن فهذا النوع اذن من القلوب وأهلها مظنة وجوده المساجد ومن هنا ندرك أن نقطة الانطلاق فى التربية الايمانية العالية هى المساجد ••• ثم تستمر الآيات فى وصف هذا النوع من النـاس : **« يسبح له فيها »** أى فى المساجد **« بالغدو والآصال »** أى بأداء الصلاة فيها صلاة الفجر وغيرها **« رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار »** ذكرت لنا الآية ماهية الأعمال التى بها يكون المدد النورانى للقلب وهى التسبيح والذكر واقامة الصلاة وايتاء الزكاة والخوف

مما يكون فى اليوم الآخر ثم بين ربنا عز وجل بماذا سيتكرم على هؤلاء فقال :
« ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » ٠٠٠

وقبل أن نبدأ بتبيان الهدف الذى من أجله سقنا الكلام فى هذه الآيات نحب أن نسجل بعض الملاحظات استطرادا :

أولا : كتب أحد أساتذة جامعة دمشق ومعروف عنه أنه ذو فكر يسارى كتابا عن الشموع والقناديل فى الأدب العالمى وصل فى نهايته على أنه لم يسجل فى تاريخ العالم فى وصف الشموع والقناديل أبلغ مما سجلته آية :
« الله نور السموات والأرض » ٠

ثانيا : نلاحظ من الآيات أهمية التربية المسجدية وأن الانطلاقة الايمانية الصحيحة هى التى تبدأ من المسجد ، وفى الحديث : « اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان » (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وهو حديث صحيح) ٠

ثالثا : هذه الآيات ألف بعضهم الرسائل المطولة فيها ولذلك فنرجو ألا يظن أحد أننا أعطيناها حقها من البحث ٠٠٠ كل ما فى الأمر أننا ذكرنا فى تفسيرها ما يساعد على فهم ما نحن بصدده من هذه الرسالة ٠

وبعد ٠٠٠

فلماذا تحدثنا عن الآيتين اللتين صدرنا بهما هذا الباب ؟ لقد تحدثنا عن هاتين الآيتين لنعرف الصلة بين العمل فى الشريعة وبين نورانية القلب ولنعلم أن العمل فى الشريعة له وارداته على القلب وأن لكل نوع من العمل وارداته النورانية الى قلب المسلم وأن هناك أعمالا بعينها وارداتها فى المقام الأعلى ولذلك خصتها الآيات فى الذكر وهى التعلق فى المساجد وكثرة الذكر والتسبيح واقامة الصلوات وايتاء الزكوات والخوف من اليوم الآخر فمن طمع أن يكون قلبه مستنيرا دون أن يكون له أعماله وأوراده فانه لا يكون قد أتى البيوت من أبوابها ٠٠٠ ولعله من خلال ما مر أدركنا فكرة الورد والوارد التى يتحدث عنها الصوفية كثيرا ٠ ان ورد الانسان هو ما رتبه على نفسه من أنواع الطاعات والعبادات والوارد هو ما يكرم الله عز وجل به قلب الانسان من فيوضات وأنوار ومعان ، واذا أدركنا قضية الورد والوارد أدركنا ضرورة أن يكون للمسلم أوراده اليومية ، وسننقل فيما يأتى بعض عبارات ابن عطاء الله السكندرى فى قضية الورد والوارد ونعلق عليها لتتضح بعض جوانب هذا

الموضوع من خلال كلامْ الصوفية بعد ما رأينا شيئا مما تشير اليه النصوص فيه قال ابن عطاء : « تنوعت اجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال » أقول : ان الله عز وجل فرض على المسلم فرائض متنوعة وطالبه بأعمال كثيرة لأن القلب البشرى يحتاج الى أنواع من الواردات المتعددة فلكل عمل آثاره فى القلب اذا صحت النية ، وصلاح القلب بالقيام بالأعمال كلها ، فكل عمل يخلف نوعا من الأحوال فى القلب وكل حال يحتاج الى نوع من العمل الصالح حتى يكون ··· وقال ابن عطاء : « من علامات اتباع الهوى المسارعة الى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات » أقول : فى ذلك اشارة الى أن المسلم عليه ألا يفـرط فى فريضة على حساب نافلة وهى قضية يغفل عنها أكثر الخلق ، فأكثر الخلق يجهلون فرائض الوقت وما أكثرها ويستغرقون أوقاتهم بأمور هى من باب المباحات وبعضها من باب البدع ويظنون أنفسهم أنهم يحسنون صنعا ، وقال ابن عطاء : « اذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الامداد فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين فلولا وارد لـما كان ورد » يفهم من كلام الشيخ أنه متى وجد الورد فقد وجد الوارد ، أحس به صاحبه أم لم يحس ، أحس به الآخرون أو لم يحسوا وقد بين الشيخ أهمية الورد للانسان ، وأدب بعض جهلة الصوفية الذين يحتقرون أهل الأوراد اذا لم تظهر عليهم بعض المعانى وقال مؤكدا أهمية الورد : « لا يحتقر الورد الا جهول الوارد يوجد فى الدار الآخرة والورد ينطوى بانطواء هذه الدار وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده ··· ورود الامداد بحسب الاستعداد وشروق الأنوار على حسب صـفاء الأسرار » وقال : « مطالع الأنوار القلوب والأسرار ، نور مستودع فى القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيـوب ، نور يكتشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به أوصافه » فى هذه الفقرة اشارة الى أنواع من الواردات الالهية على القلب والآثار التى تتركها فيه وقال مبينا أنواعا من الأحوال لها أنواع من الواردات « ان أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة (الى الله) لديك ، تحقق بذلك يمدك بعزه وتحقق بعجزك يمدك بقدرته وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته » وقال : « قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم وقوم لا أذكار ولا أنوار نعوذ بالله من ذلك ، ذاكر ذكر ليستنير قلبه فكان ذاكرا ، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا والذى استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدى وبنوره يقتدى » وقال حاضـا أهل الذكر ألا يتركوا أورادهم بسبب بقـاء غفلة القلوب : « لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة الى ذكر مع وجـود يقظـة ، ومن ذكر مع وجـود يقظـة الى ذكر مع وجـود حضـور ، ومن ذكر مع وجـود حضـور الى ذكر مع وجـود غيبة عمـا

ســوى المذكور وما ذلك على الله بعــزيز » وقال مبينــا حكمة تعـــدد الطاعات فى الشريعة : « لمـا علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات ، وعلم منك وجود الشره فحجرها عليك فى بعض الأوقات ، كعند طلوع الشمس وكحجره علينا أن نصوم يومى العيد وأيام التشريق » وقال مبينا محل الصلاة وأهمية وارداتها : « الصلاة طهور للقلب من أدناس الذنوب واستفتاح لباب الغيوب ، الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار ، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك الى فضله فكثر أمدادها » أقول ان هذا القلب البشرى يحتاج الى أدوية وأغذية وفى الصلاة دواء وغذاء وفى الصوم دواء وغذاء وفى الذكر دواء وغذاء وفى الجهاد دواء وغذاء وفى صلة الأرحام دواء وغذاء وفى العلم دواء وغذاء وبعض الناس كالأنبياء هذا كله فى حقهم غذاء وترقيات ولعله بهذا كله أدركنا أهمية الأوراد فى حياة المسلم وفى اصلاح قلبه وفى ترقيه فلننتقل الى باب آخر ٠

الباب السادس

البداية الصحيحة فى التربية الاسلامية

بعد الايمان العقلى ، وبعد واجب الوقت ..
هى التركيز على القلب وخطورة الفشل فى اصلاحه

فى التربية الاسلامية نقطة البداية هى الايمان فقد ورد فى أكثر من أثر عن الصحابة هذا المعنى : « كنا نؤتى الايمان قبل القرآن » وقد تحدثنا فى كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقا) عن السر فى ذلك وهنا نقول باختصار : ان القرآن له خصائصه ومن خصائصه أنه لا يأخذ الانسان منه حظا الا اذا كان مؤمنا فهو لا يلامس القلوب الا اذا كانت هذه القلوب مؤمنة ولذلك قال تعالى : **« واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون »**(١) . لاحظ كيف أن السورة بالنسبة للذين فى قلوبهم مرض تحدث تأثيرا عكسيا فبدلا من أن تكون زيادة ايمان فى حقهم تكون عامل زيادة فى المرض . وعلى هذا فنحن اذا ما أردنا أن يلامس القرآن القلب البشرى ملامسة صحيحة بحيث يستفيد هذا القلب من القرآن . فان علينا أن نطبب هذا القلب أولا بأن نجعله مؤمنا خالص الايمان . وعلى هذا فأهم نقطة يركز عليها المربى منذ الابتداء هى اصلاح القلب وأى فشل فى هذا الشأن فيه دليل اما على جهل المربى أو على عدم صدق المريد أو على أن المنهج خاطىء أصلا .

ان نقطة البداية الصحيحة هى التركيز على القلب حتى تصل به الى الصحة لأنه بمثل هذا النوع من السير تطمئن على وضع الانسان وعلى خروجه من دائرة اغراء الشيطان ووسوسته وفتنته سواء كان الشيطان شيطان انس أو جن . قال تعالى : **« شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون »**(٢) .

---

(١) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ (٢) الأنعام : ١١٢ ، ١١٣

لاحظ ههنا ان الذى يصغى قلبه الى شياطين الانس والجن ويرضى هذه الوسوسة هو الانسان الذى لا يؤمن بالآخرة فاذا ما أردنا أن نخرج انسانا عن دائرة وساوس الشياطين فان علينا أن نبدأ بالقلب واصلاحه • وعندما نقول القلب فلا يعنى هذا اهمال الفكر بل من جملة ما يصلح به القلب العلم والفكر والمعرفة مع الذكر والعمل وغير ذلك مما رأيناه وسنراه فى هذه الرسـالة •••

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والأصحاب تجد ظاهرة واضحة وهى أن الصحابى اذا أسلم نجده فى بداية اسلامه فى غاية الاندفاع لدرجة الغلو حتى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأحيان كان يتدخل لارجاع بعض الأصحاب الى دائرة الاعتدال • وهذه الحالة تجدها دائما فى كل حالة صدق مع الله ، واذا توجه انسان الى الله اما بعد حياة جاهلية أو بعد قبول للفهم الحق لدين الله عز وجل ، فى هـذه المرحلة من الاندفاعة الصادقة يجب أن يكون كل جهدنا منصبا على نقل قلب الانسان من المرض الى الصحة لأننا اذا فشلنا فى ذلك فاننا نعرض هذا الانسان للانقطاع عن السير الى الله أو لترك دعوة الله أو للانحراف عن أمر الله أو باختصار فاننا نعرضه لقبول القاءات الشيطان • وما أخطرها ولتوضيح هذا المقام لا بد من فهم هذه الآيات ، قال تعالى : ((**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم • ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسـية قلوبهم ، وان الظالمين لفى شـقاق بعيد • وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم**))(١) • لاحظ فى الآيات قوله تعالى : ((**ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم**)) • فمن كان فى قلبه مرض أو كان قلبه قاسيا ، هذا الذى يفتتن بالقاء الشيطان • فاذا ما أردنا أن نجنب انسانا ما فتنة الشيطان فعلينا أن ننقل قلبه من مرضه الى صحته ومن قسوته الى خشوعه ، ثم لاحظ فى الآيات قوله تعالى : ((**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم**)) • انك تجد فى هذا النص أن العلم هو الطريق لصلاح القلب واصلاحه فأهل العلم هم الذين يخرجون من القاءات الشيطان بخشوع أكثر ويقين أعلى وايمان أرقى وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل من أن أحد ركنى السير الى الله العلم وأن الذى لا يدرك هذا خاطئ وواهم جدا ••

---

(١) الحج : ٥٢ ـ ٥٤

أسرعنا فى ذكر هاتين الملاحظتين حول الآيات استعجالا للمقصود الذى من أجله سقنا الآيات الى أن الآيات تحتاج الى وقفة أوسع فلنحاول عرضها لأن هذه الآيات من الآيات التى يكثر الاخذ والرد حول معناها ونحن فى هذه السطور القليلة سنقدم خلاصة فى شأنها لا يعثر عليها الانسان الا بمشقة **« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى »** . ماذا يتمنى الرسول أو النبى ؟ ان أمنية الرسول أو النبى انما هى فى قومه وأتباعه أن يرتفع بهم الى مقام العبودية الكاملة الى مقام الصديقية الكبرى . ان مثل هذا هو أمنية الرسول والنبى عليهم الصلاة والسلام جميعا ، فماذا يفعل الشيطان ؟ ان الشيطان فى مثل هذه الحالة يحاول أن يقطع الطريق على أمنية الرسول والنبى بالقاءاته الالقاءات الخبيثة فى قلوب محل أمنية الرسول قال تعالى : **« الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته »** . أى فى قلوب محل أمنيته وهم قومه وأتباعه وهذا الذى يدل عليه السياق فاذا ألقى الشيطان القاءاته فان من سنة الله عز وجل : **« فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم »** ان من سنة الله عز وجل ابطال القاءات الشيطان واحكام الآيات فى القلوب على مقتضى العلم والحكمة ، وقد بين الله عز وجل سنته هذه بالآيتين التاليتين فقال : **« ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض »** ، أى المنافقين **« والقاسية قلوبهم »** أى المشركين أو المرضى بقسوة القلب ولو لم يكن شركا فهؤلاء وهؤلاء هم الذين يقبلون القاءات الشيطان فيفتتنون بها . ثم قال تعالى : **« وان الظالمين لفى شقاق بعيد »** ، دلت الآية على أن مرضى القلوب وقساتها ظالمون وأنهم فى خلاف بعيد عن الحق » . ان هؤلاء هم الذين يقبلون القاءات الشيطان ثم قال تعالى : **« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم »** ، أى ان القاءات الشيطان فى قلوب أهل العلم لا يترتب عليها الا زيادة ايمان بالقرآن وزيادة خشوع للقرآن واطمئنانا به ثم قال تعالى : **« وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم »** ، أى فى الفهم والسلوك . ان القلب البشرى اذا قبل الحق اندفع فيه ثم تأتيه هجمة معاكسة من الشيطان ، هذه الهجمة اما أن يسقط فيها انسان أو يرتفع بسببها انسان . يسقط مرضى القلوب وقساتها وينجح أصحاب العلم وأصحاب القلوب السليمة والمربى الذى لا يدرك أبعاد هذه الأمور فيلاحظها ويعرف كيف يتوقعها ويتصرف أمامها ، مرب فاشل ... اذا أدركنا معنى الآيات التى مرت معنا أصبح بامكاننا أن ندرك مضمون الحديث الذى مر معنا أكثر من مرة فى هذه الرسالة : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما أشرب

من هواه » ، فالفتن تعرض على القلوب بشكل مستمر فأى قلب هو الذى ينكر هذه الفتن فلا يقبلها ؟ ان الآيات هى التى دلتنا على هذا النوع من القلوب • انه القلب السليم من المرض والقلب غير القاسى لأن القلب المريض والقلب القاسى كلاهما قابل لالقاء الشيطان ومن ثم ندرك بوضوح أن نقطة البداية الصحيحة فى التربية الاسلامية هى التركيز على القلب للوصول به الى حالة الصحة وأن كل فشل فى ذلك انما هو فشل فى الصميم فى ايجاد المسلم الحق المستقيم على أمر الله المستمر على دينه •••

ان الفشل فى اصلاح قلب الانسان يخرج لنا نماذج مرضية من البشر كل منها متعب وضال • يخرج لنا نوعا من الغلاة لا يطاقون وكلهم تعب واتعاب كالخوارج ففى الحديث الصحيح : « يخرج فى آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية • يقرأون القرآن لا يجاوز ايمانهم حناجرهم • يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » • (رواه الشيخان) • لاحظ هذا النوع من الناس : «ايمانهم لا يجاوز حناجرهم» أى لم يصل الى قلوبهم وكما يخرج لنا هذا النوع من الناس يخرج لنا أصنافا من الفساق والمنافقين والكاذبين والمرتدين حتى من أبناء المسلمين انه حيث لا قلب سليم فثم الهلاك الدنيوى والأخروى فلا تذكر بقرآن لأن القرآن يحتاج الى قلب سليم **((أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها))**(١) **((ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد))**(٢) ، وحيث لا قلب سليم فلا نجاة عند الله ولا وعظ ينفع قال تعالى : **((ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ، ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم))**(٣) **((يوم لا ينفع مال ولا بنون • الا من أتى الله بقلب سليم))**(٤) ، انه لابد من جهد متواصل فى أنفسنا للوصول الى القلب السليم ولا بد من جهد متواصل مع كل مسلم بل مع كل انسان للوصول الى القلب السليم • وعلينا أن نركز منذ الابتداء مع كل من توجه الى الله لكى نصل به الى القلب السليم تلك هى البداية الصحيحة فقط ••

ان الانسان بين أمرين : اما أن يوجه قلبه سلوكه كله أو يكون قلبه موجها بأشياء كثيرة • فالقلب عندما يكون قليل النور ضعيف الايمان أو اليقين أو عندما يكون مريضا أو قاسيا فانه فى هذه الأحوال كلها يكون موجها • النفس تتغلب عليه فنجده مستسلما أمام شهوات النفس مستسلما أمام أمراضها ، الكبر يوجه قلبه ثم ذاته ، والحسد يوجه قلبه ثم ذاته .

---

(١) محمد : ٢٤
(٢) سورة ق : ٣٧
(٣) محمد : ١٦
(٤) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩

وقل مثل ذلك فى كل مرض · والشهوة الجنسية تسيطر على قلبه فيستسلم لها وشهوة البطن تسيطر عليه فيستسلم لها ومغريات الحياة الدنيا تسيطر عليه فيستسلم لها وايحاءات الشياطين شياطين الانس والجن تسيطر عليه فتوجهه ويخضع لها ويفتتن بها · وقراراته الفعلية تكون مريضة ومتأثرة بهذه المعانى كلها · ان هذا كله بعض ما يترتب على عدم صلاح القلب أما اذا صلح القلب فانه يكون هو الموجه ، انه من ناحية يتخلص من ايحاءات الشياطين ثم هو يرفض الاستسلام لشهوات النفس وبنفس الوقت يكون هو الموجه لسلوك الانسان على ضوء شريعة الله عز وجل والفارق كبير جدا بين الحالتين حالة أن يكون القلب هو الموجه (بكسر الجيم مع تشديدها) وحالة أن يكون القلب هو الموجه (بفتح الجيم مع تشديدها) « استفت قلبك ولو أفتاك الناس وأفتوك » (رواه البخارى فى التاريخ) · ولذلك فكما قلنا ان أول ما يحرص عليه المربى هو أن ينقل القلب البشرى الى آفاقه العليا فى الايمان والنور « **أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه** »(١) ، ومن هنا ندرك أهمية الأوراد الكثيرة المتعددة للانسان فى ابتداء سيره وأهمية استغراق الانسان فى الأذكار وأهمية الاعتكافات والخلوات المليئة بالتعبد والتحنث والذكر والعلم وغير ذلك ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد الليالى ذوات العدد فى غار حراء ثم جاءه الوحى وهو هناك ، ولأمر ما واعد الله موسى عليه السلام أربعين ليلة على الجبل ، فاذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم أصفى خلق الله فطرة وأرقاهم قلوبا سيروا فى مثل هذا الطريق فما بال بقية الخلق · واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كلفوا حوالى سنة بقيام الليل الا قليلا فما ذلك الا لما تقتضيه عملية بناء أنفس ذلك الجيل العظيم « **يا أيها المزمل · قم الليل الا قليلا · نصفه أو انقص منه قليلا · أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا · انا سنلقى عليك قولا ثقيلا** »(٢) ، لاحظ الصلة بين قوله تعالى : « **انا سنلقى عليك قولا ثقيلا** » ، وبين الأمر بقيام الليل الا قليلا · ان نقطة البداية الصحيحة فى التربية الاسلامية التركيز على القلب ولكون الصوفية أول ما يبدأون يبدأون بما له صلة فى ذلك فانك تجدهم أنجح الناس فى تربية الانسان المستقيم على أمر الله وسواء فعلها الصوفية أو لم يفعلوها فان السنة النبوية والوحى الالهى قد دلانا على نقطة البداية هذه ·

انك عندما تأتى للانسان من لحظة البداية وأنت تعلمه تقول له : يا أخى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » (رواه أبو داوود) · ثم تطالب هذا الأخ بملازمة الاستغفار أياما تطول أو تقصر

---

(١) الزمر : ٢٢　　(٢) المزمل : ١ ـ ٥

على حسب حاجة قلبه • ولا يظنن ظان أن المسألة تحتاج الى مئات بل الى الآلاف وعشرات الآلاف حتى يستقر معنى الاستغفار وحقيقته فى القلب • وحتى يصبح الاستغفار خلقا للانسان ليؤدى دوره الدائم فى جلاء القلب • قال ابن كثير : وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجه من طرق ••• عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان العبد اذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب منها صقل قلبه وان زاد زادت فذلك قول الله تعـــالى : « **كلا بل ران على قلوبهـم ما كانوا يكسبون** »(١) قال الترمذى : حسن صحيح ولفظ النسائى : « ان العبد اذا أخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة سوداء فان هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فان عاد زيد فيها تعلو قلبه فهو الران الذى قال تعالى : « **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** » ، فاذا اشتغل الانسان فى الاستغفار حتى ظهرت عليه ثمراته لفت نظر الأخ الى الاقبال على الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها طريقة فضلى للوصول الى القلب المنور ، فالحديث الشريف يقول : « من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا » ، (رواه أحمد ومسلم وأبو داوود) • واذا صلى الله علينا أخرجنا من الظلمات الى النور قال تعالى : « **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور** »(٢) ، فيطلب منه أن يلازم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما طوالا وأن يكررها عشرات الآلاف حتى تؤتى ثمارها فى اصلاح القلب وتنوره والمسألة لا حد لها الا ظهور الآثار فاذا ما ظهرت ثمار ذلك فى تنور حال الأخ لفت نظره الى الحديث الشريف الذى رواه أحمـد والنسائى والحاكم : « جددوا ايمانكم ، قيل يا رسول الله كيف نجدد ايماننا ؟ قال : اكثروا من قول لا اله الا الله » فيبدأ الأخ الاستغراق بذكر لا اله الا الله أياما طوالا وبعشرات الآلاف حتى يصبح قلبه موحدا خالصـا مستنيرا استنارة كاملة وهكذا • ثم يلفت نظر الأخ الى الاستغراق بقراءة القرآن والتأمل فى معانيه فقد قال تعالى : « **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** »(٣) ، لاحظ قوله تعالى : « **وشفاء لمـا فى الصدور** » ، فيختم الختمات الكثيرة مع التـأمل والتدبر ، وخلال ذلك كله يعود نفسه على ورد دائم كورد الدعاء الذى ذكره الأستاذ البنا فى نهاية المأثورات (١٠٠) مرة استغفار (١٠٠) مرة صـلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠٠) مرة لا اله الا الله • قل هو الله أحد ثلاث مرات ، وهكذا مع ملازمة قراءة ما تيسر من القرآن وجزء فى اليوم يعتبر وردا معتدلا هذا مع شىء من قيام الليل وملازمة صلوات الجماعة واقامة السنن الرواتب وسنة الضحى وهذا كله مع العلم ان هذا كله ربما

---

(١) المطففين : ١٤ — (٢) الأحزاب : ٤٣

(٣) يونس : ٥٧

تذف فى الأخ الى قمة القلب السليم منذ الابتداء باذن الله وعندئذ فعليه أن يرتب أوراده بحيث يأخذ قلبه دواءه وغذاءه اللازمين ليبقى قلبه على استمرارية ايمانية عالية ولعله من المناسب هنا أن نقول : ان أصلح الاخوان وأقوى الاخوان ينبغى أن يتولوا أمر التربية للاخ فى بداية سيره لأن البداية المحرقة هى التى توصل الى النهاية المشرقة وفى حكم ابن عطاء : « من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة » ، والملاحظ أننا لم نقيد ما ذكرناه من الأذكار الحارقة فى المرحلة الأولى للسير بعدد معين لأن حالة الناس القلبية مختلفة واحتياجات كل واحد منهم تختلف عن احتياجات الآخر فالقلب الذى ظلمته كثيرة لا يكفيه القليل بينما قلب آخر ، اقبال قليل على الذكر قد ينقله من حال الى حال ثم ان التقيد بعدد فيما لا نص فيه قضية فيها أخذ ورد كثيران عند الناس والأستاذ البنا اكتفى بتسجيل الخلاف فى هذا الموضوع ولكنه لم يرجح شيئا ولذلك فنحن نؤثر أن يترك هذا لفراسة الأخ المربى ورؤيته احتياجات الأخ المسلم كما يترك هذا لاحساسات الأخ نفسه وبعضهم يرى السبعين ألفا لكل نوع من أنواع الذكر المطلق كافية فى مرحلة الابتداء لنقل المسلم من حالة . الى حالة خاصة فى الأذكار الثلاثة التى ذكرناها الاستغفار والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ولا اله الا الله وبعض المشتغلين بالتصوف وبعض الكاتبين فيه يعتبرون أن القفزة العالية نحو معرفة الله لا بد فيها من ذكر الاسم المفرد أى لفظ الجلالة (الله) فهم يعتبرون أن تعرف القلب على الله وصفاته وأسمائه بشكل لا يغيب فيه القلب عن الله لا بد له من ذكر الاسم المفرد ويذكرون فى ذلك حججا ويعتبرون أن ذكر هذا الاسم هو بمثابه دواء للقلب فان تذكر لفظ الجلالة (الله) بشكل مستمر فهذا طريق تعرف القلب الذوقى على الله ثم بعد ذلك تبدأ تستشعر معنى صلاتك وأورادك وهذا موضوع سنتعرض له فيما بعد وههنا نذكره لمجرد أن نجعل هذا الموضوع يطرق سمعنا من ناحية ومن أجل أن نؤكد أن معرفة الله ليس هذا شرطا فيها كما يقول هؤلاء فالايمان العالى والقلب المنور يمكن أن يصل اليه الانسان عن مثل هذا الذكر وعن طريق غيره وان كان لهذا الذكر آثاره السريعة العملية المجربة فى هذا الموضوع ...

فيما مر ركزنا على أن نقطة البداية الصحيحة هى التركيز على القلب وحتى لا يفهمنا احد فهما خاطئا نقول : ان الواجب الأول فى حق الانسان كما ذكره علماء التوحيد على خلاف بينهم فى بعض الدقائق هو المعرفة العقلية لله ثم بعد ذلك واجب الوقت وهذا لا يتناقض مع ما ذكرناه فالمعرفة العقلية ثم واجبات الوقت هى التى عن طريقها تصل الأنوار الى القلوب وتبدأ عملية اصلاح القلب وبدون هذا يستحيل سير قلبى أصلا وعلينا أن ندرك دائما أن واجب الوقت ذو معنى دقيق يغيب عن كثير من الناس فقد يدخل

الانســان فى الاســلام فى وقت ضحى مثلا ويكون فى هـذه اللحظة واجب الوقت فى حقه هو الجهاد فعليه أن يجاهد وقد يكون مدينا والجهاد فى حقه فرض عين فيصبح واجب الوقت فى حقه قضية الدين وأمر الجهاد وقد يسلم فى وقت ظهر مثلا فواجب الوقت فى حقه تعلم الطهارة وكيفية أداء الصــلاة وخاصة صــلاة الظهر وقد يكون الوقت رمضــان فواجب الوقت فى حقه الامساك عن المفطرات بقية يومه ، وقد يكون على أهبة الاقدام على معصــية فواجب الوقت يكون زائدا على ذلك هو ترك المعصية ومع هذا كله فقد يأتيه والده فى ذلك الوقت ويطلب منه مطالب مباحة فيكون من واجبــات وقته تنفيذها وقد يكون فى نفس الوقت يمارس عملا من أعمال الكســب فواجب وقته أن يعرف حكم هذا العمل شرعا ويلتزم بما ألزمه الله عز وجل . وهكذا نجد أن قضــية واجب الوقت من الأمــور المهمة جدا ونادرا ما يفطـن لها حتى من يتصدرون للعلم ولذلك يفوت خير كثير ، انك تلاحظ فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تفضيلا للجهاد على غيره أو تفضيــلا للذكر على غيره أو تفضيلا للصلاة على غيرها أو تفضيلا للحج على الجهاد وسر ذلك كما يقول العلمــاء يعـود الى مجموعة حالات . حالة يكون فيها شىء هو واجب الوقت فى حق انســان فهذا هو الأفضل فى حقه أو حالة يكون فيها شىء هو الواجب الأرقى فى لحظة على غيره أو حالة يكون فيها شىء شرط قبول أو شرطا لتحقيق حالة الاخلاص فى شىء آخر وهى قضــايا دقيقة لا يفطن لها الا فقيه حكيم ان هناك حالات أخر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عن وقتها بسبب الجهاد كما حدث يوم الخندق ، وقال لأصحابه مرة « لا يصلين أحدكم العصر الا فى بنى قريظة » ، فأنت تلاحظ من الحديث الأخير كيف أن واجب السرعة فى الحركة الجهادية كان واجب الوقت الذى تؤجل الصلاة بسببه وهو موضوع قد نبحثه فى محل آخر . وانما أشرنا اليه ههنا حتى لا يفهم فاهم ونحن نتحدث عن كون البداية الصحيحة فى التربية الاسلامية هى التركيز على القلب أننا غافلون عن الواجبات الأولى .. ولعله من خلال هذا الباب كله أدركنا مجموعة أغلاط يقع فيها الناس فى مواضيع هذا الباب منها اهمال المعرفة العقلية لله ومنها الغلط فى معرفة واجب الوقت وخاصة فى بعض مواضيع تعتبر فى عصرنا من أخطر المواضيع كواجب العمل لاقامة الحكم الاسلامى واعادة الوحدة الاسلامية والخلافة الاسلامية فهذه من واجبات العصر ومع ذلك تجد من علماء المسلمين والعياذ بالله من يعمل فى الطريق المعاكس لها من محاربة العاملين لذلك ومن موالاة الذين يعملون ليل نهار فى افساد الأموال والأعراض والقضاء على الاسلام . ومما يقع فيه الغلط ما ذكرناه فى موضوع التربية القلبية وقد رأينا ذلك كله فى هذا الباب .

الباب السابع

فى ضرورة الورد اليومى والدورات الروحية

لعله اتضح من الأبواب الأخيرة ضرورة بعض الأمور وحتى لا يبتعد العلم عن العمل فى هذا البحث وهو فى الأصل بحث علمى فاننا نحب أن نخرج بالشىء العملى بعدما عرفنا كثيرا من الأسس النظرية التى تساعدنا على فهم هذه الجوانب العملية ٠ اننا باختصار ندعو المسلم الى العلم والى أن تكون له فى حياته دورات روحية وأن تكون له أوراد يومية ولا يعجزنا أن ندرك ضرورة ذلك من خلال ما مر معنا ولكن ولزيادة التأكيد والتوضيح نذكر بعض المعانى :

(أ) العلم :

فى حديث رواه البزار والطبرانى فى الكبير باسناد رجاله رجال الصحيح عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أسلم الرجل أول ما يعلمه الصلاة ، أو قال علمه الصلاة » وفى هذا الموضوع أكثر من حديث صحيح . نلاحظ من مثل هذا النص ضرورة الفقه فيما يلزم الانسان وقد رأينا من قبل ضرورة العلم وقضية العلم وتحدثنا عنها كثيرا من هذه السلسلة سلسلة (فى البناء) فتحدثنا عن البدايات والنهايات وما بين ذلك ، ان البدء فى السير العلمى الشامل ان فى المدارسة أو فى المطالعة الشخصية أو فى التلقى أو فى حضور الحلقات العلمية الاسلامية العامة أو الخاصة شىء لابد منه ولكل قضية محاذيرها التى لا بد للمسلم أن يلاحظها وفى هذه السلسلة بمجموعها تبيان للمحاذير التى لها صلة بهذه القضايا وأشباهها وههنا نقول :

١ ــ اجعل نصب عينيك أن تصل الى ثقافة اسلامية هادفة ومبرمجة ٠ ومتكاملة بحيث لا تضيع من مهم عن أهم ولا تضيع مهما ٠

٢ ـ ستجد الكثيرين الذين يريدون أن يحجروك على صيغة معينة من فكرهم وسترى أن التحقيق ليس معهم فتأن كثيرا وتثبت كثيرا ولا تجعل التعصب يأسرك فتترك بعض الحق ولا تجعل حب الرجال مانعا لك، عن الوصول الى الحق الخالص ومعرفته فى كل قضية ٠

٣ ـ مهما درست فلا تبق بعيدا عن الكتاب والسنة ومحاولة الفهم الصحيح لنصوصهما واجعل للحفظ من الكتاب والسنة نصيبا من وقتك وجهدك ٠

٤ـ ستصادف جهلة كثيرين يثنونك عن العلم أو عن أنواع منه أو يصرفونك الى أنواع غير مفيدة منه على حساب أنواع أخرى أو يحقرون لك أبوابا من العلم لا بد منها هؤلاء لا تصغى لهم مها رأيت من صلاحهم ٠ فالصلاح شىء وأن يستحق انسان مقام الارشاد فى نفسك شىء آخر ولذلك وجد ما يسمى فى التاريخ بالمرشد الكامل الذى احدى مواصفاته أن يكون عالما بالمذاهب الأربعة قادرا على الفتوى بها وغير ذلك من المواصفات التى تؤهله لأن يعطيه انسان ما مقام الارشاد فى نفسه وهو موضوع سنعرج عليه فى هذه الرسالة ، اذا تنبهت لهذه النقاط الأربعة وسرت فى طريق العلم فانك ستصل باذن الله الى خير ٠

(ب) الدورات الروحية :

اننا ندعو المسلم الى أن تكون له دورات روحية فى حياته ما استطاع الى ذلك سبيلا وبالقدر الذى يتيسر له فان استطاع أن تكون دورته أربعين يوما فليفعل وان استطاع ثلاثة أيام أو سبعة أيام أو ثمانية أو أكثر أو أقل أو شهورا فليفعل ، فان استطاع أن يتفرغ لهذه الدورة بما لا يضيع عملا ولا واجبا كان بها والا فليفعل ما استطاع بما لا يضيع عياله ولا عمله الذى يكسب منه قوته ولا واجباته اليومية ، وان استطاع أن يربط بين الدورة وبين بعض الشهور كرمضان أو الأشهر الحرم أو العشر الأول من ذى الحجة أو غير ذلك مما ورد فيه نصوص تدل على خصوصيته كان ذلك والا فمتى تيسر ولينظم برنامج الدورة بحيث يكون مردودها الروحى عاليا فاذا استطاع أن يجمع بين صيام وقيام وصلوات جماعة وقراءة قرآن وأنواع من الأذكار كان بها والا فما استطاع من ذلك واذا اقتصر على نوع من الذكر كالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لا اله الا الله أو الاستغفار أو الجمع بين التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد فذلك طيب واذا جمع بين هذا كله يكون طيبا ، ان مثل هذه الدورات ترتقى بالانسان ارتقاءات كبيرة وتنقل قلبه من حال الى حال ٠ وان فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير مما يجعلنا نستأنس لمثل هذا مثل اعتكافه عليه الصلاة والسلام فقد ثبت أنه اعتكف عليه

الصلاة والسلام فى رمضان وغيره واعتكف فى بعض السنين عشرين يوما ومثل خلوته عليه الصلاة والسلام فى غار حراء وهى مع كونها قبل النبوة الا أنها كانت من توفيق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ومثل الأمر فى ابتداء الاسلام بوجوب قيام الليل على كل مسلم ثم نسخ الوجوب ولكن الندب بقى وهناك نصوص تشير الى أرقام مثل الحديث الذى رواه ابن ماجه والترمذى « من صلى فى مسجد جماعة أربعين ليلة لا تفوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله بها عتقا من النار » • ترى لو أن مسلما قرر فيما بينه وبين نفسه أن يقيم دورة روحية لنفسه مدتها أربعون يوما أو أقل أو أكثر فماذا يترتب على ذلك : لا شك أن ايمانه سينمو ومعانى التوحيد فى قلبه ستترسخ وسيعطيه ذلك صفاء فكر وحسن تأمل هذا عدا عن معان كثيرة أخرى كلها ضرورى فى عصر غلبت عليه المادة وطغت الشهوات فاذا ما كرر ذلك كل فترة فى حياته فان ذلك محل رجاء أن يبقى نور الايمان فى قلبه عظيما وأن يبقى الايمان فى قلبه جديدا واذا أردنا أن نقترح جدول دورة من هذه الدورات فبالامكان مثلا أن يكون فى هذا الجدول :

١ ـ صلوات الفرائض جماعة •

٢ ـ اقامة السنن الرواتب كلها •

٣ ـ المحافظة على سنة الضحى وسنة قيام الليل والوتر •

٤ ـ بالامكان أن يكون من البرنامج صلاة التسابيح يوميا •

٥ ـ أن يخصص لنفسه برنامج ختمات من القرآن خلال الدورة •

٦ ـ أن يضع فى حسابه الاشتغال بأوراد الذكر من استغفار الى صلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم الى توحيد الى غير ذلك من الأذكار المطلقة وليحاول أن يذكر كلا منها سبعين ألفا • فعدد السبعين تتحقق فيه الكثرة •

٧ ـ أن يضع فى حسابه تطبيق الأوراد المرتبطة بشىء كأوراد الصلاة وأوراد النوم وغير ذلك • واذا رأى من نفسه مللا من نوع اشتغل بنوع آخر ويستطيع الواحد منا أن يتصرف على ضوء ذلك •

٨ ـ صيام ما تيسر من الأيام مع الاقلال من الطعام والكلام والخلطة •
ان بعض الناس قد يقولون : هذه عطالة وبعضهم يقولون هذه بطالة وبعضهم يقولون الكثير ليصرفوا المسلم عن مثل هذا • ان هؤلاء جميعا موازينهم خربة وتفكيرهم الايمانى سقيم ان ذرة من الايمان لا يعادلها شىء فاذا كانت ذرة من الايمان يخرج بها الانسان من النار وتقيه الخلود فيها فما بالك اذا كانت هذه

الدورات تجعل ايمان الانسان كالجبال فتعطيه طمانينة القلب وترفعه عن هواجس النفس وتجنبه وساوس الشيطان وفتنته ٠

ان على كل مسلم أن يفكر فى مثل هذا ، وان على المربين فى الأمة الاسلامية أن يعطوا لذلك أهمية خاصة ويكفى كل مسلم ليدرك صحة ما ذكرناه أن يتذكر هذين الحديثين : « ان الايمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الايمان فى قلوبكم » (رواه الطبرانى) ٠ «جددوا ايمانكم، قيل يا رسول الله كيف نجدد ايماننا قال : اكثروا من قول لا اله الا الله » (رواه أحمد) ٠ اذا كان الايمان وهو موجود يحتاج ، الى تجديد فكيف بالقلوب الغافلة ، فكيف بالقلوب المصفحة ، فكيف بالقلوب التى فيها ظلمة ، فكيف بالقلوب التى فيها وساوس ، فكيف بالقلوب الحائرة ، فكيف بالقلوب القلقة ، فكيف بالقلوب الشاكة ، فكيف بالقلوب التى غزتها الأمراض والشهوات ، ان هذه كلها اذا أرادت أن تقفزقفزة سريعة فوق هذه الحال لا بد لها من دورات روحية مكثفة ذات برنامج روحى والبرنامج الذى اقترحناه ههنا نموذج فقط والا فلو أن مسلما خصص لنفسه أياما يشتغل بها مثلا فى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم فقط مع قيامه بالفرائض فان لذلك آثاره الطيبة على قلبه ٠ المهم ألا ينسى مسلم نفسه من دورة روحية أو دورات فى حياته ٠

(جـ) الأوراد اليومية :

انه لا بد للمسلم من غـذاء روحى يومى ، هـذا الغذاء يتمثل بالقيام بالفرائض والواجبات اليومية والمداومة على ما يمكن من المندوبات بالقـدر المستطاع الذى يعطى القلب احتياجاته من الغذاء والدواء والذى يكون به المسلم فى ترق دائم ٠٠ هذا الورد اليومى الذى يرتبه المسلم على نفسه ينبغى أن يلاحظ فيه أن يجعل له حدا أدنى لا بد أن يؤديه ثم بعد ذلك ان وجد فراغا أو اقبالا من النفس زاد ، واذا رأى من نفسه كسلا أو مللا تصرف معها بمـا يحسن من سياسة حكيمة للنفس ٠ واذا غلبته نفسـه فكسلت لسـبب من الأسباب فانه ان استطاع أن يعوض ذلك عوض والا استأنف من جديد فى أول لحظة تفىء نفسـه فتعود الى ما رتبه لهـا صاحبها من أوراد يومية والنصوص فى قضية الأوراد اليومية كثيرة منهـا الذى مر معنـا وللتأكيد والتوضيح نذكر بعض النصوص ونعلق عليها ٠

١ ـ قال شقيق : « مرض عبد الله فعدناه فجعل يبكى فعوتب فقال لا أبكى لأجل المرض لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المرض كفارة وأنا أبكى أنه أصابنى على حال فترة ولم يصبنى فى حال اجتهاد لأنه يكتب للعبد من الأجر اذا مرض ما كان يكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض » ، من مثل هذا النص ندرك أن المسلم العامل تكون له أوراده اليومية

الخاصة ولذلك نجد عبد الله بن مسعود يبكى على أن مرضه جاء وهو فى غير الحالة العليا من العمل اليومى ٠

٢ ـ يستأنس لهذا الموضوع بكل ندب ندبنا فيه لعمل سواء كان هذا العمل ذكرا أو غيره ٠

٣ ـ من حديث صحيح لعائشة رضى الله عنها أنها روت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « خذوا من الأعمال ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا وان أحب الأعمال الى الله ما دام وان قل » (متفق عليه) ، وفى رواية عنها « وكان آل محمد اذا عملوا عملا أثبتوه » ، وهذا يدل على أن هناك أعمالا معينة كان فيها نوع من الالتزام اليومى فى حياة آل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أن قوله عليه الصلاة والسلام « خذوا من الأعمال ما تطيقون » ، ما يشير الى أن المسلم ينبغى أن يرتب لنفسه عملا يوميا فى حدود طاقته ٠

٤ ـ قوله عليه الصلاة والسلام : « انه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرة » (رواه مسلم) ، وملازمته عليه الصلاة والسلام لقيام الليل ولأعمال معينة كل ذلك يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كانت له أوراده اليومية وهو أسوة كل مسلم فالأوراد اليومية فى حياة المسلم هى زاده اليومى الذى لا ينبغى أن يهمله وعلى هذا فاننا ندعو كل مسلم أن يرتب لنفسه ورده اليومى ، ويدخل فى ذلك تنظيم أوقاته لترتيب أمر الصلاة فرضها ونفلها ونخص بالذكر قيام الليل وسنة الضحى لغفلة الناس عنهما ، ويدخل فى ذلك أوراد الصلوات ، ويدخل فى ذلك قراءة القرآن ٠ والحد المعتدل فى ذلك جزء لقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح لابن عمرو بن العاص عن القرآن « اقرأ القرآن فى كل شهر »(١) ، ويدخل فى ذلك الاستغفار اليومى والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوميا والتهليل والتسبيح يوميا ويدخل فى ذلك ملاحظة الأيام التى ندبنا الى عمل خاص بها أن نخصها بعمل ما كالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وليلته وكقراءة سورة الكهف فيها ٠ ويدخل فى ذلك أن تلاحظ الأوراد والأذكار التى ربطت بمناسبة ويدخل فى ذلك ملاحظة الأيام التى ندبنا الى صومها ، وأخيرا يدخل فى ذلك العلم وكل عمل يقتضيه حق العلم ٠٠ ان الأوراد التى ندبنا الى الاكثار منها بدون حدود يستطيع الواحد منا أن يرتب على نفسه منها بالقدر الذى لا يشق عليه وعلى حسب احتياجات قلبه وبما لا يتعارض مع القيام بواجبات

---

(١) راجع حادثة ابن عمرو بن العاص فى البخارى ومسلم وأبى داوود والنسائى ٠

أخرى ‥ واذا أردنا أن نقدم نموذجا تقريبيا لأوراد المسلم اليومية فبامكاننا أن نقول :

(١) صلوات الجماعة ، ورواتب الصلوات وأذكارها وقيام الليل وسنة الضحى ٠

(٢) استغفار يومى بما لا يقل عن مائة مرة ٠

(٣) لا اله الا الله وحده لا شريك له ٠ له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير بما لا يقل عن مائة مرة ٠

(٤) صلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يقل عن مائة مرة ٠

(٥) قراءة قل هو الله أحد ثلاث مرات ٠

(٦) قراءة جزء من القرآن ٠

(٧) اذكار الأوقات والأعمال كأذكار الطعام والنوم والدخول والخروج ٠

(٨) الاكثار بعد ذلك من الأذكار التى ندبنا اليها بشكل مطلق كالاستغفار أو الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو التهليل أو الحوقلة أو التسبيح أو التحميد أو غير ذلك مما فيه ندب خاص ٠ وهذه بعض نصوص تشير الى ما ذكرناه : « عن أغر مزينة رفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرة » ، وفى رواية « توبوا الى ربكم فوالله انى لأتوب الى ربى مائة مرة فى اليوم » (رواه مسلم وأبو داوود) ، وعن أبى هريرة رفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم : « من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى اليوم مائة مرة » ، كانت له عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ٠ ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل أكثر منه ، « ومن قال : سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » ، (للشيخين والموطأ والترمذى) ٠ وأخرج النسائى عن أبى طلحة رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى فى وجهه ، فقلنا : انا لنرى البشرى فى وجهك . قال : انه أتانى الملك فقال : يا محمد ان ربك يقول: « أما يرضيك أنه لا يصلى عليك أحد الا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد الا سلمت عليه عشرا »، وروى الطبرانى فى الأوسط والصغير عن أنس رفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ومن صلى على عشرا صلى الله عليه بها مائة مرة ، ومن صلى على مائة كتب الله بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء » وأخرج أبو داوود عن ابن عباس رفعه الى النبى

صلى الله عليه وسلم « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » ، وأخرج الطبرانى فى الكبير عن محمد بن يحيى بن حيان عن أبيه عن جده « أن رجلا قال يا رسول الله أجعل ثلث صلاتى عليك ؟ قال نعم ان شئت ، قال الثلثين ؟ قال نعم ٠ قال : فصلاتى كلها ؟ قال :اذن يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » ٠

وأخيرا نقول : ان المسلم عليه أن يرتب لنفسه برنامجا خاصا يوميا وآخر أسبوعيا يكمل البرنامج اليومى وآخر شهريا يكمل اليومى والأسبوعى وآخر سنويا يكمل الثلاثة الاول وآخر عمريا يكمل ما قبله بحيث يؤدى واجباته كلها ، ويملا حياته بالخير ويكون فى حال ترق دائم ومن خلال الدورات الروحية ، ومن حلال البرنامج اليومى ومن خلال اقامة ما ندبنا اليه أو افترض علينا أسبوعيا كحقوق يوم الجمعة أو من خلال ما شرع لنا سنويا كصيام رمضان أو شهريا أو أسبوعيا كالصيام المندوب أو ما افترض علينا عمريا كالحج ومن خلال اقامة واجب الوقت وواجب الحال وواجب المناسبة كصلاة الجنازة أو عيادة المريض أو اطعام الجائع أو الاحسان الى الجار أو بر الوالدين أو صلة الرحم أو الجهاد المفروض أو المندوب من خلال هذا كله يكمل المسلم ويلقى الله وهو عنه راض وان العلم والدورات الروحية والأوراد اليومية هى الزاد الذى لا بد منه لاقامة هذا كله ٠

وبهذا الباب يكون قد اتضح لنا كثير من جوانب السير الى الله وقد آن الأوان لأن ننتقل الى جوانب أخرى فى هذا الموضوع لها صلة بعالم النفس وتزكيتها وهو الجانب المكمل للكلام عن القلب ومن ثم فسيأخذ هذا الموضوع معنا مجموعة من الأبواب اللاحقة فى هذه الرسالة ٠

الباب الثامن

فى النفس ومطالبها وأمراضها

وصلة ذلك بعالم القلب والسلوك

نلاحظ أن هناك تطابقا أحيانا فى الحديث عن القلب والنفس لدرجة يشعر الانسان من خلال بعض النصوص وبعض كلام الصوفية بأنهما شىء واحد ، ويلاحظ أحيانا من خلال مطالعة بعض النصوص ومن خلال كلام الصوفية أنهما شيئان منفصلان وقد تحدثنا فى بداية هذه الرسالة عن قضايا العقل والقلب والروح والنفس وههنا نضيف ما يعمق الفهم ٠

فى الحديث الشريف « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » (رواه مسلم) ، اننا نجد فىهذا الحديث أنالقلب نفسهيمرض بمرض الكبر ونجد النص القرآنى يقول **« قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »**(١) ، ولا شك أن من التزكية للنفس أن يطهرها الانسان من الكبر ٠ بل من أول معانى التزكية أن يطهر الانسان نفسه من الشرك الذى هو المظهر الأرذل للكبر ٠ قال تعالى : **« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين »**(٢)، وانما الصرف فى هذا للقلب ، قال تعالى : **« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »**(٣) ، انك تجد ههنا تداخلا بين قضية النفس والقلب ٠ ولكنك تجد كذلك قوله تعالى : **« ان النفس لأمارة بالسوء »**(٤) **« ولا أقسم بالنفس اللوامة »**(٥) ٠

ونجد عند الصوفية شيئا يسمونه الهاجس النفسى وله صلة بأوامر النفس للقلب فههنا حالة ثانية من حالات الكلام عن القلب والنفس ٠ وقال تعالى :

---

(١) الشمس : ٩ ، ١٠ (٢) الأعراف : ١٤٦
(٣) الحج : ٤٦ (٤) يوسف : ٥٣
(٥) القيامة : ٢

((ألا بذكر الله تطمئن القلوب))(١) ، وقال تعالى : **((يا أيتها النفس المطمئنة))**(٢)، فههنا قلب يطمئن فى الذكر ونفس وصلت الى الاطمئنان وقال تعالى : **((وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية))**(٣) ، والظن محله القلب لأن له صلة بالاعتقاد قال تعالى : **((وانها لكبيرة الا على الخاشعين• الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون))**(٤) ، من كل هذه المعانى التى ذكرناها ندرك أن الكلام عن النفس أحيانا يعنى الكلام عن القلب وأحيانا لا يعنى ذلك وهذا هو الذى نقلناه عن الغزالى فى أول هذه الرسالة اذ يذكر ان النفس والقلب والعقل تأتى أحيانا بمعنى واحد وأحيانا يكون لكل مدلوله ، ولتوضيح هذا المقام فى قضية القلب والنفس فلنعرض الأمر عرضا مبسطا :

اذا جرح الانسان فى معركة أو حدث معه نريف كثير يحس الانسان بعطش شديد وهكذا يحس بطلب ملح على الشرب فيطلبه ومهما أراد أن يقاوم ذاته فيمنعها عن الطلب يجد نفسه أحيانا مغلوبا فههنا دافع جسدى غلب القلب ، وبدون شعور من الطفل يبدأ بأكل التراب عندما يكون جسمه بحاجة الى الكلس • وقاعدة عامة : اذا احتاج الجسم لنوع من الغذاء وجدت عنده مطالب لأنواع من الطعام تحتوى ذلك فيجد الانسان نفسه أحيانا مدفوعا بدوافع شديدة نحو نوع من الطعام بعينه • ومن المعروف فى عالم الحيوان والانسان أن الافرازات الجنسية المطروحة فى الدم توجد عند الانسان والحيوان هواجس واندفاعاتوتخيلات ومتطلبات تكون قاسية أحيانا وكثيرا مايستسلم ناس لها ولا حرج فى استسلام قلب لدافع شهوة مباحة وفى الحلال ولكن الكارثة عندما يستسلم الانسان لها فى الحرام • وهناك نوع من العقاقير اذا استعملها الانسان زادت فى حدة طبعه • ونوع آخر يساعده على الهدوء ، ونوع آخر يمكن أن يوجد عنده رغبة فى العزلة أو نوع من كراهية الناس ، ومن ثم ندرك تأثير طبيعة الغذاء على تصرفات الانسان • وبذلك ندرك حكمة تحريم أنواع من الحيوانات أو الأطعمة فى الاسلام • ان نوع ما يلقى فى الدم من أغذية أو افرازات يؤثر على الجملة العصبية فيتلقى القلب البشرى مطالب ، هذه المطالب هى التى يمكن أن تكون جزءا مما يسميه الصوفية هواجس النفس ، وهذه الهواجس أقسام فمنها الطلب الحرام ومنها الطلب المباح ومنها الطلب الذى لا بد منه الذى يكون تأمينه من باب الفروض وهكذا ••

فى الشريعة الاسلامية اذا تاقت نفس الانسان للجماع أصبح الزواج فى حقه واجبا شرعيا عليه اذا استطاع ، فاذا كثر التوق لدرجة خاف فيها الغلبة على نفسه فقد أصبح الزواج فى حقه مفروضا وعليه أن يضبط نفسه ريثما

---

(١) الرعد : ٢٨
(٢) الفجر : ٢٧
(٣) آل عمران : ١٥٤
(٤) البقرة : ٤٥ ، ٤٦

يتزوج . والطعام والشراب اللذان لا بد منهما لاستمرار الحياة البشرية ولجعل الانسان فى حالة يقوم بها بواجباته فريضة من الفرائض على الانسان . مثل هذه المطالب تأمينها للنفس شيء عادى ولكن النفس اذا طالبت بفعل هو فى ذاته معصية كان ذلك من باب الأمر بالسوء ((**ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى**))(١) ، اذا أدركنا هذه القضية عرفنا لم يفرق بعضهم بين النفس والقلب فهؤلاء يريدون بالنفس هنا طلبات الجسد وحاجاته ورغباته التى يمليها على القلب ، فالقلب ههنا شيء والنفس شيء آخر ولكن بعضهم يعبر عن القلب بالنفس من باب أن القلب هو ذات الانسان ونفس الانسان هى ذاته فهؤلاء لا يفرقون فى هذا المقام بين نفس وقلب ، وفى هذا المقام ، يقال ان المراد بالقلب هو النفس ويكون المراد بمرض القلب ومرض النفس واحدا ويكون المراد بتزكية القلب وتزكية النفس شيئا واحدا فالقلب هنا عين النفس . والنفس ههنا هى عين القلب وعلى مثل هذا المقام تحمل هذه النصوص ((**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم**))(٢) ((**قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها**))(٣) « ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (رواه البخارى) .. والمسلم مكلف بمعالجة مطالب نفسه سلبا أو ايجابا ومكلف بتطبيب قلبه ونفسه بتزكية هذا القلب وتزكية هذه النفس من خلال الخلاص من أمراضه كالحسد والكبر والعجب وحب الدنيا ومن خلال تحقيق هذه النفس أو هذا القلب بأخلاقه العليا من اخلاص وتوكل وخشية وغير ذلك « وفى هاتين القضيتين تفريط خطير وغلط كبير » بعض الناس يهمل قضية المطالب وعلاجها ويهمل قضية الأمراض والأخلاق النفسية العليا ، وبعض الناس لا يفرق بين المطالب الضرورية للنفس فيحاربها وبين المطالب التى يجب حربها فعلا ، وبعض الناس لا يعرف أصلا ما هى موازين الصحة وجوانب المرض فلا يعرف بماذا يتحقق ولا مما يتخلص وههنا تأتى أهمية المرشد الكامل أو الوارث النبوى الكامل أو العالم العامل أو الولى المرشد . والاسلام جاء فيه تفصيل لكل شيء ومن جملة ذلك آفاق القلب والنفس ومعالجة أمور النفس والقلب وطرق العلاج وموازين الصحة والمرض وذلك شيء لا يمكن أن يكون فى هذا العالم جواب صحيح عليه الا فى الاسلام ، ولا تفسير كامل له الا فى الاسلام ، وان الذين كتبوا فى هذه الشئون من أمثال حجة الاسلام الغزالى كتبوا فى الحقيقة فى أرقى الأمور وأعلاها على الاطلاق وانه لخسارة للبشرية كلها ألا تقرأ ما كتب أمثال هؤلاء ..

تبدأ الشهوة الجنسية تتفتح عند الانسان شيئا فشيئا وذلك أمر عادى ويحاول بعض الناس أن يعتبر ذلك ظاهرة مرضية بل يفكرون فى القضاء عليها وذلك خطأ فى فهم الأشياء أصلا ، وفى الاسلام أذنت مطالب أن تتزوج

---

(١) يوسف : ٥٣ ، (٢) البقرة : ١٥١ (٣) الشمس : ٩ ، ١٠.

لتحقق الحكمة فى وجود هذه الشهوة أصلا وعليك بعد الزواج أن تضـبط هذه الشهوة ضمن الحدود المباحة ، وقبل الزواج عليك أن تعالج هـذه الشهوة بالضبط وأنواع العلاج ريثما تتزوج وقد يكون العلاج بالصـوم وباختيار نوعية الطعام ، وقد يكون باستعمال العادة السرية فقد أجاز بعض الفقهـاء استعمال العادة السرية اذا كثرت الشهوة الجنسية لصرف الشهوة لا لجلبها وقد يكون العلاج فى استغراق الانسان فى العمل والذكر وأنواع الرياضات الجسمية وقد يكون فى هذا كله ، وههنا تكمن مهمة الانسان فى هذه المرحلة ٠ فلو طالبته نفسه بزنا أو لواط أو غير ذلك مما هو محرم فعليه أن يقطـع الطريق عليها ٠ فلو أن القلب طاوع النفس ههنا أى طاوع مطالب الجسد فانه يكون مريضا اذا غلبت عليه الشهوة المحرمة ٠ ومن هنا ندرك موقف المسلم من مطالب النفس والمراد بالنفس هنا مطالب الجسد ، وندرك ماذا يعنى مرض النفس والنفس ههنا القلب وندرك لم فى ــ بعض الأحيان ــ يعبر العلماء بالنفس عن القلب ويعبرون بالنفس على معنى مختلف عن القلب ٠٠

بعض الناس يسيرون فى طريق محاربة كل مطلب للنفس كائنا ما كان وهذا خطأ ففى الحديث «ان لنفسك عليك حقا» (رواه البخارى) ، وبعض الناس يعطون أنفسهم كل ما تشتهيه وهذا خطأ قال تعالى : ((**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ٠ فان الجنة هى المأوى**))(١) وقال تعالى: ((**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**))(٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والمجاهد من جاهد نفسه فى الله » (رواه الترمذى وابن حبان) ، والمسلم الحق على ضوء العلم يعمل فيضبط النفس عن شهواتها المحرمة ويمنعها أن تتوسـع فى المباح خشية مطالبته بالحرام ٠ هذا فى أمر مطالب الجسد ، ثم هو يزكى نفسه أى قلبه ههنا من كل مرض فيمنع أمراض القلب أن تؤثر على سلوكه ويحاول تطهير القلب من أصل المرض كما يحـاول أن يحقق القلب بأخلاق الصحة وأن يعطى هـذه الأخلاق مداها فى سلوكه وهذه العملية كلهـا يخلط الكاتبون فى الحديث عنها فيعتبرون مطالب النفس كلها أمراضا كأمراض القلب وهو موضوع يلاحظ أثناء مطالعة كلام الكاتبين فى هذه الشئون ٠٠

* * *

((ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبـة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ٠ تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ٠ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض

---

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١ (٢) العنكبوت : ٦٩

ما لها من قرار »(١) ، عندما تأخذ كلمة « لا اله الا الله » ، مداها فى القلب فانها تحرق كل الأمراض وتوجد فى القلب أخلاقا لها ثمراتها فى السلوك كالمحبة لله والاخلاص له والخوف منه والتوكل عليه ويستقيم جسد الانسان وعقله على منهج الاسلام أى على منهج لا اله الا الله • أما اذا كان القلب فيه كفر أو نفاق أو فسوق فان ظلمة القلب وآثار ذلك فى سلوك الانسان لا بد أن تظهر فمع الكفر أو النفاق أو الفسوق يكون الحسد • وفى الحديث الصحيح « ولا يجتمعان فى قلب عبد مؤمن الايمان والحسد » ، والحسد له ثمراته الخبيثة فى الحياة البشرية وهكذا يترتب على اهمال صحة القلب ومرضه أى على اهمال تزكية النفس ومجاهدتها ما يترتب • وتضيع بين مطالب النفس وأمراض القلب أحيانا محاكمات الدماغ فى كثير من الأمور وعقل الانسان يتأثر بهذا كله • فيكون التناقض أحيانا بين الذات والفكر والسلوك • والاسلام عالج هذا كله علاجا حكيما فوجد بذلك كله الانسان الحق وبدون ذلك فلا انسان ولا انسانية ومن ثم نقول : حيثما يوجد الاسلام يكون الانسان والا فلا والدعاة الى الله الذين لا يدركون هذه المعانى يفرطون فى أهم الأمور على الاطلاق ••

* * *

أحيانا تكون مطالب الجسد عاتية تصعب السيطرة عليها وأحيانا تكون لينة تسهل السيطرة عليها والمسلم مكلف فى كل حال أن يبذل جهدا للاستقامة على أمر الله واذا غلب فواقع المعصية فعليه أن يتوب الى الله مباشرة وأمراض النفس أحيانا تكون معقدة وأحيانا تكون بسيطة والقلوب بعضها يستعصى على العلاج وبعضها كثير الاستجابة له وبعضها سريع الامتصاص لمظاهر الصحة • وطبيعة القلوب فى الأصل مختلفة : فقلب لين وقلب شديد وهذه مواضيع متعددة سنراها ولأمر ما تعددت العبادات وتعددت الأعمال وأنواع القربات وفى ذلك كله حكمة •

* * *

والحياة البشرية لا تصلح الا بذلك ولكل حالة مرضية دواؤها ولكل حالة صحية طريقها الموصل اليها وأسبابها الدالة عليها •• واذا عرفنا قضية القلب والنفس ومتى تعتبر النفس هى القلب والقلب هو النفس ومتى يكون القلب غير النفس فى الاصطلاح واذا عرفنا كيف نضع مطالب النفس ونصنفها ومحل ذلك فى صحة القلب ومرضه واذا عرفنا ماهية المرض القلبى والنفسى واذا

---

(١) ابراهيم : ٢٤ ـ ٢٦

أدركنا مبدئيا قضية العلاج وقضية الصحة ، وأن لذلك طريقه ، واذا أدركنا مبدئيا تأثيرات ذلك كله على السلوك ، اذا أدركنا ذلك أصبح بالامكان أن نبني على هـذا الأساس ننتقـل الى باب آخـر ملاحظين انه اذا ذكرنا النفس من الآن فصاعدا فالمراد بها هذا الجانب الذى تعنى فيه النفس القلب • فاذا قلنا تزكية النفس أو أمراض النفس فالمراد تزكية القلب أو أمراض القلب ولكن أحيانا قد يراد بتزكية النفس معالجة مطالبها حتى لا تطلب الا خيرا ومعالجة استقامة الجسد فالمعنى مهنا أعم • فليلاحظ القارىء ذلك أثناء كلامنا • ولن يفوته من خلال السياق أن يدرك ذلك ان شاء الله •

الباب التاسع

في سلم الأمراض وسلم الصحة

يولد الانسان على الفطرة كما ورد فى الحديث الذى رواه الشيخان « ما من مولود الا يولد على الفطرة ـ فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » • وكما ورد فى الحديث الذى رواه أحمد « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فاذا عبر عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا » • هذه الفطرة يكون فيها القلب على حاله الأكمل والروح على حالتها المثلى ، فالقلب خال من الأمراض مشتغل بنور التوحيد ، والروح عارفة بالله مقرة له بالعبودية ثم يحدث ما يحدث بعد ذلك من غفلة أو انحراف • تبدأ هذه الغفلة برؤية عالم الأسباب والتعلق بها من لحظة أن يلتقم الطفل ثدى أمه ، ثم بعد ذلك يبدأ يرضع من البيئة أخلاقها وآدابها وعقائدها وغير ذلك مما يترتب عليه ما يترتب من انحراف أو غفلة أو نسيان •• وجاء الاسلام لارجاع الانسان الى هذه الفطرة • قال تعالى : **« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون • منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين • من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون »**(١) • من هذه الآيات نعلم : أن الفطرة هى اقامة الانسان وجهه لدين الله دون التفات عن ذلك الى غيره ، وأنها الانابة الى الله والتقوى واقام الصلاة ونفى الشرك وبقدر اجتماع هذه المعانى فى انسان يكون على الفطرة ، وبقدر ما يفرط فى واحدة منها يكون مفرطا فى قضية الفطرة • واقامة الوجه لدين الله ونفى الشرك ، يدخل تحتهما معان كثيرة والتقوى يدخل تحتها معان كثيرة جدا فصلناها فى كتاب (**جند الله ثقافة وأخلاقا**) واقامة الصلاة حق القيام مرتبطة بأمور كثيرة لها صلة بقضايا القلب وخشوعه وغير ذلك من أعمال جسد وتوجه قلب • ومن أدرك هذه المعانى كلها أدرك حقيقة الفطرة بصرف النظر عن الفلسفات والتعقيدات والتفصيلات فنحن ههنا نكتب لمسلمين مؤمنين فقط فاذا اتضح هذا فلنر المسألة فى جانبها الأكثر تبسيطا ••

---

(١) الروم : ٣٠ ـ ٣٢

اذا استنار القلب بنور التوحيد الخالص فرأى الأشياء كلها فعل الله استقبل كل المصائب بالصبر والتسليم والرضى واذا استنار القلب بنور التوحيد نما عنده التوكل على الله والاخلاص لله والخشوع والاخبات ٠ واذا استنار القلب بنور التوحيد فرأى النعم كلها صادرة عن الله نمت عنده محبة الله والرغبة بشكره ٠ وكل ذلك أثر عن التوحيد الخالص الذى هو أثر عن معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله والشعور بذلك ٠ واذا استنار القلب بنور معرفة الله وتوحيده توجه القلب كله لدين الله ولم يلتفت عنه يمينا وشمالا وعندئذ ينتفى الشرك كله كبيره وصغيره ٠ ومن مثل هذا القلب تؤدى الصلاة كاملة لله كمظهر أرقى للعبودية لله وتقديم واجب الشكر له وبشكل تلقائى تكون خشية الله فى هذا القلب كبيرة فيكون التلقى عن الله كاملا **((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله))**(١) ومن مثل هذا القلب ينبثق سلوك منسجم مع دين الله وهذه هى التقوى ٠ ومجموع هذه الأمور هى الفطرة الكاملة ٠٠٠

وبقدر الخلل فى التوحيد اعتقادا أو شعورا يوجد الشرك الأكبر أو الأصغر فاذا وجد الشرك الأكبر انطفأ نور الفطرة كله ، واذا وجد الشرك الأصغر كأن يعمل الانسان عملا لغير الله رغبة فى جاه أو دنيا أو غير ذلك ، اذا وجد هذا خيمت ظلمة نفسية على القلب ، واذا انعدم الصبر وجد الكفر واذا قل الشكر وجد نوع من الظلمة يقابل ذلك ٠٠٠ وبقدر خفوت نور التوحيد تظهر أمراض العجب والرياء والحسد والكبر والغرور وغير ذلك من الأمراض ٠ اذ لو كان الانسان يرى أن الله عز وجل هو المعطى ما وجد الحسد ولو عرف الانسان أن الله عز وجل هو خالق كل شىء ما وجد عجب ورياء ، ولو عرف الانسان مقام العبودية ما وجد عجب وغرور ، ولو كان الانسان عبدا لله حقا ما وجد الجبروت ، ولو كان فى القلب خشية من الله ما وجد ظلم لعباده ولا انحراف عن أمره ٠ ومن ههنا ندرك أصل المرض وبدء الصحة فأصل المرض الشرك ، وبدء الصحة التوحيد ، واذا أدركنا ذلك عرفنا معنى قوله تعالى **((انما المشركون نجس))**(٢) ٠ فالشرك هو النجاسة التى تجعل أصحابها عين النجس لكونها تصبغ أجسادهم وسلوكهم وأنفسهم وعقولهم وأرواحهم بها فتصبح ذواتهم نجسة نجاسة غير محسوسة ولكنها نجاسة ٠٠

مما مر ندرك أن الدرجة الأولى فى سلم الارتقاء هى التوحيد وأن الدرجة الأولى فى سلم الخرابات هى الشرك الأكبر أو الأصغر ثم عن التوحيد تبدأ الصحة ، وعن الشرك تتفرع الأمراض القلبية والسلوكية من كبر وعجب

---

(١) الزمر : ٢٣ (٢) التوبة : ٢٨

وفخر وخيلاء وبخل وغش وبغض وحرص وأمل وحقد وحسد وضجر وجزع وهلع وطمع وجمع ومنع وجبن وجهل وكسل وبذاء وجفاء واتباع الهوى وازدراء واستهزاء وتمن وترفع وحدة وسفه وطيش وغلواء وتحكم وظلم وعداوة ومنازعة ومعاندة ومغالبة ومزاحمة وغيبة وبهتان وكذب ونميمة وتهويس وسوء ظن ومهاجرة ولؤم ووقاحة وغدر وخيانة وفجور وشماتة الى غير ذلك ..

هذه الأمراض النفسية والقلبية وغيرها كثير اذا وجدت فى القلب أثرت على نور التوحيد ومنعت نور الايمان والتوحيد من التسلل الى القلب **((قالت الأعراب : آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم))**(١) . فالايمان لم يدخل ولكنه على وشك الدخول ، اذ هذا الذى يقتضيه استعمال كلمة « لما » فى اللغة العربية .

واذن فان هناك حالة يوجد فيها عمل ولكن توجد موانع تمنع من وصول الأنوار الى القلوب ومن مظاهر ذلك حالة الذين حدثنا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديث صحيحة أن ايمانهم لا يجاوز تراقيهم هذا مع أننا نحقر صلاتنا مع صلاتهم وصيامنا مع صيامهم . فهذا كله يدل على أن هناك حالات للقلب اذا وجدت فان أنوار الايمان نفسها لا تصل الى القلب وقد ذكر ابن عطاء الله السكندرى بعض عبارات فى حكمه توضح هذا المقام فقال : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ، أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » وقال : « أنوار أذن لها فى الوصول ، وأنوار أذن لها فى الدخول ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت . فرغ قلبك من الأغيار يملاه بالمعارف والأسرار » ... هذه المعانى كلها تصل بنا الى قضية مجاهدة النفس والتخلص من أمراضها كجزء من السير الى الله .

ان هناك مطالبا للنفس وهناك مرض للنفس ، وهناك استجابة للنفس ومطالبها واندفاعات سلوكية هى أثر عن أمراضها . والمسلم فى هذه الدوائر كلها مكلف ، فهو مكلف بأن يعطى النفس مطالبها العادلة وأن يجاهد مطالبها الظالمة الآثمة ، وهو مكلف فى ازالة المرض بالسير فى طريق الشفاء ، ومكلف بنفس الوقت ألا يستجيب لأوامر المرض والأمر صعب دقيق والمستعان هو الله جل جلاله . واذا أردنا أن ندرك بعض هذه الأمور عن طريق قريب

---

(١) الحجرات : ١٤

يكفى أن نتأمل بعض الاستعاذات التى علمنا اياها الله جل جلاله أو رسوله عليه الصلاة والسلام • فقد علمنا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ بالله من أمور كثيرة ومن تأمل لبعض نماذج هذه الاستعاذات ندرك كثيرا من جوانب ما ذكرناه ، وهذه نماذج :

(أ) **« قل أعوذ برب الفلق • من شر ما خلق • ومن شر غاسق اذا وقب • ومن شر النفاثات فى العقد • ومن شر حاسد اذا حسد »**(١) ألا ترى فى الاستعاذة بالله من شر حاسد اذا حسد أن للحسد فى القلب آثاره الشريرة فى السلوك وعلى المحسود ؟

(ب) أخرج الترمذى وأبو داوود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أبا بكر قال : يا رسول الله مرنى بكلمات أقولهن اذا أمسيت واذا أصبحت • قال : « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا اله الا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه » • قال : « قلها اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعك » • ألا ترى فى قوله عليه الصلاة والسلام : « أعوذ بك من شر نفسى » أن النفس لها مطالبها الشريرة وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون لنفسه مطلب الا فى الله ولكنه التعليم •

(جـ) أخرج الشيخان عن أنس عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » ألا ترى فى استعاذته عليه الصلاة والسلام بالله من العجز والكسل والجبن والبخل اشارة الى أمراض منها الجسدى النفسى ومنها النفسى الخالص الذى له آثاره السيئة فى الحياة •

(د) أخرج أبو داوود عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم انى أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق » • ألا ترى فى هذا الحديث اشارة الى مجموع أمراض قلبية ونفسية •

(هـ) أخرج أصحاب السنن عن شكل بن حميد قلت يا رسول الله : علمنى تعوذا أتعوذ به • فأخذ بكفى وقال : قل : اللهم انى أعوذ بك من شر سمعى ومن شر بصرى ومن شر لسانى ومن شر قلبى ومن شر منيى »

---

(١) سورة الفلق •

ألا ترى ههنا أن للمنى شرا ٠٠٠ رواه أبو داوود والترمذى وقال حديث حسن ٠

هذا طريق قريب أخذنا منه قضية الأمراض النفسية والقلبية ٠ ولكن الأمر أوسع من ذلك ٠ ونحن هنا خطتنا الاجمال ، فاذا كان الأمر كذلك فانه مع الأذكار والأوراد والعلم لا بد من عملية بحث عن طرق الشفاء من أمراض القلب والنفس لتتم لنا عملية السير الى الله ٠ ان كل مرض للقلب ينبثق منه اذا أطاعه الانسان سلوك ، فالحسد تنبثق عنه محاولات الاساءة الى المحسود ، والحقد تنبثق عنه عمليات الانتقام ، والبخل ينبثق عنه المنع وهكذا قل فى كل مرض قلبى أو نفسى ٠٠ وما آفات اللسان وأنواع كلامه الآثم من سخرية واستهزاء وغيبة ونميمة وغير ذلك الا أثرا عن الأمراض القلبية والنفسية ، وما مواقف الانسان المحرمة واستجابته لدواعى الشهوات الا أثرا عن أمراض القلب والنفس وهكذا ٠٠

وههنا لا بد من شيئين : معـرفة بالأمراض ومجاهدة للنفس حتى لا تستجيب لها ومجاهدة للتخلص من هـذه الأمراض ٠ فالأذكار والأوراد والأعمال وخاصة فى حالات تعقيد القلب والنفس بأنواع من الأمراض ليست كافية وحدها لازالة هذه الأمراض بل لا بد من علم ولا بد مع العلم من مجاهدة والذكر هو زاد السير ولازمه وبسبب هذا نجد عند الصوفية اصطلاحات المجاهدة والتخلية والتحلية والتزكية ٠ وفى هذا المقام يظهر احتياج الكثيرين للمرشـد المربى ذى الفراسة الصادقة البصـير بأمراض النفوس وطـرق معالجتها ٠٠٠

وبشكل عام ان العلم بأمراض النفوس يساعد على طب النفوس والعلم بمظاهر الصحة يساعد على السير فى طريقها ، وكنا من قبل ذكرنا أن العلم جزء من السـير الى الله فليلاحظ أن جـزءا من هذا العلم ما له علاقة بهـذا الموضوع وقد فصل الغزالى فى احيائه فى هذه المواضيع بما لم يلحق فيه وذكرنا من قبل أهمية الذكر والعبادة والأوراد فى السـير الى الله فليكن ذلك على ذكر منا ٠ وههنا وضح لدينا أمر وهو ضرورة مجاهدة النفس لمنعها من هواها ولتخليصها من أمراضها ولتحليتها بجوانب صحتها وذلك شىء مكمل لقضية الأوراد فى السير الى الله ، وهذا هو الجانب العملى الثانى فى رحلتنا الى الله وفى سيرنا كذلك فى هذه الرسالة ٠ فليكن الباب القادم حديثا عن المجاهدة وأركانها كنقطة انطلاق نحو صحة النفس والقلب ٠ وفى طريق الخلاص من أمراض القلب وفى عملية عودة بالذات نحو الفطرة ٠ ولن يتم ذلك لأحد الا بتوفيق من الله ٠ قال تعالى : « **ولولا فضل الله عليكم ورحمته**

ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء »(١) • ولذلك فالمستعان على هذا هو الله وحده ولقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » (رواه مسلم) • واذا كان الشـأن كذلك فالمستعان هو الله ولكن الله عز وجل ربط الأمور بمسبباتها ، ولقد جعل الله عز وجل من مهمات رسوله صلى الله عليه وسلم تزكية الأنفس ، قال تعالى : **« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون • فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون »**(٢) • فنحن مكلفون بالأخذ بالأسباب للوصول الى نفس مزكاة مع الاستعانة بالله جل جلاله ••

نقطة البداية فى الصحة اذن كلمة التوحيد وتنور القلب بها ، ونقطة البداية فى المرض أو الموت كلمة الشرك أو عـدم تنور القلب تنورا كاملا بكلمة التوحيد • عن الأول تنبثق كل مظاهر الصحة الظاهرة أو الباطنة ، وعن الثانى تنبثق كل الأمراض الظاهرة أو الباطنة ، ومن ثم فان المرشدين الكمل لا يكون لهم هم مثل أن ينقلوا قلب المريد الى التوحيد • فمتى استنار القلب بنور التوحيد وانسجم سلوك الانسان مع ذلك من خلال علم شامل وذكر دائم والتزام صحيح فان كمالا لا مثيل له يوجد فى النفس فيحدث تغييرا هائلا فيها • ويترتب عليه فى أنفس الانسانية أو فى أنفس شعب من شعوبها اذا تفاعلت هذه الأنفس مع كلمة التوحيد مالا يخطر بالبال من كمالات ويظهر من ثمرات ذلك ما يحير العقول ويدهشها • هؤلاء العرب قبل الاسلام لم تكن لهم ثقافة عريقة ولم تكن لديهم عادات حضارية متأصلة ولم تكن لهم تجربة فى الحكم والادارة ولم تكن لهم قدرة على ضبط الانفعالات ، وما شئت أن تتحدث عن قصورهم فى كثير من الأمور فانك تستطيع أن تتحدث • هذا عدا عن جهل بالله عز وجل وعدم وجود نظرة كلية عندهم فى شئون الحياة ، عندما قبلوا كلمة التوحيد حق القبول وتحققوا بها حق التحقق كما شهد الله بذلك لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه يوم الحديبية : **« وألزمهم كلمة التقوى** ـ أى كلمة التوحيد ـ **وكانوا أحق بها وأهلها »**(٣) • فكانوا أهل كلمة التوحيد وانسجم سلوكهم مع كتاب التوحيد « القرآن » بما يتفق مع هذه الكلمة فماذا كان ؟ كل شىء اختصر لهم اختصارا ، واذا بهذا الشعب الجاهل أصبح شعبا معلما وأصبح قدوة فى الخير وملك من الامكانيات ما استطاع به أن ينهى دولا عظمى وأن يوجد نظاما جديدا فى العالم وأخذت شعوب العالم نفسها دين هذا الشعب دينا لها •

---

(١) النور : ٢١ (٢) البقرة : ١٥١ ، ١٥٢

(٣) الفتح : ٢٦

والآن والمسلمون فى أوضاعهم الحاضرة كما نرى : ان هناك شعوبا فى العالم وصلت الى ذروة فى القوة والمدنيه ووجدت عندها عادات وتقاليد فى شأن الحكم والسياسة والادارة ۰ ووجد عندها وعى سياسى عظيم وقدرات ادارية هائلة ودراسات واسعة فى كل شىء وان هذا كله لا يمكن أن يلحق به المسلمون فى أوضاع من السير العادى فضلا عن أن يكون لهم دور السبق ، فضلا عن أن يكون لهم دور العطاء، فضلا عن أن يكون لهم دور المعلم . ان شيئا واحدا هو الذى يختصر لهم الطريق :

كلمة التوحيد وانسجام سلوكى معها على ضوء الكتاب والسنة من خلال علم وعمل وتفاعل والتزام ۰ ان هذا وحده هو الذى يختصر الطريق فيوجد بذلك الانسان السليم الكامل قلبا وعقلا وجسدا ، وعيا وأخلاقا وسلوكا ، خبرة فى النفس وقدرة على تعليمها وتهذيبها وادراكا لكل لوازمها وبهذا نجد شعوبا تقفز بسرعة من حال الى حال ، من حال القهر السياسى والعبودية السياسية ، من حال التخلف المدنى والتخلف السلوكى الى غير ذلك ۰ فالعمل يقوى والانتاج يتوسع ودوائر التعامل العادى تنمو وقل غير ذلك فى كل شىء ۰ ومن هنا ندرك فظاعة جريمة الذين يريدون أن يحولوا بين الحركة الاسلامية وبين أن تؤدى دورها كاملا فى صياغة شعوب الأمة الاسلامية على ضوء كلمة التوحيد وكتاب التوحيد لتوجد أمة نموذجية معلمة قائدة كبديل عن هذه الأمة التى أفسدتها ثقافات فاسدة وحكومات فاسدة مفسدة واستعمار طويل مديد حاول خلال فترة استعماره الفعلى أو المتشكل بأشكال جديدة أن لا يبقى قيمة الا دمرها ۰ ان كلمة التوحيد متى استقرت فى القلب ونورته تفرع عنها التوكل والاخلاص والصبر والشكر والاحسان والتقوى والعمل بالاسلام من صلاة وزكاة وشورى وانتصار من الظلم وصلة رحم وحسن خلق وحسن جوار وكلمة طيبة فى محلها وقدرة على الجهاد وأخلاقيته الرفيعة وغير ذلك من مئات الأخلاق بينما كلمة الشرك يتفرع عنها الرضا عن النفس وما يستتبع ذلك من غفلة وشهوة وخطيئة وما يتفرع عن ذلك من أمراض كالكبر والعجب والحسد وغير ذلك مما مرت معنا صورته ۰ وان كثيرا من أمراض الشرك قد يغطيها موقف مفتعل من انسان أو ثقافة تجريبية فى أمة ولكن ذلك بمثابة تغطية للمرض لا قضاء عليه والآن لنتذكر ما ورد فى هذا الباب والذى قبله ۰ وخاصة لنتذكر قضيتين : الأولى : أن هناك أمراضا فى القلب متى وجدت تحول دون وصول الأنوار الى القلب وهذا يقتضى عملية استكشاف لهذه الأمراض وسير فى طريق التخلص منها وحمل النفس على معان أخرى ۰

الثانية : أن علل هذه الأمراض الرئيسية منها ما هو فكرى ومنها ما هو نفسى والفكر علاجه العلم والتأمل ۰ ولكن النفس علاجها المجاهدة وهذا

يقتضى منـــا كلاما عن المجاهدة • وهو فى الحقيقة الأثر المبـــاشر الذى ينبغى أن ينبثق عن العـــلم الصحيح وعن الذكر الدائم • فاذا كنا من قبل قلنا : ان ركنى الســير الى الله العلم والذكر • فان العـلم الصحيح لابد أن ينبثق عنه مجاهدة للنفس مباشرة ، والزاد المعين على هذه المجاهدة هو الذكر واذا لم يتولد عن العلم مجاهدة فانه لا يكون علما صحيحا • يقول ابن عطاء : « ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالمـا يرضى عن نفسه • وأى علم لعالم يرضى عن نفسه » • وهو معنى صحيح ، فالرضى عن النفس يتولد عنه ما رأيناه من قبل من كبر وعجب وغرور وغير ذلك ، فحيث ما وجد رضى عن النفس لا يكون علم وحيثما وجد علم صحيح وجد عدم رضى عن النفس فوجدت مجاهدة ، فالمجاهدة هى الانبثاق الأول عن ركنى السير الى الله • الذكر والعلم وبدونها لا يكون سير كامل الى الله فليكن الباب العاشر فيها •

الباب العاشر

فى المجاهــدة وأركانها

قال تعالى : ((**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**))(١) من هذه الآية ندرك أن الهداية الى الطرق الموصلة الى الله ورضوانه هى أثر المجاهدة ٠ فالمجاهدة كسب الانسان ، والهداية هبة الله للانسان ، والمجاهدة والهداية كلاهما لا يتم الا بتوفيق الله وبمعونته لذلك علمنا ربنا أن نقول فى صلاتنا : ((**اياك نعبد واياك نستعين**))(٢) فالمجاهدة هى وسـيلة الهداية القلبية الى الله ورضوانه ٠

والهداية هى مقدمة التقوى ٠ قال تعالى : ((**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**))(٣) ٠ فالتسلسل اذن على الشكل التالى : مجاهدة توصل الى هداية ٠ وهداية توصل الى تقـوى وكل ذلك لا يتم الا بتوفيق الله ومعونته وعطائه ٠ ومن هنا ندرك أن نقطة البداية الصحيحة فى السير الى الله هو المجاهدة ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : «والمجاهد منجاهد نفسه فى ذات الله » ٠ وانما كان هذا هو المجاهد لأن الهداية الى السبل والتى منها القتال فى سبيل الله لا تكون بلا مجاهدة ومن ثم فالقتال نفسه لا يكون قتالا مقبولا الا بعد هداية ولا هداية الا بعد مجاهدة الا اذا شاء ربك أن يعطى عبده بلا سبب ٠٠٠

وههنا وفى هذه الدوائر توجد أغلاط كثيرة فهناك ناس تصورهم عن المجاهدة خاطىء وهناك ناس يقفون عند المجاهدة ولا يصلون الى السبل ، قال تعالى : ((**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ٠ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السـلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى**

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) الفاتحة : ٥
(٣) محمد : ١٧

صراط مستقيم ﴾(١) • فهم يشتغلون فيما يتصورونه مجاهدة ولا يصلون الى السبل بأن يفهموها ويسيروا فى مسالكها ، وهناك ناس يتنقلون من مجاهدة الى سير فى السبل ولكنهم لا يصلون الى حقيقة التقوى • ان فى الفهم أو فى الملكة أو فى السلوك وكل ذلك منشؤه الجهل وكل ذلك سببه أن نقطة البداية التى هى المجاهدة ليست صحيحة وعلى هذا فلا بد من فهم لقضية المجاهدة ، ولا بد من فهم لقضية التقوى ولا بد من فهم لقضية السبل • والموضوع متداخل البدايات والنهايات ، كثير الوشائج • فمعرفة التقوى جزء من المجاهدة ، والتقوى نفسها بعضها أثر المجاهدة وبعضها من المجاهدة • وفى كتاب (**جند الله ثقافة وأخلاقا**) بيان واسع لهذه الشئون فليراجع •

ونحن هنا بسبيل أن نرسم صورة لقضية مجاهدة النفس فى أسسها العامة التى نصل بها الى أن تتخلص النفس من أمراضها ، وتتحقق بمعانى صحتها مفترضين أن السائر فى هذا الطريق سائر فى طريق العلم الصحيح ومستوعب لما يلزمه من العلم ابتداء وانتهاء فليلاحظ ذلك •

تبدأ المجاهدة من نقطة الايمان بالله ووحدانيته وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لا يحس المسلم الناشىء فى بيئة اسلامية بأن الأمر ههنا يحتاج الى ذكر فى باب المجاهدة وهذا خطأ كبير • فأكبر شىء على الاطلاق أن يستطيع الانسان أن يقفز من كفر الى ايمان أو أن يعلن ايمانه فى بيئة تستنكر الايمان أو تسخر من أهله • قال تعالى : **﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾**(٢) • ثم تأتى المرحلة الثانية فى المجاهدة وهى القيام بفروض الوقت من صلاة اذا جاء وقتها أو صيام رمضان ان جاء أو أداء زكاة اذا حال الحول أو أداء حج اذا حضر وقته وكان الانسان مستطيعا ، أو نكاح اذا كانت الدوافع الجنسية اليه كبيرة وتيسر ذلك للانسان أو ضبط معاملة من بيع أو اجارة على مقتضى الشرع ان كان يمارسها أو صلة رحم وبر والدين ان كان هناك رحم ووالدان وغير ذلك من فروض الوقت ولكل انسان فروض وقته التى قد تتفق مع فروض الآخرين وقد تختلف على حسب حاله ووضعه وغير ذلك • فهناك مريض لا يستطيع الصوم فليس الصوم فى هذه الحالة فرض وقته وهناك انسان لا يملك مالا فهذا ليس عليه زكاة وهناك انسان ميت والداه فهذا ليس عليه فى هذا الشأن واجب بر والديه بل هناك فى حقه مندوبات تلاحظ •

وبعد ملاحظة فرض الوقت لابد من ملاحظة أدب الوقت • فما هو أدب وقت الصباح ووقت السحر ووقت الغروب • وما هو أدب الكون فى سفر

---

(١) المائدة : ١٥ ، ١٦.   (٢) التغابن : ١١

أو فى عرس أو فى مأدبة أو فى سجن أو مع مجموعة أو فى مدرسة أو دكان أو فى نزهة أو فى فرح أو فى ترح وهى قضايا مكملة لفروض الوقت • وكما أن هناك ملاحظة وتطبيقا لموضوع فروض الوقت وآدابه فهناك ضبط النفس عن المحرمات والمكروهات التى تطالب فيها النفس أو يصادفها السائر خلال سيره • فهذا جانب ثان فى المجاهدة •

ثم جزء ثالث فى المجاهدة وهى قضية ما يرتبه الانسان على نفسه من نوافل العبادات من صلاة وزكاة وصيام واعتكاف وحج وأدعية وأذكار وقراءة قرآن ويدخل فى ذلك ما مر معنا من قضايا الدورات الروحية والأوراد اليومية فهذا الجانب الثالث •

ثم تأتى القضية الرابعة : وهى التى نطلق عليها أركان المجاهدة : ان الذين تكلموا عن أركان المجاهدة ذكروا أركانا أربعة هى : العزلة والصمت والسهر والجوع • وسنتكلم عنها باجمال ليعود الأخ اذا أراد تفصيلا الى الكتب الموسعة كالاحياء وغيره • ثم تأتى القضية الخامسة وهى عملية تأمل النفس والقلب واكتشاف الأمراض ومعالجتها • وهى القضية الأخيرة للمجاهدة واحدى ثمارها الرئيسية • والقضيتان الأخيرتان هما محل التفصيل فيما يأتى وهما اللتان تدور حولهما عبارات الكثيرين اذا تكلموا فى موضوع المجاهدة وفى هذا الباب سنكتفى بذكر أركان المجاهدة • وفى الباب التالى سنعرض لقضية معالجة الأمراض ، فلنبدأ الكلام عن الأركان الأربعة للمجاهدة ولنبدأ بالعزلة :

ليست العزلة هى الأصل فى حياة المسلم بل الخلطة الصالحة والاجتماع الطيب والألفة للخير وأهله • هذا هو الأصل فى حياة المسلم وفى الأحاديث التالية مصداق ما قلناه :

« المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » (رواه أحمد وغيره) • « المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » (رواه أحمد) « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار » « وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » (رواه الترمذى) والجانب المكمل لهذا الأصل فى حياة المسلم أنه يعتزل الكفر والنفاق والفسوق وأهل ذلك ويعتزل المجالس التى فيها استهزاء بآيات الله وغير ذلك مما ينبغى العزلة عنه قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام : **« وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا »**(١) • **« قد كان لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاء**

---

(١) مريم : ٤٨

منكم ومما تعبـدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننـا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده »(١) • وقال تعـالى : « **واذا رأيت الذين يخوضـون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضـوا فى حديث غيره ، واما ينسينك الشيطان فلا تقعـد بعد الذكرى مـع القوم الظالمين »**(٢) • وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الجليس الصـالح كمثل صاحب المسك ان لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير ان لم يصبك من سـواده أصابك من دخانه » (رواه أبو داوود) • وقال عليه الصلاة والسلام : « مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين تعير الى هذه مرة والى هذه مرة » (لمسلم والنسائى) • وقد كره الفقهاء مخالطة الفساق ورفع الكلفة معهم • من هذا كله ندرك ما هو الأصل فى حق المسلم فى قضية الخلطة والعزلة • ولعل أوضح شيء فى هذا الباب قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة عندما سأله : فيم تأمرنى ان أدركنى ذاك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وامامهم • قال فان لم يكن للمسلمين جماعة ولا امام ؟ قال : « اعتزل تلك الفرق كلها (أى فرق الضلال) ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » (رواه البخارى) • فلا عزلة عن الجماعة الاسلامية ، والعزلة كل العزلة عن الضلال وأهله • هذا هو الأصل العام فى حياة المسلم فى قضية الخلطة والعزلة • فاذا اتضح هذا الأصل ندرك متى تجب العزلة المطلقة فى حياة المسلم ؟ واذا وجبت فعليه أن يجاهد نفسه ليحملها عليهـا لأن من طبيعة النفس أنها تألف الأنس بالناس • ولكن اذا تأملنا الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » ••• اذا تأملنا هذا الحديث ندرك أن الحالات التى تجب العزلة المطلقة على الانسان حالات عارضة أو طارئة أو مؤقتة ومن ثم فنحن نبحث فى معرض السير الى الله موضوع العزلة كركن من أركان المجاهدة كدواء لقلب الانسان ونفسه وضرورة ذلك أحيانا فى حياة المسلم ••• هذا هو ما نعنيه ، وهذا أقصى ما نراه للمسلم فى هذا الباب الا اذا كان هناك ظرف خاص أو وضـع عارض أو طارىء • فالفتوى تقـدر زمانا ومكانا وشخصا ومن ثم فمحل بحثنا ههنا اذن هو العزلة كدواء للقلب ومحلها فى المجاهدة • فلنذر بعض عبارات الصوفية فى هذا الشأن • يقول ابن عطاء : « ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه • ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة ، كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ، أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمـع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » • فى هذه الكلمة لخص ابن عطاء مجموع المعانى التى يحتاج الانسان فيها الى عزلة كدواء • متى

---

(١) الممتحنة : ٤ (٢) الأنعام : ٦٨

استهر الانسان كثرت علائقه واذا كثرت علائقه ضاع كثير من وقته بسبب هذه العلائق ، واذا ضاع كثير من وقته تعذر عليه تكميل نفسه علما وعملا وحالا • فهذه حالة من أجلها تطلب العزلة واذا خلا الانسان بنفسه وجال بفكره في ملكوت السموات والأرض ، انعكس ذلك على قلبه صلاحا • فهذه حالة ثانية من أجلها تطلب العزلة • وما دام الانسان يخالط فصفاء قلبه ضعيف وانطباع الأشياء فى هذا القلب قوى ، وعزلة معها فكر وذكر تساعده على جلاء مرآة قلبه • وما دام الانسان فى خلطة فكثير من مثيرات الشهوات يمكن أن تجر قلبه والعزلة تقطعه عن مثل هذا • وذلك يساعد قلبه على التحرر من رق الشهوات فهذا جانب آخر تساعد عليه العزلة • وما دام الانسان على خلطة فالغفلة تغلبه فاذا أتيحت له عزلة مع ذكر وفكر فان هذا يساعده على يقظة قلبه وما دام القلب كثير الخلطة فهو كثير الهفوات • وهذا يحول بينه وبين فهم دقائق الاسرار• والعزلة تساعده على الخلاص من هفوات القلب وعلى التأمل لصالح فهم دقائق الاسرار • هذه مجموعة من المعانى التى اعتمدت من أجلها العزلة الشاملة أو العزلة الجزئية كجزء من مجاهدة النفس ، بل كركن فيها مع ملاحظة أن ذلك كله ينبغى أن يكون مرحليا فى حياة الانسان وألا يكون على حساب واجبات الوقت وآدابه وتضييع حقوقه ، ولعل فى خلوة رسول الله صلىالله عليه وسلم فى غار حراء قبل الوحى ما يمكن أن يستأنس فيه للعزلة الشاملة • وفى سنة الاعتكاف ما يمكن أن يستأنس فيه للعزلة الجزئية•

وعلى كل الأحوال فالعزلة اذا لم يكن فيها تضييع حق أو واجب فهى من باب المباحات وحتى ولو لم يترتب عليها أى مصلحة أما اذا ترتب عليها مصالح من اصلاح قلب أو تحصيل علم أو زيادة ايمان فانها تنتقل من كونها مباحة الى ما هو أرقى من ذلك • فاذا تعينت طريقا لتحقيق فرض أو للتخلص من حرام فقد تأخذ طابع الفرضية • ولم يزل كل المفكرين فى العالم يجدون فى العزلة فرصة للتأمل وانتاج الأفكار • ولذلك كان الانكار على من يعتزل عزلة مؤقتة ، شاملة أو جزئية للتخلص من داء أو لتحقيق مصلحة علميةأو ايمانية ما دام ليس على حساب حق أو أدب وقت • ان من ينكر ذلك ، ابصاره للامور ضعيف وآفاقه الفكرية ضيقة • ونكتفى بهذا القدر فى الاشارة الى الركن الأول من أركان المجاهدة فى اصطلاح السائرين الى الله •

ولننتقل الى الركن الثانى من أركان المجاهدة فى اصطلاح السائرين الى الله ، وهو الصمت • ان تهذيب اللسان فى الاسلام من أهم الأمور على الاطلاق ولذلك نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يضمن لى ما بين لحييه (أى لسانه) وما بين فخذيه أضمن له الجنة » (رواه

أبو داوود) • ويقول عليه السلام : « أو لا أدلك على ملاك الخير كله » • قال : « كف عليك هذا ـ وأشار الى لسانه » • قال : « وانا لمؤاخذون بما نتكلم به • قال : « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم » • أو كما قال عليه الصلاة والسلام • فضبط اللسان على مقتضى شرع الله من أهم الأمور على الاطلاق ومن أصعبها على الانسان وعلى النفس البشرية • والأصل فى قضية اللسان ، ألا يستعمله الانسان الا فى الخير وأن يضبطه عن كل شر بل أن يضبطه عن اللغو فضلا عن الشر •

قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (رواه البخارى) • وقال تعالى : **((لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما))**(١) • وقال تعالى : **((وتناجوا بالبر والتقوى))**(٢) • وآفات اللسان التى ينبغى أن يجنب المسلم لسانه اياها كثيرة جدا ذكرها الغزالى فى احيائه وعددها فلتراجع هناك • وعلى هذا فالأصل فى موضوع اللسان أن يحفظه الانسان من دائرتى الاثم واللغو وأن يستعمله فى دائرة الخير ، والتمييز بين ما هو خير وشر وما هو لغو وحق يحتاج الى علم واسع وضبط كثير للنفس •

فاللسان هو أداة التعبير الأولى عن النفس ، والنفس ميالة لأشياء كثيرة ، واللسان أقرب الطرق للتعبير عن هذه الأشياء • وما أكثر الأشياء التى تميل اليها النفس ولا يصح أن تظهر على اللسان • النفس ميالة للفخر وميالة للسباب والخصام اذا غضبت وميالة للمسامرة حتى فى اللغو وميالة أحيــانا لانتقاص الآخرين وميالة لأن تشعر الآخرين بفضلها ، كل ذلك وأمثاله كثير مما لا ينبغى أن يعطى المسلم نفسه مداها فيه • وعليه أن يعود نفسه على الانضباط فى ذلك ومقدمة ذلك كله التحكم فى اللسان • ومقدمة التحكم فى اللسان تعويد الانسان نفسه على الصمت ثم الكلام المنضبط على الأصول • ومن لم يعود نفسه على الصمت صعب عليه أن يعتاد وزن كلماته قبل أن يتكلم • فهذه واحدة من جملة معان اعتمد بسببها تعويد الانسان نفسه على الصمت جزءا من المجاهدة وضرورة من ضرورات السير الى الله عز وجل • وقد يحسن أن يقول الانسان الكلمة الخيرة ولكن قد لا يحسن أن يقول الكلمة الحكيمة • فمثلا أن تذكر الناس فى الآخرة وأن تحذرهم من سخط الله وأن تذكرهم بناره هذا خير ، ولكن اذا فعلت ذلك على مائدة الطعام لا تكون حكيما • ولذلك كره الفقهاء للانسان أن يذكر بمثل هذه الشئون فى مثل هذه الحال لان ذلك يتنافى مع أدب المقام فهذا مثال يوضح كيف أن الكلمة قد

---

(١) النساء : ١١٤ (٢) المجادلة : ٩

تكون خيرة ولا تكون حكيمة وهذا موضوع واسع جدا لا يستطيعه أحد الا بتوفيق من الله ولذلك قال تعالى : « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** »(١) ٠ وتعويد الانسان نفسه على الصمت مقدمة لاعتياد الانسان على أن يحاكم كلمته قبل أن يقولها ٠ وهذه حكمة ثانية من حكم اعتماد تعويد الانسان نفسه على الصمت كجزء من مجاهدة النفس وركن من أركان ذلك ، ولا شك أن اللسان هو أحد منافذ الخطأ الرئيسية والكبرى ٠ فاذا ما أفلح الانسان فى ضبطه يكون قد قطع شوطا كبيرا فى تهذيب نفسه واستقامتها ٠

والصمت مقدمة فى الضبط ، فمن نجح فى الصمت أصلا كان على أن ينجح فى الكلام المنضبط أقدر بتوفيق الله ٠ وأخيرا فاننا لو تذكرنا الحديث الشريف : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » لو تذكرنا هذا الحديث لوجدنا أن التزيد فى الحديث عامل من عوامل حجب القلب عن الغيب ولذلك كان الصمت طريقا لصلاح القلب ٠ كل هذه المعانى جعلت الصمت ركنا من أركان المجاهدة ولكن أى صمت ؟

الصمت الذى هو دواء والذى هو مقدمة فى ضبط اللسان فهو صمت مرحلى ، والصمت حيث لا يكون الكلام واجبا أو مفروضا ٠ أما اذا كان الكلام واجبا أو مفروضا كأمر بمعروف أو نهى عن منكر أو تعليم واجب فالصمت عندئذ حرام ٠ ضمن هذه الشروط يحسن الصمت كجزء من مرحلة فى حياة الانسان ، فالصمت وسيلة لا غاية ولمرحلة فى الحياة ريثما تستقيم النفس لا لكل الحياة ٠٠٠ على ضوء ذلك كله نفهم قضية الصمت كركن من أركان المجاهدة للنفس ٠ فلننتقل الى الركن الثالث من المجاهدة وهو الجوع : يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى أخرجه الطبرانى باسناد حسن : « عليكم بالحزن فانه مفتاح القلب ٠ قالوا يا رسول الله وكيف الحزن ؟ قال : أخنعوا أنفسكم بالجوع وأظمئوها » ٠ من هذا الحديث نرى كيف أن الجوع يمكن أن يكون دواء للنفس فى بعض أحوالها وأمراضها ٠

ويقول عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم البـاءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفـرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » (رواه البخارى) ٠ وكذلك نجد فى هذا الحديث كيف أن الجوع يمكن أن يكون دواء للنفس فى بعض حالاتها لأن الصوم من جملة معانيه أنه جوع وعطش فاذا رافق الصوم توسع كثير فى الأكل ليلا لم يؤد الغرض منه فى كسر حدة الشهوة ، فالصوم نهارا ، وعدم التوسع فى الطعام ليلا هو الدواء لهذه الحالة ٠

---

(١) البقرة : ٢٦٩

اذا اتضح من هذين الحديثين كيف أن الجوع يمكن أن يكون علاجا لبعض حالات النفس نكون قد وضعنا الأساس الذى نفهم على ضوئه فكرة اعتماد الجوع كركن من أركان المجاهدة فى مرحلة من مراحل الحياة ، ومراحل السير الى الله ٠

فلنر بشكل أوسع ما يعمق ادراكنا لهذه القضية ٠٠٠ القاعدة العامة فى الاسلام فى موضوع الطعام هى : أن الأكل والشرب بالقدر الذى يقيم أود الانسان حتى يستطيع القيام بالفروض والواجبات ٠ الأكل بهذا القدر فرض والتوسع فى الطعام لدرجة الشبع المباح ، والاسراف فيه حرام ، قال تعالى : **« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »**(١) ٠ والاسراف قضية نسبية تختلف باختلاف الناس وأحوالهم واختلاف العصور والأوضاع الاقتصادية ٠ واذا كان الأكل حتى الشبع مباحا فأن يعطى الانسان نفسه كل شهواتها حتى المباحة ٠ ان ذلك يتنافى مع الذوقية الاسلامية والروحانية العامة للاسلام ٠ ثم ان النصوص تشير الى السمنة كمرض فى المجتمع الاسلامى ٠ ففى الحديث فى ذم خلف طالح يأتى بعد سلف صالح « يشهدون ولا يستشهدون ٠ ويخونون ولا يأتمنون ويظهر فيهم السمن » (متفق عليه) ٠ فالتوسع فى الطعام ، واهمال قضايا الجسم حتى يصل الانسان الى السمنة موضوع مرضى فى المجتمع الاسلامى والنصوص واضحة فى ذلك من كل ذلك ندرك أنه ، وان كان الأكل حتى الشبع مباحا فان الشبع الدائم فى حياة المسلم ليس هو الأصل ولذلك نجد الحديث الصحيح يقول : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان لم يكن فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » (رواه الترمذى) ٠ أو كما قال عليه الصلاة والسلام ٠ هذا هو الأصل الأغلبى فى حياة المسلم ، فاذا أهمل المسلم هذا الأصل فبطرت نفسه أو استعصى عليه ضبطها أو حتى وهو يلاحظ هذا الأصل ان استعصت عليه نفسه أو بطرت فان عليه أن يداوى ذلك كله بالجوع ، بالصوم أو بدون صوم ، وكذلك الحال لو أنه أصابته سمنة مرضية نتيجة لاهمال نفسه فعليه أن يداوى نفسه بالجوع غير المضر أو بنوع من السياسة يتخلص فيها من هذا الحال ، ولئن كان الجوع علاجا والشبع مباحا ــ فلا بد من ملاحظة الضرر فى الحالين فكل ما أدى الى ضرر جسمى أكيد فهو محرم ، وكل ما أدى الى ضرر محتمل فهو مكروه ومن ثم فلا بد من ملاحظة ذلك ٠

وعلى ضوء ذلك كله نفهم قضية الجوع كركن من أركان المجاهدة ، ولا تنس أن الصوم كجزء من المجاهدة بالجوع هو الأرقى ٠٠٠

---

(١) الأعراف : ٣١

وبقى الركن الرابع فى باب المجاهدة وهو السهر : ان عدم تحكم المسلم فى نومه قد يترتب عليه تفريط خطير فى كثير من الأمور فصلاة الفجر جماعة قد تتعرض للخطر والاستغفار بالأسحار قد يتعرض للخطر ، وقيام الليل والتهجد قد يضيعان وصلاة العشاء فى جماعة وأوراد ما بعد الفجر وأشياء كثيرة يمكن أن يصيبها خلل نتيجة لعدم تنظيم الانسان نومه وتعود نفسه على التحكم فى شأن النوم وخاصة فى عصرنا الذى غلبت فيه طرائق الحياة الغربية على بلادنا ٠ ان الغربى ينتهى من عمله فينـام ثم تأتى فرصة لهوه ومتعته فيستمر بها الى وقت متأخر من الليل ثم ينام الى ساعة متأخرة ليذهب الى العمل ٠ هذا هو الوضع الغالب هناك وهو وضع أصبح هو الغالب على الكثير منا بحكم ارتباط حياة الانسان المعاصر بأجهزة التليفزيون ونشرات الأخبار فى الراديو وغير ذلك ٠ هذا الوضع تضيع معه كثير من الفروض والنوافل والسنن الاسلامية ولذلك لا بد له من علاج وأمر النوم فى كل عصر يحتاج الى علاج وتحكم ولكنه فى عصرنا يزداد الطلب له ٠

وان لليل فى الاسلام لشأنا خاصا ٠ قال تعالى : **((ان ناشئة الليل هى أشـد وطأ وأقوم قيلا))** ٠ فأن ينشىء الانسان العبادة فى الليل فذلك ثقيل عليه وله بذلك أجر وان لعبادة الليل من الصفاء ما ليس لغيرها ومن التأثير فى النفس ما ليس لغيرها ومن الفهم للمعانى فيها ما ليس لغيرها وقد جاءت هذه الآية فى سياق قوله تعالى : **((يا أيها المزمل ٠ قم الليل الا قليلا ٠ نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ٠ انا سنلقى عليك قولا ثقيلا ٠ ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ٠ ان لك فى النهار سبحا طويلا ٠ واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا))(٢)** ٠ ان لليل فى الاسلام لشأنا وتكفى هذه الآيات السابقة لادراك ذلك ٠ ومن مظاهر هذا الشأن ما نجده فى الأحاديث التالية : أخرج الترمذى باسناد حسن : « قيل يا رسول الله : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات » وأخرج الستة الا النسائى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : « من يدعونى فأستجيب له ٠ من يسألنى فأعطيه ٠ من يستغفرنى فأغفر له » ٠ وان لقيام الليل فى الاسلام لشأنا وكذلك للدعاء والاستغفار فى الثلث الآخر من الليل ، وكذلك لصلاة العشاء وصلاة الفجر فى جماعة ، وكذلك لأوراد ما بعد الفجر « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما صلى الليل كله » (رواه مسلم ومالك) « ان هاتين الصلاتين « الصبح والعشاء » أثقل الصلاة على المنافقين ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبوا على الركب » (رواه أبو داوود وغيره) ٠ « من صلى الصبح فى جماعة

(١) المزمل : ١ ـ ٨

ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس • ثم صلى ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » من كل ذلك ندرك ماهية المراد بمجاهدة النفس فى شأن السهر ولماذا كان السهر ركنا من أركان المجاهدة ومن كل ذلك ندرك أن السهر نفسه ليس هدفا بل قد يكون مكروها اذا لم يتحقق الهدف منه ففى الحديث : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره النوم قبل العشاء والحديث بعده » (متفق عليه) • السهر الذى يرافقه لغو مكروه فكيف اذا رافقه حرام • أما السهر الهادف الملىء بالعلم والعمل والذكر والقيام وقراءة القرآن بما لا تضيع معه صلاة جماعة ••• مثل هذا السهر هو المراد فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمر هو وأبو بكر فى شئون المسلمين (متفق عليه) وكان من سنة داوود عليه السلام أنه كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثة ثم ينام سدسه • اذا أدركنا قضية السهر فلنتذكر أن النوم حاجة عادية للانسان وعندما نطالبه بالسهر فانما نطالبه بتعويد نفسه على حياة اسلامية كاملة ومن ثم فعلى المسلم أن يعوض احتياجات جسمه الى النوم فى أوقات أخرى اذا فاته حظه من ذلك فى الليل ولذلك كان من السنة القيلولة وهى نومة ما قبل الظهر ومن فاتته يستطيع أن يعوضها فيما بعد الظهر والأمر واسع وبهذا كله أدركنا مضمون هذا الركن الرابع من أركان المجاهـدة •

ومن الملاحظ أن لهذه الأركان صلة ببعضها فمن شبع كثيرا احتاج الى النوم الكثير ومن لم يجاهد نفسه بالصمت قد يضيع عليه سهره والعزلة تساعد على التحكم فى قضايا السهر والصمت والطعام • ولعله من خلال عرضنا لقضية أركان المجاهدة ، عرفنا لم اعتبرت هذه القضايا الأربعة أركانا فيها • انه اذا استطاع المسلم أن يتحكم فى كلامه وطعامه ونومه وخلطته فقد أصبح على أبواب الخير كله وقد أصبح بامكانه أن يتحكم فيما سوى ذلك وأن يمر الانسان على دورات فى حياتهينظم فيها هذه الشئون لينطلق بعد ذلك فى حياة تنضبط فيها هذه الأمور ضمن حدين أدنى وأعلى فان ذلك هو الوضع العادى فى حياة المسلم •

ولنعد الآن الى فكرة الدورات الروحية لنضيف اليها عنصر المجاهدة مع الأوراد والأعمال الأخرى • افرض أننى قررت أن أقيم لنفسى دورة روحية نفسية مقدارها أربعون يوما وليس الأربعون شرطا كما رأينا من قبل • ولكن هناك نصوص كثيرة يمكن أن نستأنس بها لموضوع الأربعين يوما • منها قوله تعالى : « **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة** »(١) ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : « من صلى أربعين

---

(١) الأعراف : ١٤٢

يوما فى جماعة لم تفته التكبيرة الأولى كتب الله له براءتين ، براءة من النار وبراءة من النفاق » (رواه الترمذى باسناد حسن) • ومنها هذه الرواية : قال عمر لرجل : كم رابطت ؟ قال : رابطت ثلاثين • قال : ألا رابطت أربعين ، فالأربعون اذن لها ما يستأنس فيه ، فاذا قررت أن أقضى هذه الأربعين بأقل قدر من الخلطة مع عدم التفريط بالواجبات ورتبت أمر طعامى بحيث أكتفى باللقيمات فيها ورتبت أمر سهرى ونومى فى اليوم بما يحقق أهداف السهر والنوم ورتبت أمر كلامى بحيث لا أقول الا ما يلزم هذا مع ترتيب أمور العلم والصلاة والصوم والأوراد وقراءة القرآن مما مر معنا من قبل فانني بذلك أكون قد جمعت فى هذه الدورة أنواعا من المجاهدة والمعالجة بآن واحد فاذا رتبت هذا كله مع قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو مع قضية الدعوة الى الله ، أو مع قضية عمل جهادى أو تدريب جهادى أو مع برنامج علمى مكثف فان الدورة يكون مردودها كبيرا ، على أنه يمكن أن يكون لكل قضية دورة تلاحظ بها هذه القضية بشكل أخص مع بقية الواجبات •

على أنه اذا فاتنا أن نرتب هذه الأمور من خلال دورات طويلة فلنرتب ذلك بشكل آخر • واذا فاتنا قضية الدورات مع التفرغ فبالامكان أن نرتبها مع العمل الحياتى وما لا يدرك كله لا يترك جله وطريق الجنة صعب ويحتاج الى ثمن • « ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة » • (رواه الترمذى) •

الباب الحادي عشر

في السير إلى الله من بدايته إلى نهايته

وفيه : قضية معالجة أمراض النفس البشرية كجزء من المجاهدة وأنواع السائرين

يبدأ السير الى الله عادة بانبعاث الهمة أى توجه الارادة الى الله ٠ وههنا يكون غموض وقد يحدث خطأ ، ولنتصور أن انبعاث الهمة أو توجه الارادة رافقه تعرف على مرشد كامل فماذا يفعل المرشد الكامل أى الوارث النبوى الكامل ؟ الجواب البسيط أن المرشد يسير كان انسان بحسب ما يليق بحاله فمن كان عنده استعداد عال جدا سار به فى طريق الوراثة النبوية الكاملة ، ومن كان استعداده أدنى سار به فى طريق أقل مشـقة ومن كان حاله أدنى أعطاه بقدر حاله ٠ وهكذا نجد بشكل تلقائى دوائر بدايتها دائرة السائرين فى طريق الوراثة وأخراها طبقة المبتدئين والحواشي والمتبركين والدائرين فى فلك حلقة الشيخ وهكذا وكل ذلك منضبط بضوابط ، ولكن فراسة الشيخ تبقى ذات صلة كبيرة فى السير ، هذه صورة للسير ولكن قد لا يوجد الشيخ المرشد الكامل فما العمل ؟ وكيف تكون صورة السير ٠ كل ذلك نحب أن نمسه مسا رفيقا فى هذا الباب وستأتى فى أبواب لاحقة ، قضية الشيخ والمرشد الكامل وما له صلة بهذه المعانى ونرى هناك خطورة شأنها وكثرة الأغلاط فيها وكثرة المدعين لمقامها بل لو قلنا انها علة العلل فى كل أغلاط الصوفية لم نبتعد كثيرا فلنؤجل الكلام عن هذا الموضوع الى هناك ولنتكلم ههنا مفترضين حالتين فقط : الأولى وجود المرشد الكامل أى الوارث النبوى الكامل ، أى الولى المرشد فى اصطلاح القرآن والثانية عدم وجوده ٠

اذا جاء انسان الى مرشد كامل فالمفروض أن يكون عنده اسـتعداد للطاعة فى المعروف وأؤكد على كلمة (الطاعة فى المعروف)لأن ما سواها لا يجوز وبالتالى فالولى المرشد يدله على ما ينبغى فعله بما يناسب حاله ٠ وبشكل عادى يأمره بالعلم والذكر ٠ ولكن يسير كل انسان فى العلم بما يناسب حاله

وفى الذكر بما يناسب حاله وهمته ووقته • ومن خلال العلم والذكر وفى أجواء الوعظ وحضور حلقات الذكر وفى جو المذاكرة تظهر أمارات الصدق عليه وعلامات القبول لديه ويرى مدى استعداده لسير أرقى وأعلى • وفى هذه المرحلة لا بد من تنبيهه على شروط التوبة ولا بد من الاستغفار الكثير ولا بد من التخلص من حقوق العباد بطريق ذلك • وفى هذه المرحلة لا بد من أن يفهم فضيـة جمـاعة المسلمين ووجوب تحرير ولائه لهم لأنه بدون ذلك لا يشم رائحه الايمان الذوقى • ومما يلاحظه الشيوخ أنه من جاءهم كائنا من كان تبلوه على أمل انه اذا عاش فى أجواء الايمان أن ينتقل من طور الى طور • هذه هى المرحلة الاولى فى السير وهى بمثابة حرث الأرض وبذرها بالنسبة للسالك وعبر عن هذه المرحلة بعضهم بقوله :

فان أتى القوم أخـو فتون   وقال يا قـوم أتقبـلون ؟
تقبلوه صـــادقا أو كاذبا   اذ كان محتوما عليهـم واجبـا
وحـــذروه من ركـوب الاثم   وأمـروه باقتبـــاس العـــلم
وأمـــروه بلزوم الطـــاعة   والمـــاء والقـبلة والجمـــاعة
وقرروا فيـــه شروط التوبة   وأمــــروه بلزوم الصحبـــة
ثم أمـدوه بعـــلم ظـــاهر   حتى استقامت عنـده السرائر

وهكذا تنتهى هذه المرحلة بظهور علامات الصلاح عند المريد لتبـدأ المرحلة الثانية : وهى مطالبة المريد بالمجاهدة المنظمة لنفسه ، من تعويد لها على صمت حكيم وجوع معتدل هادف وعزلة مربية وسهر ملىء بالخير مما مر معنا من قبل ، وذلك بمثابة تطييب للارض المبذورة ، وههنا تبدأ تظهر للمريد نتيجة للمجاهدة وللاوراد وللعلم صفات نفسه وأمراضها ، وعندئذ يبدأ الشيخ تنبيهه على ذلك • وهذه المرحلة بمثابة قلع الحشائش الضارة من الأرض وابقاء النبات الطيب فيها أو بمثابة تقليم الشجر وتخليصه من شوكه وأعواده غير المهذبة • فهى بالنسبة للانسان تهذيب وتشذيب •

وما أقل العارفين فى هذا العلم الذين يعرفون الصحة من المرض ويعرفون ما ينبغى تشذيبه وما ينبغى ابقاؤه فى هذه المرحلة ، بل ما أكثر الذين يميتون الطيب ويبقون الخبيث • ولنا عودة على هذا الموضوع • وفى تبيان هاتين المرحلتين من السير قال بعضهم :

اذ للمـريد عنـدهم حـــدود   لاجلهـا قيـــل لـــه مـــريد
فعندهـــا رد الى الأوراد   كالصمت والصـوم مـع السـهاد

وعاملوه بالمعاملات اذ علموا مختلف العلات
لكن أحالوا على الأعمال لأجل ما فيها من النوال
اذ الطريق العلم ثم العمل ثم هبات بعدها تؤمل
حتى اذا أحكم علم الظاهر وأبصروا القبول فيه ظاهر
ألقوا اليه من صفات النفس ما كان فيها قبل ذا من لبس
وهى اذ أنكرتها فلتعرف احدى وتسعين وقيل نيف

وفى هذه المراحل كلها بل وفى كل المراحل يبقى السير العلمى موجودا وتبقى المجاهدة قائمة على تفاوت فى الشدة ، وتبقى الأذكار والأوراد والأعمال مطلوبة وهكذا ، يقول ابن عطاء : « لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك » •

ثم تأتى المرحلة الرابعة وهى ظهور ثمرات البذور ، بذرة الفطرة وبذرة التعليم ، بذور التوحيد وبذور معرفة الله عز جل ، وبقدر ما تكون المعرفة بالله كاملة ، تكون الثمار مرجوة ومن ثم فان التركيز فى هذه المرحلة يكون على شيئين : على تعميق المعانى الذوقية وعلى أن تظهر ثمرات التوحيد فى سلوك الانسان • « فالتصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف » • ففى مجال معرفة الله يؤكدون على الوصول الى الفناء بالأفعال والصفات والذات • وفى مجال ثمرات ذلك يؤكدون على التخلق بأسماء الله مع العبودية الكاملة لله ، وفى هذه المقامات تقع أغلاط وتقع انحرافات وتكون شطحات • ويستمر السير ليكمل الانسان فى مقام التعامل الأرقى مع الحق ومع الخلق بآن واحد على مقتضى الشريعة ، فاذا ما اجتمع له مع هذا كله علم بالكتاب والسنة وعلم بتزكية النفس وتربيتها ، وعلم بكل ما يلزم المسلم من علوم لنفسه ولغيره وأشياء أخرى كثيرة فان هذا الانسان استحق أن يجاز بمرتبة الارشاد • والسائرون بعد ذلك درجات ، فمنهم من يستأهل أن يصل الى درجة نقيب يكون بمثابة الواسطة بين الشيخ وبقية المريدين ومنهم من تكون مهمته التلقى والتنفيذ ومنهم من يبقى فى فلك الجميع سائرا • التزامه قليل ومحبته كثيرة ولكل محله فى السير •

ولنفرض فرضا أن المرشد الكامل لم يوجد وهو الغالب فى عصرنا ، اذ أننى لا أعلم أن أحدا فى هذا العصر توافرت فيه شروط المرشد الكامل الا حسن البنا رحمه الله •

ففى هذه الحالة يكون أدب السائر الى الله الالحاح على العلم والاكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمذاكرة مع كل من يمكن أن يأخذ عنه شيئا وحسن التأدب مع جميع المتصدرين للارشاد مع تمحيص كل ما يسمعه على ضوء العلم والفقه وعدم الالتزام بشخص بعينه بأن يعطيه بيعة الا بعد معرفته بحدود البيعة المتعارف عليها عند الصوفية ٠ وانه فى النهاية واصل باذن الله الى كل خير ولا يسمع لدعاوى جهلة الصوفية الذين يدعى كل واحد منهم أنه اذا لم يسلك الخلق على يد شيخهم فانهم لا يعرفون الله ولا يصلون اليه ٠ فهذه جهالة مركبة فكبار العارفين بالله ــ كالشيخ الرفاعى رحمه الله ــ يقولون : نهاية العلماء والصوفية واحدة ، فما يصل اليه الصوفيون بكثير العبادة مع قليل العلم يصل اليه العالم بكثير العلم مع قليل العمل ٠ يقول ابن عطاء : « وصولك الى الله وصولك الى العلم به » ٠٠

وفى هذه الأمور كلها توجد أخطاء وأغلاط ومغالطات ومسالك خاطئة ٠ ومن خلال عرض الخطأ والصواب سندرك باذن الله موضوع السير الى الله بشكله الصحيح :

١ ــ ان فكرة المريد واسمه عند الصوفية أخذت من قوله تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** »(١) ٠ فالارادة اذن لله والمريد ، مريد الله ، وعلامة مريد الله أنه يعبد الله صباح مساء أى فى كل الأوقات ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه مأمور بأن يلزم هؤلاء وأن يصبر نفسه معهم ولا يسمح لعينه أن تتطلع الى سواهم رغبة فى زينة الحياة الدنيا ، ومأمور بألا يطيع الغافل عن وحى الله ، وألا يطيع المتبعين أهواءهم والسائرين وراءها ٠ وقد رأينا شيوخا يعتبرون المريدين عبيدا لهم ويعمقون معنى الارادة للشيخ دون أن ينبهوا تلاميذهم على جوهر الارادة ولمن هى ٠ كما رأينا بعضهم بقدر ما يتعالى على تلاميذه يتواضع لأصحاب الدنيا وبعضهم يطيع الكافرين فى المؤمنين المسلمين ويتقرب الى الكافرين بحرب أهل السلام ٠

٢ ــ انه لا سير الى الله الا بسحب الولاء من أهل الكفر والنفاق والفسوق واعطائه لأهل الايمان وجماعة المسلمين ٠ يقول عليه الصلاة والسلام « أن تلزم جماعة المسلمين وامامهم » (من حديث رواه البخارى) وقال تعالى : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** »(٢) ٠ ولقد رأينا شيوخا لا يهمهم أن يكون مريدهم معطيا ولاءه للكفر وأهله ما دام ملتزما به ، بل رأينا

---

(١) الكهف : ٢٨ (٢) التوبة : ٧١

شيوخا اذا أعطى المريد ولاءه للعاملين للاسلام هجروه بل طردوه ، واذا أعطى ولاءه لغير الاتجاهات الاسلامية سكتوا عنه بل حبذوا له ذلك ٠

٣ ـ انه لا سير الى الله بلا علم وذكر ، ولقد رأينا شيوخا لا يعطون المريد علما أو ذكرا طوال حياته بل يعلقونه بأشخاصهم وكأن ذلك وحده هو الاسلام ٠

٤ ـ وفى موضوع المجاهدة اما أنك تجد تفريطا أو افراطا فاما مجاهدة غالية على غير سنة واما اعطاء للنفس هواها حتى رأينا من مدعى السلوك الى الله من الفسوق ما تضج منه الأرض ٠ نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ٠٠

٥ ـ وفى موضوع الشيوخ والارشاد ما أكثر الدعاوى وأكثر الأخطاء وأكثر العصبية المظلمة وهذا موضوع سنراه تفصيلا ، وكم من شيخ يطالب مريده بالتسليم المطلق وهو لا يصلح أن يسلم عقلا أو قلبا فى زمن مضى ٠ فكيف فى عصر لا يصلح للتصدر فيه للارشاد الا من اجتمع له من العلم والتربية والوعى ما يسع العصر وأهله وأنى ذلك الا ٠٠٠

٦ ـ وفى موضوع معالجة الأمراض ما أندر من يذاكر فى هذا بل ما أندر من يفطن لأمهات الأمراض بل ما أكثر من يعتبر الصحة مرضا والمرض صحة ، وما أندر من يركز على أمراض العصر وأمراض المسلمين ٠ وعند هؤلاء يصبح التطلع للجهاد مرضا ٠ والعمل لتكون كلمة الله هى العليا رجسا ، بل الكلام فى ذلك يحتاج الى غسل كالجنابة ٠ ألا قاتل الله الجهل ٠ وعند الكثيرون من هؤلاء لا قواعد ولا ضوابط ولا سير نحو حياة اسلامية كاملة ٠٠ ثم وثم ٠٠

٧ ـ وفى موضوع السير الى الله أصلا ما أكثر الجهل وما أكثر الغلط ، فالسير الى الله ملخصه كلمتان :

انتقال فى النفس من حالة دنيا الى حالة أرقى وعلم صحيح بالله ، يقول ابن عطاء :

لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين

وصولك الى الله ، وصولك الى العلم به

والا فجل ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء

قربك منه أن تكون مشاهدا لقربه ٠

وكثيرون من الناس يظنون الكفر وصولا الى الله وتغلب عليهم أوهام ما أكثرها ٠

٨ ـ ويرافق السير الى الله عند الكثيرون غرور يحتقرون به الناس جميعا من زهاد لعباد لعلماء كما يرافقه تحذلق وتشدق ورغبة فى فلسفة الأمور مما يذكرنا بقول معاذ رضى الله عنه « وان وراءكم فتنا يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير ٠ فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن وما هم بمتبعى حتى أبتدع لهم غيره فاياكم وما ابتدع فانما ابتدع ضلالة » ٠

٩ ـ ومعرفة الله ينبثق عنها أخلاقية معينة والتزام معين وكل ذلك مفصل بالسنة وما أكثر ما تفتقد هذه الأخلاقية وهذا الالتزام ٠٠ هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قضوا حياتهم فى الجهاد حتى دفنوا فى كل أرض وتحت كل سماء وعند الكثيرين من هؤلاء يصبح التفكير فى الجهاد جريمة، وأخلاقية الصحابة معروفة ، وعند الكثير من هؤلاء نجد اهتمامات الصحابة تكاد تكون معدومة ٠

١٠ ـ وما أكثر ما يتصدر لمقامات ارشاد الخلق أكثر الناس جهلا ، وهذا مقام لا يصح أن يتصدر فيه من لم يرث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم والعمل والحال ٠

١١ ـ ويرافق السير الى الله اجتماع وانشاد وتصحبه أمور ويتطلب آدابا وفى كل واحدة من هذه نجد طامات عند الكثير ممن لهم صلة بهذه الشئون ٠ فليكن الباب اللاحق فى مساعدات السير ومنشطاته والأغلاط فيها ٠

الباب الثاني عشر

مساعدات السير ومنشطاته

يلاحظ بشكل واضح أن اقبال الناس على الله وعلى السير اليه يزداد فى حالات ، كما أن السالك الى الله عز وجل تمر عليه فترات من الكسل وذلك شىء عادى ، هذه الحالات التى تزيد من اقبال الانسان على الله تعالى أو تجدد همته ان فترت كثيرة ، منها الاجتماع على علم أو على قراءة قرآن أو على ذكر أو على مذاكرة ومنها الانشاد ومنها المطالعة فى كتب السير الى الله وقصص الصالحين · وعلينا أن نلاحظ أن بعض هذه الأمور قد يحقق من ناحية فرضا ، ويكون بنفس الوقت منشطا على السير أو مجددا للهمة كالاجتماع على علم مفروض مثلا · وفى قضايا الاجتماع أو قضايا الانشاد أو قضايا المطالعة فى كتب السير الى الله ، وقصص الصالحين وكلها مساعدة على السير توجد أمور لا بد من ملاحظتها وهناك أخطاء يجب التنبيه عليها وقبل أن نبدأ عرض هذه الأمور نحب أن نشير الى قضيتين : الأولى يقول عليه الصلاة والسلام : « لكل عامل شرة ولكل شرة فترة ، فان سدد وقارب فارجوه وأن أشير اليه بالأصابع فلا تعدوه » (أخرجه الترمذى وقال عنه حسن صحيح) ·

الشرة : النشاط · والفترة : الكسل · والسائر الى الله عليه أن يلاحظ نفسه بشكل دائم وعليه أن يحسن سياستها ، فاذا وجد من نفسه فترة حاول أن يحتفظ بحد أدنى من العمل وان فاته هذا الحد حاول أن يقضيه ، ومن جملة ما يسوس به نفسه فى حالة الفترة ، الاستفادة من منشطات السير التى سنذكرها ، واذن فمنشطات السير هى جزء فى الحقيقة من سياسة النفس فى أمر السير الى الله ، وليست كل هذه السياسة ·

الثانية : لكل قلب طاقة معينة على تحمل ثقل الأعمال ، فاذا حمل القلب فوق طاقته فربما حدثت فيه انتكاسة · وكذلك النفس اذا حملت فوق طاقتها أو لم تعط حاجاتها الضرورية أو بعض مطالبها المباحة فانها تغلب الانسان عندئذ · ولذلك فعلينا دائما أن ننتبه ان كنا آخذين أو معطين الى هذا الموضوع ، وفى الحديث : « خذوا من العمل ما تطيقون فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا » (أخرجه مالك والشيخان والنسائى واللفظ لمسلم) ·

وفى الحديث الآخر : « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله • قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة » (أخرجه السنة) وعلينا أن نلاحظ فى موضوع منشطات السير ألا ينقلب بعضها الى خلاف المقصود عندما يثقل كثيرا على النفس ، أو يتجاوز ببعضها أكثر مما وضع له • ولا بد أن نعرف الحكمة فى كل منها أصلا ، ولكون قضية الاجتماع بالذات تترتب عليها مصالح كثيرة ، فسنتحدث بشىء من التفصيل المعتدل عنها مبتدئين بها :

أولا ـ الاجتمـاع :

للاجتماع فى الاسلام أهمية كبيرة لما يترتب عليه من آثار حميدة بل هو لا بد منه فى حالات كثيرة لاقامة فرائض أو واجبات أو سنن فضلا عن تحصيل خيرات كثيرة فهناك اجتماعات الصلوات وخاصة صلاة الجمعة وصلاة العيدين وهناك الاجتماع لأمر جامع يهم المسلمين ، وهناك الاجتماع على علم أو ذكر أو مذاكرة • ويدخل فى الاجتماع على العلم ، الاجتماع على القرآن أو السنة أو علوم الكتاب والسنة أو الاجتماع على اللغة العربية أو الاجتماع على الفقه أو التوحيد أو التصوف المحرر أو علم أصول الفقه أو علم السيرة والتاريخ الاسلامى • أو الدراسات الاسلامية الحديثة أو التعرف على التآمر على الاسلام ، أو دراسات فقه الدعوة • كما يدخل فى الاجتماع على العلم الاجتماع على دراسة أمر يحتاجه الاسلام والمسلمون • كل ذلك يدخل فى الاجتماع على العلم سواء أخذ ذلك طابع اجتماع فى حلقة عامة أو خاصة منتظمة أو طارئة ، والأصل فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه الامام مسلم : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » •

لاحظ ماذا يترتب على الاجتماع على كتاب الله من تنزل سكينة وغشيان رحمة وحف ملائكة وذكر الله عز وجل لأهل ذلك ، وماذا يترتب على ذلك من خيرات ، فمثلا غشيان الرحمة يترتب عليه تأليف القلوب واجتماعها • قال تعالى : **« ولا يزالون مختلفين • الا من رحم ربك »**(١) فالمرحومون هم الذين لا يختلفون • ومن التعرض لرحمة الله ، الاجتماع على كتاب الله ، وتنزل السكينة يترتب عليه زياد الايمان • قال تعالى : **« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم »**(٢) والاجتمـاع على ما ذكرناه كله له صلة مباشرة فى القرآن ، أو له صلة بخدمة القرآن ، أو له

---

(١) هود : ١١٨ ، ١١٩ (٢) الفتح : ٤

صلة بتحقيق أهداف القرآن ، أو له صلة بتحقيق ما يعصم عن البعد عن القرآن وكله يدخل فى الاجتماع على العلم وفى الحديث : « اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا • قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » (أخرجه الترمذى ، وقال حديث حسن غريب) •

حمل بعضهم هذا الحديث على العلم وبعضهم على الذكر ، وفى الحديث الآخر ما يشير الى أن الانخراط فى حلقة العلم ايواء لله عز وجل « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد اذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفا عليه فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة • أما أحدهم فآوى الى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » (أخرجه الشيخان ومالك والترمذى) والاجتماع على العلم تترتب عليه مصالح كثيرة من انبعاث همة أو تعرف على حكم جديد ، أو تذكر لقضية ينبغى تذكرها ، وكل ذلك اذا كان العلم علما صحيحا والنية نية مخلصة والقائم به أهل لذلك • اذ تجتمع فى ذلك الصحبة والتلقى وامتصاص الحال القلبى الصالح ، وكل ذلك يساعد على السير الى الله وقد قالوا :

قد يرتجى الشفاء للسقيم ... مهما يكن ملازم الحكيم

والشيخ الحكيم يعرف كيف يرتب أمر الاجتماعات على العلم بحيث يسير كل فرد فيما يناسبه من سير علمى من خلال حلقات عامة وخاصة ، ويلاحظ دائما استعداد السائرين كما يلاحظ أن يرتب جلسات واعظة مهذبة وليلاحظ فى ذلك السنة وسيرة الصحابة ، أخرج الشيخان والترمذى عن شقيق قال : « كان عبد الله يذكر الناس فى كل خميس ، فقال له رجل : **يآ آبآ عبد الرّحمٰن** لوددت أنك تذكرنا كل يوم قال : أما أنه يمنعنى من ذلك ، أنى أكره أن أملكم وانى أتخولكم بموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا » وأخرج البخارى عن عكرمة أن ابن عباس قال : « حدث الناس مرة فى الجمعة فان أبيت فمرتين فان أكثرت فثلاثا ولا تمل الناس هذا القرآن • ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم • ولكن أنصت • فاذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فانى عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك » ومما ينبغى أن يلاحظه الشيخ أن يسير فى الحلقات الخاصة كل مجموعة على قدر استعدادها وهمتها •

وهناك الاجتماع على الذكر ، والأصل فيه ما أخـرجه الشيخان عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « ان لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر • فان وجدوا قوما يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا الى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم الى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قالوا : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك • فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك • فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشـد لك تحميدا وأكثر لك تسبيحا • فيقول : فما يسألون ؟ فيقولون : يسألونك الجنة • فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة • قال : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : يتعوذون من النار • فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها • فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة • فيقول : أشهدكم أنى غفرت لهم • قال : يقول ملك من الملائكة : فلان فيهم ليس منهم انما جاء لحاجة • قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم » •

من هذا الحديث ندرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حض على الاجتماع على الذكر ورسم لنا الأصل الجامع الذى تقوم عليه حلقة الذكر من تسبيح وتهليل وتكبير وتحميد ودعاء ، فلو أن مجموعة اجتمعت على (سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر) وختمت جلستها بدعاء واستعاذة فانها تكون قد حققت سنة الاجتماع على الذكر كما وردت فى الحديث ، والذى يناقش فى سنية ذلك ، أى فى ثبوته فى السنة ، يخالف الفهم البديهى لهذا الحديث الذى مر معنا ، واذا كانت سنة الاجتماع على الذكر واردة فى مثل هذا الحديث الصحيح فهناك نصوص أخرى تشير الى مثل هذا ، من ذلك ما أخرجه مسلم والترمذى والنسائى عن أبى سعيد عن معاوية رضى الله عنه •

« خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للاسلام ومن به علينا » •

ومن ذلك ما أخرج الطبرانى فى الكبير باسناد حسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء • قال : فجثا أعرابى على ركبتيه ، فقال يا رسول الله : صفهم لنا نعرفهم • قال : هم المتحابون فى الله من قبائل شتى وبلاد شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه » • من مثل هذه النصوص ، انطلق الصوفية فى الالحاح على حلقات الذكر ، فقاسوا على هذه الأصول ثم توسعوا فى ذلك توسعات فى اعتمـاد

أنواع من الأذكار على طرائق شتى ، نظموا من أجلها أنواعا من حلقات الذكر حتى أصبح لكل شـيخ طريقة ، طريقته الخاصة به فى الذكر الذى يجتمع عليه اخوانه ودمج بعضهم مع الذكر الانشاد وتفننوا فى أنماط الذكر الانشادى على جلوس وقيام وحركات وتحركات وحدث نتيجة لذلك انكار كثير وخلافات كثيرة ومناقشات طويلة • وهذا كله سببه عدم التقيد فى الحدود الواضحة الدليل • وقد جعل الأستاذ البنا رحمه الله الاجتماع اليومى على الذكر جزءا من أدب المسلم • وجمع لذلك ورد الوظيفة الكبرى واختصره بالوظيفة الصغرى ، ومع أنه ورد مسنون الا أن بعضهم أنكر عليه الجمع والاجتماع وهو انكار جاهل • ولقد قلت مرة لأحدهم : افرض أن صحابيا كان يلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يسمع منه ما يندب اليه عليه الصلاة والسلام من أوراد الصباح والمساء • ثم ان هذا الصحابى التزم بها جميعا جامعا اياها بعضها الى بعض ، فهل يكون بذلك آثما ، وأضيف لو أن مجموعة من الصحابة دعا لهم أحدهم بمثل هذا كله أو طلبوا منه مثل ذلك فهل يكونون آثمين بعد أن حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصل الذكر وعلى أصل الاجتماع ؟ وعلى كل حال فان يرتب الشيخ جلسة ذكر فى الأسبوع مرة أو أكثر من ذلك أو جلسة يومية على حسب الاستعداد واحتياج السائرين فان فى ذلك كله خيرا كثيرا • ولذلك دليله الأصيل من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ونحن فى عصر طغت المـادة فيه على الروح وأصبح ظمأ القلب كبيرا • ونحن موقفنـا من حلقات الذكر التى اعتـادها بعض الصوفية بكل ما فيها موقف الفقهاء • ويبدو أن الفقهاء لم يرتاحوا للكثير مما حدث فى هذه الدوائر واختلفت عباراتهم فى الشدة واللين • ولن نسمح لأنفسنا أن ندخل معركة مع أحد لفعله وجه فقهى الا أننا فى الوقت نفسه نحب أن يكون منطلقنا فى شأننا كله : السنة •

فنحن نعمل لتأسيس حلقـات الذكر التى لا يعترض عليهـا فقيه ، وندعو الناس اليها ولا ندخل فى معركة مع أحد لتصرفه وجه فقهى ، ولكن نشرح له وجهة نظرنا دون الدخول معه فى نقاش نصل به معه الى المراء المذموم • ولقد ارتاح الكثيرون من علماء بلادنا لنوع من حلقات الذكر سموها مجالس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتمع الناس فيها وهم ساكتون يصلى كل منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل منفرد ثم بعد ذلك يقرأون شيئا من القرآن ثم يذكرون الله عز وجل بصيغة : لا اله الا الله ثم يختمون بدعاء ، وبعضهم يفعل ذلك صبيحة يوم الجمعة وبعضهم يفعله فى غير ذلك وبعضهم زاد على ذلك وبعضهم أدخل معانى جعلته محل الانكار • وعلى كل الأحوال فنحن بحاجة الى حلقات ذكر مقبولة فقها وعلما لها أدلتها الواضحة أو أنها سائرة على أصول واضحة ••• وهناك الاجتماع على مذاكرة بين اثنين أو أكثر يتذاكرون فيها فيما يقربهم

الى الله والأصل فى ذلك حديث ابن رواحة أنه كان اذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعال نؤمن بربنا ساعة • وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « يرحم الله ابن رواحة انه يحب المجالس التى تتباهى فيها الملائكة » • والمذاكرة تكون بين أخوين فى الله وتكون بين الشيخ وسالك الى الله ومواضيعها لا يمكن احصاؤها ، والاجتماع الاسلامى كله سواء كان اجتماع صلاة أو اجتماع خطبة وعظة أو اجتماعا على العلم أو الذكر أو المذاكرة كله ينشط الانسان نحو السير الى الله اذا كان الأمر مستقيما فيه •

ولذلك كره الصحابة أن يعتزل الانسان الناس الى صحراء وما يشبهها الا فى حالات خاصة جدا لما يترتب على ذلك من بعد عن خير أو غلظة فى طبع • وفى الحديث : « من بدا جفا ••• » (رواه أبو داوود والترمذى وحسنه والنسائى) • وعلى الشيخ أن يلاحظ فى ترتيبه أمر الاجتماعات وضع الناس وأحوال السائرين وتأثير ذلك على واجباتهم الدينية وأعمالهم الدنيوية وأن يلاحظ الرفق فى الشأن كله فذلك أدب المسلم : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » (متفق عليه) « ان الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه » (رواه مسلم) • « ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ولا ينزع من شىء الا شانه » (رواه مسلم) « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما » (متفق عليه) •

وقبل أن ننتقل عن هذا فلنذكر شيئين :

الأول : ان من علامة صلاح جلسة العلم أو الذكر أو المذاكرة أن يخرج الانسان منها وهو أحسن حالا وأرقى ايمانا ولكن هذا لا يحس به الا ذو قلب سليم ، أما القلب المريض فلا عبرة لمشاعره ما دام مريضا •

الثانى : ذكرنا الاجتماع فى هذا الباب كمنشط للسير وهو أمر محسوس فليجرب الواحد منا مثلا نفسه وهى على فترة وغفلة أى اذا كانت أوراده القرآنية وغيرها غير منتظمة أو أن نفسه عازفة عنها ليجرب مثل هذا الانسان أن يحضر جلسة ذكر أو علم أو مذاكرة مع صالح ثم ليلاحظ بعد ذلك اقبال نفسه على الله ، انه من المجرب أن اقباله يكون أكثر ، بل أن كثيرين يكاد يكون الاجتماع فى حقهم نقطة انطلاق جديدة ولعل هذا أحد أسرار فريضة صلاة الجمعة وخطبتها ولذلك فانه من الأهمية بمكان للمسلم فى الأوضاع العادية أن يكون له صلة بحلقات علم وذكر وصلة بجلسات مذاكرة مع صالحين ، وعلى شيوخ المسلمين أن يلاحظوا ذلك •

ثانيا ـ الانشــاد :

عرف الحداء فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حدا بعض الصحابة أثناء العمل وحدا بعضهم أثناء السير • وشارك رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا فى الحداء • وقال الصحابة الشعر وكان قسم من هذا الشعر ينشد ، تنشده الجوارى أو ينشده الرجال أثناء سير أو عمل • ومن المــألوف عند العرب أن يتغنوا بالشعر ومن شعرهم : « تغن بالشعر اما أنت قائله » الا آن السماع الأغلب للصحابة رضــوان الله عنهم ان لم يكن الدائم هو القرآن الكريم وسماع الشعر القاء أو انشادا كان موجودا ولكن اما فى مناسبة أو فى وقت راحة أو فى وقت فرح أو عرس • وفى الحديث الذى ذكره ابن كثير عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ألفين أحدكم يضع احدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرأها فان الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة • وان أصغر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله » (أخرجه ابن مردويه والنسائى فى عمل اليوم والليلة) • ان هذا يؤكد أن الأصل فى السماع فى حياة الصحابة هو القرآن •

والشعر له محله ولكن هو كالملح فى الطعام فى حياتهم ، أما الانشاد فانه له محله كذلك عندهم ولكنه قليل فى هذه الحياة الحافلة بجلائل الأمور •

وهذه أول نقطة تؤخذ على بعض الصوفية هى أن الانشاد والتمتع بالصوت الجميل أخذ حظا كبيرا من حياتهم أكثر بما لا يقاس عما كان فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم •

وفى حياة الصحابة نجد شعرهم يملا حياتهم اليومية سواء فى ذلك صراعهم مع الكفر أو فى تعبيرهم عن أشواقهم فهو يغطى الحياة الاسلامية كلها فهو يحرك مجموعة المشاعر الاسلامية ، فهو تارة يحرك مشاعر جهاد وتارة هو يعبر عن مشــاعر حنين لوطن وتارة هو تعبير عن عــزة مســلم ، وتارة هو رثاء حار وتارة هو توجه الى الله • وكثير من الصوفية حصروا دوائر الانشاد بنوع من المعانى التى تحرك بعض العواطف الصالحة ولكن لا تحرك كل العواطف التى ينبغى أن تتحرك عند المسلم • والحركة الاسلامية عوضت هذا النقص ولكنها أهملت تحريك عواطف الحب الالهى والوجد الروحى وغير ذلك مع أن هذا كله كان للاستاذ البنا فيه دور وكان يفعله الأستاذ أحيانا كما حدثنا بذلك من سمعه من الأستاذ رحمه الله وهذه نقطة تسجل على كل حال ، وفى شعر العرب وغير العرب اجمالا للرمز وللمجاز والكناية محل فقد يعبرون عن المعنى المعنوى بأسلوب حسى وقد يستشهدون ببيت وضع فى الأصل لخطاب جهة فيخاطبون

به جهة أخرى • وعند العرب أساليب كثيرة فى الخطاب والتخيل فقد يخاطبون الميت وكأنهم يتصورونه حيا ، ويخاطبون الجماد وكأنه يعقل ، وكل ذلك موجود فى شعرهم • ومن شعر العصر النبوى قول زيد الخير وهو على فراش الموت بعيدا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتشوق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فليت اللواتى عدننى لم يعدننى ... وليت اللواتى غبن عنى عودى

وقال كعب بن زهير لأخيه بجير :

سقاك بها المأمون كأسا روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا

فههنا شبه الهداية التى أخذها بجير بخمرة تشرب وشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالساقى وهذا كله جزء من طريقة العرب فى الخطاب • والصوفية انطلاقا من هذه المعانى انطلقوا بالتعبير عن المعنويات بشكل حسى فاستعملوا لفظ الخمرة للتعبير عن معان واستعملوا لفظ السكر للتعبير عن معان ثم توسعوا وتوسعوا حتى كثر الانكار عليهم من جاهل وعليم واتهموا نتيجة للتوسعات بالشرك وبالكفر • وحدثت نتيجة لذلك مناقشات طويلة فى شئون كثيرة • ولا شك أن سعة اللغة العربية وطرق الأداء فيها تساعد الكثيرين على أن يتملصوا من أى ممسك يأخذه الحرفيون ولا شك أن الحرفية فى قضايا الأدب والعاطفة ، ليست هى الطريقة المثلى فى الفهم • وهناك الحد الذى يقبله العليم ولا ينكره الحرفى ولا يؤدى بالعامى الى أن يفهم مفاهيم خاطئة • هذا الحد هو الذى ينبغى البحث عنه وتبنيه ونشره واعتماده ••• وقد لحظ الصوفية ملحظا وهم يعتمدون النشيد وهو أن النفس اذا عرضت عليها الحق من حيث تستروح فان قبولها للحق يكون أجود ومن ثم اعتبروا الانشاد فى حق المبتدىء بمثابة مراعاة له ، اذ من خلال الفة نفسه للصوت الحسن يمكن أن يتشرب بعض المعانى من الحق • كما لحظوا أن النشيد بمثابة الميزان الذى يزن به الانسان مقدار ما عنده من معان كالحب لله ورسوله وغير ذلك من معان عليا ، وقد حاولوا أن يصوغوا السير الى الله كله شعرا ومن خلال السماع لهذا الشعر يعرف الانسان مقامه ، وتتحرك همته لما هو أعلى • ولا شك أن للغناء وللشعر آثارا فى تشكيل عواطف الانسان — وقد نجح الصوفية فى تقوية كثير من العواطف من خلال النشيد وفاتهم بعض ••• وكان للصوفية دور كبير فى أن استطاعوا أن يوجدوا نوعا من البديل لأمور فاسقة ، ولذلك فمما استقر عليه أمر الناس فى العصور المتأخرة أن أهل الفسوق يجتمعون فى أفراحهم وأنسهم وتمتعهم على غناء وموسيقى وأن أهل الكثير — الانشاد والسماع عندهم هو البديل من ذلك كله • وقد شجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الانشاد فى الأعراس مراعاة لنفسية الانصار مما يصلح أن يكون أصلا فى هذا الموضوع •

وعبر مسيرة التاريخ الاسـلامى علق بالانشاد أمور كثيرة واعتمـد الكثيرون فيه معانى وصار لأهل كل طريق ولأهل كل بلد أسلوب نشـيد أو عادات مرتبطة بالنشيد ، بل أصبح لكل طريق نوع من النشيد هو علم عليهم ، وحدث خلال ذلك صراع طويل بين الفقهاء وأهل هذه الدوائر حول معان تقال أو عادات توجد • وورث أهل عصرنا هذا كله ، وككثير من الخير الذى ورثناه فان الدخن يخالطه وارتبط بموضوع الانشاد قضية الاحتفال بمولد رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ووقف النـاس فى هذا الموضوع موقفين : موقفا متشددا منكرا على الناس اجتماعهم من أجل الاحتفال بمثل هذا ، وموقفا محبذا ، وقامت معركة طويلة ولا زالت تقوم حتى الآن بسبب من ذلك • ولو أنك حللت قضية المولد فانك تجدها ترجع اما الى سرد فقرات من السيرة أو انشاد بيت من الشعر فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ان سلم مما ينكر عليه لأسباب علمية فلا حرج فيه ، وحتى ابن تيمية رحمه الله فطن الى ما يترتب على الاجتماع على المولد من معـان طيبة يستحق الناس بسببها أجرا ، وحتى ابن الحاج فى المدخل وهو من أشد الناس على البدع اعتبر أن للمسلمين عيدا ثالثا لمحت له النصوص هو عيد المولد أخذا من قوله عليه الصلاة والسلام : « ذلك يوم فيه ولدت » (من حديث رواه مسلم) • والواقع العملى يشـهد أن لاحتفال المسلمين بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم من البركات فى التذكير وفى التوبة وفى التعليم مالا تحصى آثاره ، والأستاذ البنا يعتبر من مهمات الحركة الاسلامية احياء المناسبات الاسلامية وتذكير الناس بها ومن ثم فانه يكاد يكون من البديهيات فى فقه الدعوة الاسلامية المعاصرة أن تعطى قضـية المولد النبوى والاحتفال به على طريقة مدروسة علمية مقبولة فقها أهمية خاصة •••

بعد هذا كله أصبح بامكاننا أن نقول :

١ ـ ان الانشاد فى فقه الدعوة الاسلامية المعاصرة شىء له محله على أنه يبقى كالدواء وفى حدود ضيقة كالملح للطعام •

٢ ـ انه لا بد من اختيار دقيق لما ينشد فى حلقاتنا ودوائرنا بحيث يغطى مجموعة العواطف الاسلامية ولا يخرج عن الـكلام المرضى عند الفقيه وهذا يقتضى أن يتدخل الفقيه فى اختيار الشعر للمنشد وألا نسمح للمنشد أن يقول ما شاء فى دوائرنا •

٣ ـ ان الانشاد اذا روعى فيه هذه المعانى ولم يؤثر وجوده على واجب وقت أو آدبه فانه يكون مهيجا على السير الى الله بكل لوازم السير من رغبة فى الكمال الى حض على الجهاد الى تثبيت على الطريق الى تهييج على العمل

الى تأكيد للصراع مع الكفر وهى قضايا محسة لا ينكرها الا انسان ضيق الأفق ٠

٤ ـ أن نتخير للمناسبات الاسلامية أنواعا من الشعر يلاحظ فيه المعنى والأداء على أن يكون جزءا من برنامج كلى يحقق أهدافا قريبة أو بعيدة ٠٠٠ ضمن هذا الاطار كله نفهم قضية الانشاد وعلى ضوء ذلك اعتبرناه من منشطات السير الى الله ٠

أما ما سوى ذلك فان لنا عليه ملاحظات : فمثلا ان الاكثار من السماع والاسترواح للصوت الحسن وان كان نشيدا يوجد عند أصحابه استرخاء نفسى ، هذا الاسترخاء النفسى قد يتسبب عنه اهمال للواجبات أو استعداد للوقوع فى الشهوات ٠ فالسماع أحيانا يكون غذاء للقلب وأحيانا يكون غذاء للنفس ولذلك قال صاحب المباحث الأصلية :

وانما أبيح للزهاد وندبه الى الشيوخ باد
وهو على العوام كالحرام عند الشيوخ الجلة الأعلام

وكان بعض الشيوخ لا يرى فى السماع بأسا ولكنه يخشى أن يؤثر على نفوس سامعيه من حيث يوجد عندهم استرخاء عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠ وكان بعض الشيوخ يخشى من زلة الانسان فى السماع كأن يحمل معنى يليق بالشيوخ ولا يليق برسول الله صلى الله عليه وسلم على رسول الله ، أو كأن يحمل معنى لا يليق بالله على الله وهذا كله لا بد أن يلاحظ ٠ ولنا أكثر من عودة على موضوع الانشاد فلنكتف ههنا بذلك ولنذكر المنشط الثالث من منشطات السير وهو المطالعة فى كتب السير الى الله وقصص السائرين ٠

ثالثا ـ المطالعة فى كتب السير الى الله وقصص الصالحين :

هناك بعض أئمة الصوفية أجمعت الأمة على قبولهم مثل الجنيد رحمه الله ومثل الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله ٠ ان الشيخ الجيلانى رحمه الله أجمعت الأمة على قبوله حتى ابن تيمية رحمه الله يقول : ان كراماته منقولة الينا تواترا ، أمثال هؤلاء الأئمة اذا قرأ الانسان لهم يفطن لقضايا فى السير فتتحرك بذلك همته وهناك أئمة قبلتهم أكثرية الأمة وناقشهم بعضها فى بعض الأمور كحجة الاسلام الغزالى رحمه الله الذى يقول عنه العقاد : ان العالم كله شرقه وغربه لم يعرف مثله مفكرا ، وكابن القيم رحمه الله وكل من هذين الاثنين كتب فى الذروة فى بعض أمور السير الى

الله ، والعليم البصير فى دين الله لا يفوته أن يدرك مواطن النقد الصحيح ، وليس من أحد معصوما الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان المطالعة فى كتب هؤلاء العلماء الفقهاء الذين تكلموا فى أمر السير الى الله تحرك الهمة نحو الله بشكل عجيب ، وهذا شىء محس واضح يستطيع كل انسان أن يدركه من خلال التجربة • ليحاول أحدنا أن يمسك الجزء الأول من الاحياء مثلا وليقرأ كتاب تلاوة القرآن فيه ثم ليجرب أن يقرأ القرآن بعد ذلك • انه لا شك سيجد أن حضور قلبه مع القرآن قد اختلف عما كان قبل ذلك ، وقل مثل ذلك فى كل بحث بحثه الغزالى رحمه الله فانك عندما تقرأه تجد نفسك قد انتقلت الى وضع أكمل •

ان المطالعة فى كتب السير الى الله تهيج على السير الى الله وتساعد على الكمال فيه ومن ثم فان السائر الى الله ينبغى أن يكون له حظ من ذلك ، ولا شك أن من أمهات كتب السير الى الله « الرسالة القشيرية » ، و « احياء علوم الدين » ، فليحاول المسلم أن يكون لهذين الكتابين حظ من دراسته مع ملاحظة أنه لا عصمة الا لله ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكما يساعد على السير وينشط له ويهيج عليه ويبعث اليه مطالعة كتب السير الى الله فكذلك قراءة قصص السائرين الى الله فان فعلها فى رفع الهمة يكاد يكون منقطع النظير وان فى كتاب « صفة الصفوة » أو « حلية الأولياء » من ذلك لزادا كبيرا للسالك ، ولنا ههنا ملاحظات :

١ ـ ان أكثر كتب التصوف لا يرتاح لكثير من عباراتها الفقيه ومن ثم فلا بد أن يكون الانسان دقيقا فيتخير اذ يقرأ واذا قرأ أن يدقق •

٢ ـ ان بعض الكتب التى عرضت قصص الصالحين دخل فيها من الانحراف ما لا يستقيم مع عقل ولا شرع مما ننزه القلم عن ذكره وننزه العلماء المنسوبة اليهم هذه الكتب أن يكونوا ذكروا مثل هذا الكلام فعلينا أن ننتبه لذلك •

٣ ـ ان كثيرين أوغلوا فى دراسة كتب السير الى الله وقراءة كتب الصالحين حتى نسوا الكتاب والسنة وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحياة الصحابة • ولذلك فلا بد أن نعطى هذا الموضوع محله اذ لا يجوز أن تكون أى دراسة على حساب الاهمال للكتاب والسنة والسيرة وحياة الصحابة ، ولنكتف بهذا القدر ••

عرضنا فى هذه الفقرات الثلاث الماضية لثلاثة منشطات فى موضوع السير الى الله وعرضنا بعض ما يؤخذ على الموجود من بعضها ليكون المسلم

على بصيرة فى الأخذ وقد يكون من المناسب أن نختم هذا الباب بمقترحات عملية فى هذا الشأن تكون بين يدى الدعاة الى الله والشيوخ والمسلمين لهـا صلة بموضوع هذا الباب :

(١) اننى أتمنى أن تقام فى كل مسجد الحلقات المتعددة : حلقات الذكر وحلقات العلم وأن يكون للانشاد دوره أحيانا فى ذيل بعض الحلقات ٠

(٢) ان هناك حلقات تحتاج اقامتها الى شروط كثيرة وهناك حلقـات لا يتطلب انشاؤها مثل هذه الشروط فعلينا أن نبذل أقصى جهد لانشـاء الحلقات على ضوء ما يتوافر لدينا ٠

(٣) بالامكان انشاء الجلسات التالية فى كل مسجد :

(أ) جلسة ذكر ، جلسة صلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمكن أن تدمج الجلستان فتكون الجلسة على الشكل التالى : تبدأ الجلسة مثلا بعد صلاة الصبح يوم الجمعة أو بعد صلاة الظهر أو بعد صلاة العصر من يوم الجمعة أو فى يوم آخر يبدأ الحاضرون بشكل منفرد وسرى يصلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصيغة التى يرتاحون لها ، والصـيغة التى تحقق تنفيذ الحد الأدنى من الأمر بالصلاة عليه هى قولنا (اللهم صل على محمد وآله وسلم) ويمكن اعتماد زمن بعينه كثلث ساعة مثلا أو عدد بعينه بحيث لا يرهق الحاضرين ثم بعد ذلك يبدأ ذكر ونحن جلوس كقولنا (سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر) حوالى مائة مرة ، ثم يمكن أن يكون بعد ذلك شئ من الانشاد المنتقى شعره ثم نختم الجلسة بشئ من قراءة القرآن ٠ ويمكن حذف فقرة الانشاد اذا لم تتوافر شروطها ، والمهم فى الجلسة ألا تكون طويلة وألا يكون فيها ما يمكن أن يشكل مأخذا لفقيه ٠

(ب) جلسة قرآنية : كأن يجلس الناس فى المسجد بعد صلاة ما ثم توزع عليهم أجزاء القرآن بحيث يقرأ كل منهم جزءا بما يغطى ختمة أو ختمتين أو أكثر أو أقل على حسب العدد وبعد أن يقرأ كل منهم جزأه والأحسن ملاحظة زمن محدد يقرأ بعضهم قراءة جهرية مرتلة ثم يكون درس خفيف بعد ذلك كقراءة بعض الأحاديث النبوية من كتاب ككتاب « رياض الصالحين » أو قراءة فقرة من السيرة ثم يكون دعاء وانصراف ٠

(ج) ويمكن أن ترتب بعض الجلسات بحيث يجتمع فيهـا ذكر وعلم وانشاد ، كأن تبدأ الجلسة بذكر (سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر) مائة مرة ثم يكون درس وعظ ثم يكون شئ من الانشاد ثم يكون

شيء من تلاوة القرآن ودعاء وانصراف ، ويمكن أن تقدم بعض الفقرات على بعض ٠

(د) تتولى لجنة فى كل مسجد أمر متابعة قضية الحلقات العلمية العامة والخاصة بحيث يكون فى كل مسجد سير نحو التحقق بفروض العين ، وايجاد مختصين بما يغطى فروض الكفايات الدينية فى المنطقة واذا لم تتوافر فى مسجد بعض المعانى من وجود شيخ يدير أمر بعض الحلقات أو وجود من يعطى بعض العلوم فان أهل المسجد عليهم أن يبحثوا عمن يساعدهم فى ذلك وعلى الآخرين أن يفعلوا ٠ انك ترى المسلمين يحرصون على تأليف اللجان لاصلاح بناء المسجد أو انشاء مساجد دون أن يفعلوا الشيء نفسه لعمارة المسجد بما من أجله وجد المسجد وهو وضع ينبغى أن يكمل نفسه ٠ انه ينبغى أن يقوم تنافس بين المساجد وأهلها على ترتيب عمارة المساجد حسا ومعنى ٠

(هـ) تتولى لجنة فى المسجد متبرعة أو منتخبة أو مختارة أمر احياء المناسبات الاسلامية كاحياء مناسبة المولد والترتيب لها بحيث تعطى مردودا كبيرا فى تفهم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى تذكير المسلمين باسلامهم وفى ربطهم فى المسجد وكاحياء مناسبات الهجرة ومناسبات انقاذ القدس من الصليبيين فى (٢٧ رجب) وهو اليوم الذى يحتفل فيه المسلمون بحادثة الاسراء والمعراج وكتذكير المسلمين فى المواسم ، موسم رمضان وموسم الحج والتذكير بحق العشر الأوائل من ذى الحجة ٠

(و) وان كثيرا من هذه الأشياء يمكن ترتيبها واقامتها فى البيوت زيادة على المسجد كما أن التحضير لشئون احياء المساجد يمكن أن يتم فى البيوت ٠ اننا لو استطعنا أن نوجد مثل هذه الأجواء فى المساجد والبيوت نكون قد هيأنا الفرص لكل مسلم من أجل أن يسير الى الله نوع سير بتوفير كل الشروط الجاذبة الى السير أو الحاضة عليه أو المنشطة له وهذا يقتضى من كل مسلم مهما كان وضعه وكانت مشاغله أن يبذل جهدا فى هذا السبيل بالمشاركة والدعوة والحضور والتشجيع على ذلك بنفسه وماله ولسانه ٠

الباب الثالث عشر

فى الصحة القلبية والنفسية

ومحلها من دوائر التكليف

يقول ابن عطاء فى قضية الوصول الى الله عز وجل « وصولك الى الله وصولك الى العلم به » هذا هو الوصول أن تعرف الله عز وجل حق المعرفة ، معرفة يأخذ العقل حظه منها والقلب حظه منها والروح حظها منها دون أن يرافق ذلك تجسيم أو تشبيه أو ممارسة أو اتصال أو حلول أو اتحاد ، معرفة يشهد فيها الانسان قربه من الله عز وجل وقرب الله منه • قال تعـالى : **« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان »**(١) فاذا عرفت الله عز وجل حق المعرفة معرفة يجتمع لك فيها التسليم العقلى والذوق القلبى فقد وصلت وذلك لا يتم بلا سلوك طريق ذلك •

واذا تم ذلك فلذلك ثمراته الكثيرة اذ كل خير انما هو انبثاق عن هذه المعرفة **« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء • تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون »**(٢) • فثمرات المعرفة الحقيقية لله عز وجل شىء لا يستطاع احصاؤه ومن أول ذلك التحقق بمقام العبودية لله وذلك أعلى المقامات على الاطلاق • والعبودية كاسمها تقتضى طاعة ظاهرة وباطنة لله فى كل شىء ••• ان الوصول الى الله يعنى معرفته جل جلاله ، معرفة أنه موجود ومعرفة صفاته ، صفات الجلال والجمال وصفات الوجود من علم وقدرة وارادة وحياة وسمع وبصر وكلام • وصفات السلب التى تنفى بها عن الله عز وجل ما لا يليق بذاته ومعرفة أسمائه ومعرفة أفعاله وأن يتملى القلب ذلك كله وأن يستشعره ذوقا وذلك معنى زائد على مجـرد المعرفة العقلية ولكن المعرفة العقلية هى المقدمة العادية لذلك ، ومما يدخل فى المعرفة لله عز وجل معرفة معانى النصوص المتشابهة وحملها على محاملها الصحيحة وتذوق ذلك فالسالكون لهم أذواقهم لهذه النصوص مع التنزيه بما لا يتحسس جزءا منه غيرهم • وفى هذه المقامات ضل كثير وغوى كثير وضاقت عبارات الكثيرين وفهمت عبارات الكثيرين على غير مرادهم • ومن فتح الله له فى

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) ابراهيم : ٢٤ ، ٢٥

هذه الشئون باب الفهم والذوق على مقتضى العلم استطاع أن يفهم الخطأ من الصواب واستطاع أن يميز بين ما يجب رده من هذه العبارات وبين المحامل الصحيحة لهذه العبارات وكثيرا ما يحدث أن نجد انسانا يحمل على كلمة بأنها كفر مع أن لها محملا صحيحا ، وكثيرا ما نجد انسانا يدافع عن كلمة وليس لها وجه وانما هى البدعة أو الكفر أو الضلال ، والقليل القليل من خلق الله هم الذين يضعون الأمور فى مواضعها ويصلون الى حالة تكون معرفتهم بها فى الله كاملة حتى اذا تكلموا فى ذلك تكلموا عن حق وعلم ٠ قال تعـالى : ((**سبحان الله عما يصفون ٠ الا عباد الله المخلصين**))(١) ان تذوق السالكين لمعنى اسم الله الأول ولمعنى اسم الله الظاهرواسمه الباطن ولمعنى اسمه الصمد ولمعنى اسمه القريب ولغير ذلك من أسماء الله عز وجل تذوق أعمق بكثير من أى تذوق عقلى والذين يتكلمون فى هذه المعانى يفطنون لأمور لا يفطن لها غيرهم ويعبرون عنها تعبيرا لا يستطيعه غيرهم ، وأقصد بذلك المحققين من هؤلاء والمدققين ومن عبارته مقيدة بالعلم والنصوص ٠ أما الذين حرفوا وبدلوا فهؤلاء ليسوا هم المقصودين فى هذا المقام ولعل من أول ثمـرات المعرفة التمكن من التعبير العالى والصـافى ٠ وفى ذلك يقول ابن عطاء : « تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير ، كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز ، من أذن له فى العبير فهمت فى مسامع الخلق عبارته ، وجليت لهم اشارته ، ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار اذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار ، عباراتهم اما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد ٠ فالأول حال السالكين والثانى حال أرباب المكنة والتحقيق والعبارة قوت لعائلة المستمعين » فأول ثمرات الوصول الكاملة الى الله القدرة على التعبير الصحيح عن الذات الالهية والدلالة الصحيحة عليها ٠ وانظر مثل هذه العبـارات لترى بوضوح حقيقة هـذه الثمرة ٠ قال ابن عطاء : « أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون فاذا شهدته كانت الأكوان معك » ٠ لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ، انما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه ، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك فيردك الى حدودك فالنهار ليس منك اليك ولكنه وارد عليك ٠ دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه وبوجود أوصافه على وجود ذاته اذ محال أن يقوم الوصف بذاته » ان الوصول الى الله هو المظهر الأعلى للصحة القلبية والنفسية فى الاسلام وهى العلامة الرئيسية على هذه الصحة ٠ ولكن هذا الوصول يتفرع عنه أمور كثيرة هى كلها علامات على صحة القلب والنفس ولذلك فنحن سنعرض قضية علامات الصحة القلبية والنفسية بحيث نتفهم هذه العلامات بشكل أوضح وأعمق فنقول :

---

(١) الصافات : ١٥٩ ، ١٦٠.

شرحنا من قبل كيف أن لكل عبادة حكمتها وأنوارها وأن المسلم عليه أن يعمل كما أمر وأن يحقق الحكمة التى من أجلها كان الأمر • وهنا نحب أن نكمل تسلسل هذا الشأن • ان تنفيذ الأمر وتحقيق الحكمة من الأمر يترتب عليه آثار فى القلب وفى النفس • هذه الآثار مهمتها تكميل الذات والارتقاء بالتحقق بالكمالات العليا لها ، فالحكمة فى الأمر فى النهاية هى تكميل الذات وتحقيقها بأرقى المقامات • وأرقى المقامات التحقق بأسماء الله عز وجل مع العبودية الكاملة له فالله عز وجل متصف بالصفات العليا وله الأسماء الحسنى مع الربوبية • ونحن كمالنا أن نأخذ من كل اسم من أسماء الله تعالى التى كلفنا بالتحقق بها ولكن مع العبودية • وحجة الاسلام الغزالى حاول فى كتابه : (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) أن يبين ما يمكن أن يأخذه العبد من كل اسم من هذه الأسماء • فاسم الله المؤمن واسمه الكريم واسمه التواب واسمه الشكور واسمه الصبور كل ذلك يمكن أن يأخذ المؤمن حظه منه وهكذا •••

فالمسلم كما أن عليه أن يعمل عليه أن يلاحظ الحكمة من العمل وعليه أن يتابع تكميل ذاته كهدف للعمل ، وكثيرون من الناس يبقون فى الدائرة الأولى على ضعف فيها دون أن ينتقلوا الى الدائرتين الأخيرتين • وبعضهم قد قفز الى الدائرة الثانية ولكن لا ينتقل الى الدائرة الثالثة فضلا عن دائرة أخرى رابعة سنراها •

وهذه نقطة : الغموض فيها علة عدم التطلع اليها ولذلك فانها تحتاج الى وضوح تام فلنقف أكثر من وقفة حول بعض المعانى حتى يتضح هذا المقام ••• قال تعالى : ((**ان الانسان خلق هلوعا • اذا مسه الشر جزوعا • واذا مسه الخير منوعا • الا المصلين • الذين هم على صلاتهم دائمون • والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم • والذين يصدقون بيوم الدين • والذين هم من عذاب ربهم مشفقون • ان عذاب ربهم غير مأمون • والذين هم لفروجهم حافظون • الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين • فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون • والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون • والذين هم بشهاداتهم قائمون • والذين هم على صلاتهم يحافظون • أولئك فى جنات مكرمون**))(١) لاحظ أن خلق الهلع الذى مظهره الجزع عند المصيبة والمنع عند النعمة لا يتخلص منه انسان الا اذا اجتمعت فيه مجموعة أمور ، الصلاة والانفاق والتصديق باليوم الآخر والاشفاق من عذاب الله وحفظ الفروج والقيام بالشهادة صدقا وعدلا ، فمن اجتمعت له مجموعة الأمور هذه تخلص من مرض وتحقق بصحة ومن ثم فبشكل

---

(١) المعارج : ١٩ ــ ٣٥

تلقائي متى تحقق انسان بمجموع هذه المعانى انتفت عنده صفة الهلع ووجد عنده خلقا الصبر والكرم • فالتحقق بالصبر والكرم علامة اقامة هذه المعانى كلها ونحن مكلفون بمجموع هذا ، مكلفون بهذه الأعمال ومكلفون بالصبر وبالكرم وكما أن على كمسلم أن أبذل جهدا فى العمل لاقامة الصلاة فان على كذلك أن أحقق نفسى بالصبر والكرم من خلال مجاهدة النفس ومعرفة حدود الصبر والكرم • وتحقيقى بالصبر والكرم مظهر من مظاهر صحة القلب والنفس وعلامة على صحة طريقى ولكن الصبر والكرم يحتاجان الى بذل جهد خاص فيهما فالله عز وجل قال : ((**وأحضرت الأنفس الشح**))(١) فما من حالة الا والشح حاضر عندها وعلى صاحبها أن يتغلب على شحه بمجاهدة نفسه وبسلوك الطريق الموصل الى ذلك ولكن كم من الناس يبدأ تلك البداية وينتهى هذه النهاية • لاحظ الآن كم يترتب على الفشل فى الوصول الى مقامى الصبر والكرم من آثار سيئة انه ما لم يصبر الانسان فانه يكفر فالصبر اذن بدونه لا يكون ايمان واذا لم يكن ايمان فلا شىء أبدا ، والشح متى وجد لم يعد بالامكان اطلاقا أن يكون هناك تعاون بين المسلمين على أمر بل تنعدم امكانية العمل الجماعى أصلا ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « اذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام فان من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم • قيل يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : بل أجر خمسين منكم » (أبو داوود والترمذى ، وقال حسن غريب) لاحظ أن الشح المطاع هو الحلقة الأولى التى اذا وجدت فقد حل للانسان أن يعتزل الناس لأنه لا فائدة من عمل جماعى أصلا •

لاحظ من المثال المذكور كيف أن هناك أمرا ، وحكمة من هذا الأمر ، وآثارا نفسية تترتب على ذلك ، وكيف أننا مكلفون بهذا كله • فالدائرة الثالثة من هذه الدوائر هى التى نسميها الصحة النفسية والقلبية ولنضرب مثالا آخر • قال تعالى : ((**ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم • التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين**))(٢) لاحظ من الآيتين أن اجتماع خصال الايمان والتوبة والعبادة والحمد والسياحة التى هى الصوم أو الرحلة فى الله والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى التى ينبثق عنها

---

(١) النساء : ١٢٨ (٢) التوبة : ١١١ ـ ١١٢

وجود بيع نفس ومال لله فلا جهاد كاملا الا اذا توافرت هذه المعانى كلها ٠ وأنا كمسلم مطالب بالتحقق بهذه الخصال ومطالب بأن أبيع نفسى لله فلو أن انسانا عمل بهذه ثم لم يبع نفسه وماله لله فانه يكون قد قصر فى التكليف ٠

ان هناك أعمالا ينبثق عنها حال نفسى وعن هذه الحالة النفسية تنبثق أعمال وتصرفات فهذه دائرة رابعة تنبثق عن الصحة القلبية ، من المثالين السابقين ندرك أن هناك أعمالا تستتبع وجود حالة نفسية وقلبية وهذه الحالة نحن مطالبون بها كما أننا مطالبون بالطريق الموصلة لها كما أننا مطالبون بالأعمال التى تنبثق عنها ٠ هذه الحالة النفسية والقلبية التى نحن مطالبون بها هى الوضع الصحى للنفس وللقلب ٠ ووجودها هى علامة الصحة وعلامة على استقامة السير وكثير من المسلمين تغيب عنهم قضية الصحة النفسية والقلبية بكل أبعادها كما تغيب عنهم كثير من الأعمال الموصلة اليها أو التى تنبثق عنها وهى نقطة خطر ٠ وحتى الآن لم يتضح الشىء الذى نريده فلنضرب أمثلة أخرى ٠

قال تعالى : ((**ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**))(١) وقال تعالى : ((**وأقم الصلاة لذكرى**))(٢) فالصلاة من آثارها ترك الفحشاء والمنكر والهدف من اقامة الصلاة هو ذكر الله عز وجل على الطريقة التى اختارها الله لنا والذكر من آثاره فى القلب أن يعطيه اطمئنانا ٠ قال تعالى : ((**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**))(٣) فطمأنينة القلب هى الحالة الصحية له ونحن مطالبون بالوصول اليها والطريق الى ذلك هو الذكر ومن الذكر الصلاة ونحن مطالبون بذلك ومن آثار الصلاة العملية الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ونحن مطالبون بذلك ٠ فالدوائر الثلاث بل الأربع اذن التى من جملتها الصحة القلبية والنفسية كلها مطالبون بها وعلينا أن نحصلها علما وعملا ٠٠٠ قال تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**))(٤) ٠

فالصيام فريضة وحكمة هذه الفريضة الوصول الى التقوى ٠ والتقوى ملكة فى القلب ينبثق عنها سلوك معين ونحن مطالبون بالجميع وأحد أجزاء هذا الجميع هو الصحة القلبية والنفسية والروحية والعقلية التى ينبثق عنها سلوك معين والتى تكون كأثر عن عمل معين ، وفى دائرة من هذه الدوائر يقع أحيانا نوع القصور أو التقصير ٠

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) طه : ١٤
(٣) الرعد : ٢٨ (٤) البقرة : ١٨٣

اذا اتضحت هذه الأمور فلنحاول أن نتحدث الآن عن معان من خلالها ندرك المراد من الصحة القلبية والنفسية والروحية بعد أن عرفنا محلها فى دوائر التكليف ٠٠٠

يلاحظ أن القرآن قال عن النفس مرة : ((**ان النفس لأمارة بالسوء**))(١) وهى حالة مرضية للنفس وقال مرة : ((**ولا أقسم بالنفس اللوامة**))(٢) وهى حالة أرقى للنفس اذ تلوم صاحبها على الشر اذا واقعه ٠ وقال : ((**يا أيتها النفس المطمئنة**))(٣) فههنا حالة أرقى للنفس اذ أخذت حظها من الاطمئنان واليقين والملاحظ آن النفس المطمئنة هى التى يقال لها : ((**ارجعى الى ربك راضية مرضية**))(٤) ٠ فدل ذلك على أن النفس المطمئنة هى التى رضى الله عنها وسيرضيها ٠ فالنفس المطمئنة اذن هى الحالة الصحية العليا للنفس ٠ والطريق الى هذه النفس المطمئنة هى ما قاله الله عز وجل : ((**ويهدى اليه من أناب ٠ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب**))(٥) ٠ ((**الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**))(٦) ٠ فالطريق الى النفس المطمئنة الانابة الى الله والايمان وكثرة الذكر ونحن مطالبون بذلك كله ٠ فهذا نموذج على الصحة النفسية والقلبية وعلى الطريق الموصلة اليها ولنا الآن أن نسيح سياحة ثم نرجع الى الموضوع الأصلى ٠

يتحدث الصوفية عن شىء اسمه حال ، وعن شىء اسمه مقام ٠ ويعتبرون الحال هو مقدمة المقام فمثلا أول ما يبدأ الانسان يشتغل بالذكر يصل الى طمأنينة مؤقتة للقلب لا تلبث أن تزول ٠ فهذا حال فاذا تابع الانسان الذكر وصل الى طمأنينة دائمة للقلب فهذا مقام ٠ ونحن مطالبون فى كل مظهر من مظاهر الصحة القلبية والنفسية أن نصل الى المقام لنتمكن فيه ولكن كثيرين تغيب عنهم ماهية مقامات الصحة كما يغيب عنهم العمل من أجلها ٠

اننا مطالبون بالحلم الا اذا انتهكت حرمات الله ، فعندئذ نحن مطالبون بألا يقوم لغضبنا شىء حتى نقيم أمر الله ٠ هكذا شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يغضب لشخصه وانما يغضب اذا انتهكت حرمات الله ٠ فاذا انتهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شىء فههنا مقامان : مقام الحلم ومقام الغضب لله ، والحلم لا يأتى دفعة واحدة وانما الحلم بالتحلم فعندما يبدأ الانسان يجاهد غضبه يفشل مرة وينجح مرة ٠ فالحلم ههنا

---

(١) يوسف : ٥٣
(٢) القيامة : ٢
(٣) الفجر : ٢٧
(٤) الفجر : ٢٨
(٥) الرعد : ٢٧ ، ٢٨
(٦) الرعد : ٢٩

حال حتى يتمكن الانسان من مقام الحلم فلا يغضب الا حيث يجب عليه شرعا أن يغضب • عندئذ يتمكن الانسان من مقام الحلم ويكون فى حالة صحية قلبية ونفسية • كم هى مجموع الأخلاق القلبية والنفسية التى نحن مطالبون بها ؟ ان مجموع هذه الأخلاق اذا أصبحت لدينا كمقامات وتمكنا منها فعندئذ نكون قد ملكنا الصحة القلبية والنفسية وهى احدى دوائر التكليف الأربع التى نحن مطالبون بها •

قلنا من قبل : ان فى دين الله مقامات هى الاسلام والايمان والاحسان والتقوى والشكر • والشكر له جانب قلبى وآخر عملى وكذلك الاسلام والايمان فأن يحصل الانسان الجانب القلبى فى هذه المقامات فذلك علامة صحة القلب والعقل والنفس ولكنها دائرة من دوائر التكليف ••• قال تعالى : « **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى** »(١) • فالروح مقرة لله بالعبودية فبقدر تحقق الانسان بالعبودية لله ظاهرا وباطنا تكون صحة • والله عز وجل خلق آدم على صورته أى على صفته كما عليه جماهير العلماء واذن فبقدر ما يأخذ الانسان حظه من أسماء الله مع التحقق بالعبودية وعدم منازعة الله جل جلاله فيما هو من شأنه وحده جل جلاله فذلك علامة على الصحة •

الرأفة فى محلها والرحمة فى محلها والكرم فى محله والعفو فى محله واذلال من يستحق الاذلال واعزاز من يستحق الاعزاز كل ذلك فى حقنا مطلوب وهو تحقق بأسماء الله مع العبودية ولكن الكبرياء والعظمة من شأن الله وحده لأنهما من خصائص الربوبية فأن ينازع الانسان رب العزة خصائصه فذلك مرض • قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى : « العز ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى شيئا منهما عذبته » (رواه البرقانى فى مستخرجه ، ورواه غيره والحديث صحيح) •

والتحقق بما ينبغى التحقق فيه وترك مالا ينبغى أن يكون ، من مظاهر الصحة القلبية والنفسية والروحية للانسان ، فرض الله عز وجل عليك أن يتحقق قلبك بمعان وحرم عليك أن يكون فيه معان فأن يكون قلبك كذلك سلبا وايجابا فذلك علامة الصحة • فرض عليك ألا يكون فى قلبك مودة للكافرين وفرض عليك أن تحبه وتحب رسوله وأن تحب أهل الايمان ، فرض عليك ألا تخاف غيره وفرض عليك أن تخافه وتخشاه وحده • فرض عليك أن ترجوه وفرض عليك ألا تقنط من رحمته ، وفرض عليك أن لا تأمن من مكره وفرض عليك ألا تتكبر وألا تبطر • فكل ما فرض عليك من أعمال

---

(١) الأعراف : ١٧٢

القلوب وما حرمه عليك من أعمالها أن يصبح قلبك مطابقا لما يحبه الله عز وجل فى شأنه فذلك علامة الصحة • فرض عليك الصبر والتسليم والرضا والتوكل فان تتحقق بهذا كله ، فذلك علامة الصحة • فرض عليك أن تجلو مرآة قلبك وأن تجلو عين بصيرتك وطالبك بأن يتأمل قلبك آياته وأن ترى أفعاله وأن تستشعر صفاته وكل ذلك ان تحققت به فذلك من علامات الصحة وكل ذلك لن يتم الا بذكر كثير وعلم غزير ومجاهدة شاملة ومذاكرة دائمة مع أهل ذلك •••

وأصل الأصول الذى عنه ينبثق كل شىء هوتعميق التوحيد فى القلب • قال تعالى : ((**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون**))(١) •

لاحظ أن الوحى انما يتنزل للانذار بوحدانية الله ليترتب على ذلك الالتزام بتقواه فكلما تعمق التوحيد فى القلب ترتب على ذلك كل خير ، ولا يتعمق التوحيد الا بذكر • وان الأذكار كلها ان هى الا تعميق لقضية التوحيد • فسبحان الله تنزيه لله ، والحمد لله اعتراف بأنه المنعم وحده والله أكبر نفى لتعظيم غيره فى القلب ، ولا حول ولا قوة الا بالله نفى أن يكون هناك فاعل سواه • فهل اتضحت بعد هذا كله معالم الصحة القلبية والنفسية عند المسلم • ومحلها فى دوائر التكليف ؟ لا أجدنى حتى الآن مطمئنا الى أننى أفلحت فى التعبير عما أريد فلابذل محاولة أخيرة : هناك فى الاسلام أوامر ونواه ولكل أمر حكمته ولكل نهى حكمته وتنفيذ الأوامر واجتناب النواهى مع تحقيق حكمة الأمر وتحقيق حكمة اجتناب النهى يترتب عليه حال قلبى ونفسى ، هذه الحالة هى مظهر الصحة القلبية والنفسية ، فاذا صح القلب والنفس انبثق كأثر عن ذلك سلوك جديد هو ماء صاف وثمر طيب ، هو نبع الفطرة وثمار الايمان • يظهر ذلك فى معاملة الحق والخلق فهذه أربعة دوائر • دائرة تنفيذ الأمر واجتناب النهى ودائرة تحقيق الحكمة فى ذلك ودائرة ما يترتب على ذلك من صحة قلب ونفس • ودائرة ما ينبثق عن هذه الصحة من آثار ونحن مكلفون بهذه الدوائر كلها على تفاوت فى درجات التكليف فى كل مرحلة ، وكثيرون من الناس يغلطون أو يقصرون فى فهم هذه الدوائر والتحقق بها • وعلامة الصحة الكاملة هى التحقق بهذه الدوائر كلها والصحة القلبية والنفسية هى محور الصحة العامة والصحة القلبية والنفسية محورها معرفة الله والتحقق بأسمائه مع العبودية الكاملة له جل جلاله ، وليكن هذا خاتمة هذا الباب ولعله قد وضح المراد •

---

(١) النحل : ٢

الباب الرابع عشر

فى الرؤى والكشف والالهام والكرامة

ومحلها فى دين الله والأخطاء الشائعة عنها

وفيهـا فى بعض الدوائر

الشىء الجوهرى فى السير الى الله هو التحقق والشعور والذوق لقضايا الاسلام والايمان والتقوى والاحسان والشكر وأن ينسجم السلوك مع ذلك وأن تصبح النفس مزكاة والقلب منورا والروح عارفة بالله مستسلمة له والعقل شرعيا • وبكلمة واحدة العبودية الخالصة لله فانهـا غاية مطلب الصديقين وهى أشرف المقـامات على الاطلاق وهى الوصف اللازم الأرقى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى**))(١) • ((**الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا**))(٢) •

ان السالك الى الله عز وجل هذه همومه أو هذا همه ، وما سوى ذلك يفرحه اذا كان علامة على فضل الله عز وجل فهو يفرح به لأنه علامة على ذلك وبشارة على القبول ((**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**))(٣) • فقد يجد السـالك الى الله الرؤيا الصالحة أو الكشف وقد يحس بالالهام وقد تظهر على يده كرامة ، وكل ذلك كما قلنا ليس هدفا للسالك بحد ذاته وانما هو محل فرحه لأنه علامة على القبول أو بشارة للسالك بأمر فاذا اتضح هذا نكون قد عرفنا ما هو الهدف بالنسبة للسالك ، وههنا أول خطأ يقع فيه بعض الصوفية اذ يجعل بعضهم الهدف هو الوصول الى الكشف أو الى الكرامة أو غير ذلك من معان هى علامات على صحة السير وليست هدفا فى السير اذ المراد هو وجه الله عز وجل • قال تعالى : ((**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه**))(٤) • على أنه

---

(١) الاسراء : ١ (٢) الكهف : ١

(٣) يونس : ٥٨ (٤) الكهف : ٢٨

اذا كان بعض الصوفية يغلطون فى جعل ما ليس هدفا هدفا فانه من الملاحظ من التتبع التاريخى أن هذه المعانى من كشف أو الهام أو رؤيا صالحة أو كرامة وهى أمور نجدها بكثرة فى النصوص وفى حياة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المعانى نادرا ما تجدها الا فى دوائر الصوفية ونادرا ما تجد حديثا عنها يشبه الحديث عنها فى النصوص كما نجده عند الصوفية وهذا دليل على أن التصوف الصحيح سير صحيح فى طريق القدوة الصالحة بدليل ظهور ثمرات الاقتداء كاملة ٠

هذا ابن تيمية رحمه الله يذكر أن كرامات الشيخ عبد القادر الجيلانى منقولة تواترا ، وللشيخ ابن تيمية على الشيخ الجيلانى من الثناء ما لم يظفر به أحـد الا قليلا ٠ وفى ذلك كله دليـل على أن السـير الى الله على طريقـة الصوفية المحققين له فضله وثمراته الطيبة ولكن كما سـنرى فان بعض الصوفية يغلوا فى بعض هذه الأمور أو يخطىء فيها وههنا كذلك مأخذ آخر ٠ ولنبدأ عرض الموضوع من بدايته :

أولا ـ الكشف : وصف الله عز وجل سيدتنا مريم عليها السلام بأنها صديقة قال تعالى : ((**وأمه صديقة**))(١) ٠ ومن المعروف فى علم العقائد أن الله عز وجل لم يبعث رسولا الا رجلا ٠ قال تعالى : ((**وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم**))(٢) ٠ فمريم اذن صديقة فليست نبية ولا رسولا ومع ذلك ذكر القرآن أن الملائكة خاطبتها : ((**واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين**))(٣) ٠ ((**فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ٠ قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ٠ قال : انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا**))(٤) ٠ واذن فمن الممكن شرعا أن يكشف الله عز وجل لغير الأنبياء والرسل عن الملائكة بحيث يسمع انسان من غير الرسل أو يرى ملكا ، هذه الحالة لو حدثت لمسلم يسميها الصوفية كشفا، هذا الكشف نجد نصوص السنة ذاكرة امكانيته ، ونجد نماذج له فى حياة الصحابة ، ونجد تاريخ التصوف الاسلامى المحقق زاخرا بمثل هذه المعانى ٠ ومن قرأ سيرة الغزالى وما كتبه ـ وهو انسان موثوق ـ رأى الكثير من هذا ، ان ما وقع للغزالى نفسه أو فيما نقله عن أمثـاله وذلك حجة كافية فى حق المنصف ، اذ أن الغزالى رجل صدق عند جماهير هذه الأمة ، ولنر ما يدل على امكانية الكشف ووقوعه فى جيل الصحابة وطرق الوصـول اليه من النصوص :

---

(١) المائدة : ٧٥ — (٢) يوسف : ١٠٩

(٣) آل عمران ٤٢ — (٤) مريم : ١٧ ـ ١٩

(أ) فى الحديث رقم (٢٦٢) من كتاب « الترغيب والترهيب » مايلى :
« عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد قال : وكان الناس يمشون خلفه . قال : فلما سمع صوت النعال وقر ذلك فى نفسه فجلس حتى قدمهم أمامه فلما مر ببقيع الغرقد اذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين . قال : توقف النبى عليه الصلاة والسلام فقال : من دفنتم ههنا اليوم ؟ قالوا : فلانا وفلانا . قالوا يا نبى الله وما ذاك ؟ قال : أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ، وأخذ جريدة رطبة فشقها ثم جعلها على القبرين . فقالوا : يا نبى الله ، لم فعلت هذا ؟ قال : ليخفف عنهما . قالوا يا رسول الله حتى متى يعذبان ؟ قال : غيب لا يعلمه الا الله ، ولولا تمرغ قلوبكم ، وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » (رواه أحمد واللفظ له) . لاحظ قوله عليه الصلاة والسلام : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » فهذا يدل على ماهية المانع من الكشف ويدل على امكانية الكشف ويدل على الطريق الى الكشف وهو عدم التزيد فى الحديث وتصفية القلب ، ولتصفية القلب طرقها المذكورة فى النصوص كما سنرى .

(ب) فى الحديث (٩٦٦٢) من كتاب «جمع الفوائد» ما يلى : حنظلة ابن الربيع الأسيدى أحد كتاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لقينى أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند النبى صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين واذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا . قال أبو بكر : فوالله انا لنلقى مثل ذلك . فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله . فقال : وما ذاك ؟ قلت : نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا . فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات » (للترمذى ومسلم بلفظه) .

لاحظ قوله عليه الصلاة والسلام « والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طريقكم .. » ان هذا الحديث يدل على أنه يمكن لكل صحابى اذا حافظ على الحال الذى يحصله حال جلوسه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا داوم مع ذلك على الذكر أن يصير الى حالة تصافحه فيها الملائكة ولعله من هذين الحديثين ندرك أن الصمت الا فيما لا ينبغى والذكر من الأسباب التى يصل بها الانسان الى الكشف ...

(جـ) فى الحديث (٦٧٣١) من كتاب «جمع الفوائد» ما يلى : روى البخارى عن أسيد بنحضير : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسهمربوطة عنده اذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت فانصرف وكان ابنه يحيى قريبا منها فأشفق أن تصيبه ولما أخره رفع رأسه الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فلما أصبح حدث النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير ، قال أشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا فانصرفت اليه ورفعت رأسى الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها ٠ قال وتدرى ما ذاك ؟ قال لا والله قال تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس اليها لا تتوارى عنهم » ٠ لاحظ أن أسيدا رأى ، ثم لاحظ قوله عليه السلام : « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس اليها لا تتوارى عنهم » ٠ من هذا النص نرى امكانية الكشف ووقوعه للصحابة وكيف أن قراءة القرآن طريق للكشف ٠ ونجد فى حياة الصحابة أكثر من نص يتحدث عن رؤية بعض الصحابة للجن مع أن الجن من عالم الغيب وسنرى فى سلسلة (الأساس فى المنهج) أدلة كثيرة عليه ونصوصا كثيرة فيه ونماذج كثيرة منه فى حياة أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم من هذه النصوص ندرك امكانية الكشف وندرك وقوعه للصحابة فاذا ما وجدنا ناسا ساروا فى التصوف المحرر الى منتهاه وحدثونا مع كونهم عدولا عن مثل ذلك فلا نستغرب أصل وقوعه كما نستدل بذلك على صحة الطريق ولكن ههنا أكثر من غلط يقع فيه بعض الصوفية :

١ ــ ان بعضهم يعتبر الكشف أصلا زائدا على الكتاب والسنة يمكن أن تثبت به حقائق غيبية زائدة على ماذكر فى الكتاب والسنة ، وبعضهم يعتبر أن كل ما قاله صوفى فى هذا المجال واجب التصديق كأنها نبوة جديدة ، أو كأن غير الرسول يمكن أن يكون معصوما ، وفى ذلك من الضلال ما فيه ٠

٢ ــ يربط بعض الصوفية بين تصـديق بعض الناس فى أمر الكشـف وبين التسليم لهم فى كل أمر دون التحقق من الحكم الشرعى فى هذه الشئون وبالتالى نجد كثيرين من أتباع الشيوخ يتابعون شيوخهم وكأن شيوخهم معصومون ٠ هذا مع ان الكشف قد يؤتاه انسان استدراجا ثم يختم له بسوء والعياذ بالله وفى قصة بلعم التى تحدثت عنها آيات الأعراف وما يقـوله المفسرون فى ذلك وما تشير اليه الروايات الاسرائيلية ما يشير الى ذلك ٠

٣ ــ يربط بعض الصوفية بين الكشف وترك التكليف فيرون أن الانسان متى كشف له شىء من أمر الغيب وما أكثر ما يتوهمون فى هذا الشأن سقط عنه التكليف فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك ويستشـهدون على ذلك بقوله

تعالى : ((**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**))(١) •وهؤلاء كفار باجماع الأمة اذ اليقين فى الآية هو الموت بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقى يعبد ربه حتى مات • ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعبد ربه حتى الموت وهم لا يعبدون ؟ أبلغوا من اليقين أكثر منه عليه الصلاة والسلام (ألا لعنة الله عليهم) وفى أمثال هؤلاء يقول الجنيد «وصلوا ولكن الى سقر» وأخيرا نقول: ان الكشف ممكن وهو مما يمكن أن يصادفه السالك الى الله وهو من مظاهر فضل الله وابتلائه ولكنا جميعا مقيدون بالنصوص • لا بالكشف والكشف لا تثبت به عقيدة جديدة ولا يزاد به على النصوص ولا تتعبد به الأمة ولا تكلف الأمة بتصديق أصحابه ولكن لا حرج على من صدق العدول فيه اذا كان تصديقا لنصـوص الكتاب والسنة وانما قلنا بأن الأمة لا تكلف بتصديق أصحابه حتى ولو كانوا صادقين لأن قلوبهم ليست معصومة فى أمر الغيب واحتمال التوهم قائم ولأن الكشف قد يكون امتحانا لانسان أو للناس فيزل به صاحبه أو غيره •بهذه القيود كلها نحرك محل الكشف فى شريعة الله عز وجل ونستطيع على ضوئها أن نقرأ فى كتب الصوفية واذا ما صادفنا كلام عن كشف عرفنا حدود الأخذ والرد ، ولنتذكر ما قلناه فى الابتداء من كون السالك ليس همه الكشف وغيره مما يمكن أن يصادف السالك أثناء سيره الذى لا نهاية له وانما همه الآخرة ومراده وجه الله • أخرج الترمذى عن أنس رفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا الا ما قدر له)) وزاد فى رواية ((فلا يمسى الا فقيرا ولا يصبح الا فقيرا ، وما أقبل عبد على الله بقلبه الا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد اليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير اليه أسرع)) وبمناسبة الكلام عن الكشف نقول : ان أدب السالك الى الله ألا يتطلع الى الكشف وفى ذلك يقول ابن عطاء : ((تشـوفك الى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك الى ما حجب عنك من الغيوب)) ثم من آداب السالكين الى الله ومن آداب الشيوخ بل من أدب كل انسان أنه اذا كشف له من عيوب الناس شيئا أن يسترها وألا يتكلم بها وأن يكون خلقه الرحمة فى هذا المقام مع محاولة التطبيب والعلاج مع وجود الحـذر فالمكاشف لا تثبت بكشفه حجة فى حق الغير من الناحية الشرعية وحتى كشفه فى حق نفسه يبقى محل تهمة لأنه يخشى أن يكون فتنة له من الله عز وجل • يقول ابن عطاء : ((ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد • من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الالهية كان اطلاعه فتنة عليه وسببا لجر الوبال اليه)) ولننتقل الى شىء آخر يمكن أن يصادفه السالك وهو الالهام •

---

(١) الحجر : ٩٩

ثانيا ـ الالهام : لندرس بعض ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمر بن الخطاب وما قاله بعض الناس فى شأن عمر رضى الله عنه لنرى من خلال ذلك ظاهرة يمكن أن توجد عند الرجل المسلم ٠ يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه الشيخان : « لقد كان فيمن كان قبلكم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء فان يكن فى أمتى أحد فانه عمر » قال السيوطى فى تفسير (محدثون) أى ملهمون ٠ وأخرج أحمد والبزار عن أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : « ان كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول : احبس هذه ثم يحدث بالحديث فيقول : احبس هذه فيقول له : كل حديثى حق الا ما أمرتنى أن أحبسه » ٠ من هذه النقول ندرك أن شيئا ما يمكن أن يقع فى قلب الرجل المسلم هذا الشىء غيبى المصدر ولكنه معلم وموجه ومذكر وله حكم الحقيقة بآن واحد ٠ هذا الشىء يمكن أن يتحقق فيه أفراد فى هذه الأمة بلا شك وأن يناله من فضل الله أفراد ٠

ان ظاهرة الالهام فى المجتمع الاسلامى وفى القلب المسلم ظاهرة ممكنة الوقوع شرعا ووقوعها كحقيقة خلال التاريخ شىء لا شك فيه ولا شبهة بل كثيرا ما يصادفها الانسان فى نفسه أو فيمن حوله ان كان له شىء من سير قلبى الى الله عز وجل ٠ اذا اتضح هذا الأصل بشكل مبدئى نقول : ان القلب الايمانى يشبه فى أحد جوانبه جهاز الاستقبال لأنواع من الموجات فهو يستقبل خواطر شيطانية ، كما أنه يستقبل واردات ربانية أو هواجس نفسية وهى قضية أدلتها من النصوص موجودة وأدلتها من الاحساسات البشرية الراقية موجودة وتختلط على أكثر الخلق ولا يدرك أسرارها الا القليل ، انك تجد حتى الكافرين تحدثوا عن عالم النفس فتحدثوا عن شعور ولا شعور ، وتحدثوا كيف تطفو قضايا من اللاشعور الى الشعور وتحدثوا عن تداعى أفكار وتحدثوا عن حدس وعن ظن وعن الهام وكل ذلك تحدثوا عنه كأثر من آثار التأمل الباطنى ومحاولة استكشاف عالم النفس ٠ وتحدث حتى الكافرون عن ضمير وتأنيب ضمير وأمثال هذه المعانى ٠ وهى قضية ما خرجوا عن كونهم وهم يتحدثون عنها مسجلين لاحساسات معينة لدى أنفسهم أو أنفس آخرين ، ونحن المسلمين كأصل عام نقبل الملاحظة ونشترك مع الناس فى تسجيلها ولكن شتان بين كثير من تعليلاتنا وتعليلات الآخرين ، فتعليلاتنا علم خالص وتعليل الآخرين ظن خالص ثم ان غير المسلمين يقفون دائما عند حدود لا يتجاوزونها فمثلا : الكافر لايستطيع أن يسجل شيئا عنظاهرة القلب الايمانى والاحساسات القلبية التى توجد فى حالة وجوده ولكن المسلم يحس بذلك ويستطيع تسجيله ومن ثم فآفاق الاحساس القلبى والروحى عند المسلم آفاق لا يتطاول اليها أحد يضاف الى ذلك أن المسلم وهو يسجل الاحساس القلبى الغيبى عنده

النصوص القطعية التى بها يستطيع أنْ يطمئن الى أن احساساته صحيحة اذ أن النصوص الربانية تبين له حقائق عالم النفس والقلب والعقل وما يمكن أن يحدث فيها ولها فاذا ما أحس بمعنى ووجد النص يتحدث عنه أدرك المطابقة بين الحقيقتين الكبيرتين : حقيقة الصدق فى النص وحقيقة حاله الذى هو فيه وأنه حال صالح ، وبشكل عام فالقلب يستقبل أربعة أنواع من الايحاءات:

(أ) الايحـاء الشيطانى : قال تعالى : **« شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا »**(١) • وقال تعالى : **« ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزرهم أزا »**(٢) • وقال تعالى : **« الشيطان يعدكم الفقر »**(٣) •

(ب) الايحاء النفسى : قال تعالى : **«ان النفس لأمارة بالسوء»**(٤) • وقال تعالى : **« ولا أقسم بالنفس اللوامة »**(٥) •

(ج) الخاطر الملكى : يقول عليه الصلاة والسلام : « فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق للحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (أخرجه الترمذى وحسـنه النسائى فى الكبرى عن ابن مسعود) •

(د) الالهام الربانى : قال تعـالى : **« والذين جاهدوا فينـا لنهدينهم سبلنا »**(٦) • وقال تعالى : **« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم »**(٧) •
ويسمى العلماء الايحاء الشيطانى وسوسة ، والايحاء النفسى هاجسا ، ويسمون القاء الملك فى القلب خاطرا ، ويسمون الالقاء الربانى واردا أو الهاما وهـذه قضايا محسة مذاقة عند من كان له قلب ، وأن يكون للانسان قلب يحس به وقلب لا يحس به هذه قضية تحدث عنها القرآن • قال تعالى : **« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب •• »**(٨) وحدد الله مكان هـذا القلب فى الصـدر حتى لا يشتط بالانسان فكره فقال : **« ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »**(٩) •
قلنا : ان من كان له قلب يحس بالالقاءات المتنوعة ويعرفها ويميز فيما بينها ، وقد جعل بعضهم علامات لكل نوع من أنواع الالقاءات ليجتمع العلم والذوق

---

(١) الأنعام : ١١٢
(٢) مريم : ٨٣
(٣) البقرة : ٢٦٨
(٤) يوسف : ٥٣
(٥) القيامة : ٢
(٦) العنكبوت : ٦٩
(٧) محمد : ١٧
(٨) سورة ق : ٣٧
(٩) الحج : ٤٦

للانسان فيميز بين أنواع هذه الالقاءات • ولقد فصل فى ذلك الشيخ أحمد الزروق فى كتابه «قواعد التصوف» فذكر أن من علامات الخاطر الشيطانى السرعة وضيق القلب ، وزواله بالذكر ، وأن الهاجس النفسى كثير الالحاح • وأن الخاطر الملكى يتمكن بالذكر وتصحبه برودة فى القلب وأن الوارد الربانى يكون فى شأن التوحيد • وذكر دقائق فى هذا المقام يحسن أن تراجع •

اذا اتضح هذا كله ندرك كيف أن المسلم الحى القلب وحده من بين بنى البشر يحس بشىء اسمه القلب ، ويحس بمجموعة التيارات التى تهب على هذا القلب ، فبينما يحس الكافر بقضية النفس وخواطرها فقط ، نجد المسلم يشترك مع الكافر بهذه الاحساسات مع تصفية لها وارتقاء فيها ويحس بأشياء كثيرة، وله آلة استقبال غير معطلة ، هذه الآلة فيها حياة ولهـا خصائص • ومن ثم فالتركيب العام للجانب الآخر للانسان المسلم يختلف اختلافا جوهريا عن كل انسان فى هذا العالم • ومن ثم ندرك أن كثيرا من الأمور الغيبية هى فى حق المسلم محسة مذاقة ولكنه احساس بآلة أخرى غير الحواس الظاهرة وذوق بآلة أخرى غيرالآلات الظاهرة وكذلك ندرك أن المسلم بشكل دائم يتلقى توجيها مباشرا من عالم الغيب بواسطة الالهام والخواطر الملكية كما يتلقى التوجيه عن طريق النبوة والوحى والمتمثل بالكتاب والسنة • فالمسلم العليم بالكتاب والسنة يتحرك فى كل أمر على ضوئهما ويسدده مع ذلك القاءات غيبية فى قلبه ولكن : ذكرنا من قبل أن أنواع الالقاءات التى تقذف فى قلب العبد المؤمن ليست فقط الالقاءات الربانية والالقاءات الملكية بل هناك القاءات نفسانية والقاءات شيطانية • والقلوب ما عدا قلوب الأنبياء غير معصومة ولا تستطيع دائما التمييز ولذلك فان المسلم مكلف بالنص المعصوم وعليه أن يزن كل ما ورد الى قلبه بميزان النص المعصوم ولذلك قال أبو سليمان الدارانى « ربما وقعت النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها الا بشاهدى عدل من الكتاب والسنة لأن الله عز وجل ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها لى فيما سوى ذلك » • ولنفرض أن المسلم وصل الى حالة أصبح بامكان قلبه أن يميز بين الالقاءات لكن احتمال الغلط يبقى واردا واحتمال الفتنة الربانية للقلب يبقى واردا من باب الابتلاء والامتحان ليبقى المؤمن ملتزما بالنص ومتحركا على ضوء العلم ومن ثم نجد الكتاب والسنة يحدثاننا عن قضية امتحان القلب فكما أن الجسد يمتحن فكذلك القلب يمتحن • قال تعالى : ((**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**))(١) • وقال عليه الصلاة والسلام « تعرض الفتن على القلوب عودا عودا فأى قلب أنكرها •• » ومن هذا كله ندرك أنه لا بد من قلب من نوع معين ولا بد من قلب يرفض الفتن ولا بد من ميزان ، والميزان هو الكتاب والسنة والقلب المعين هو القلب السليم الذى يرفض الفتن ولا يقبلها

(١) الحجرات : ٣

والذى وعد بعد الوصول أن يحفظ من الفتن ولكن لا يعنى أنه لا يفتن بل يفتن ولكن الفتنة لا تضره • وبعد هذا الكلام كله أصبح بامكاننا أن نعرف مواطن الغلط عند بعض الصوفية •

١ ـ لقد تصور بعض الصوفية أن بامكانهم أن يستغنوا من خلال الخاطر والكشف والالهام عن دراسة الكتاب والسنة وعن العلم بالعقائد والفقه والسير البصير الى الله وقواعد ذلك وبهذا يكونون قد أفقدوا أنفسهم الميزان وحيث لا ميزان فالتقدير خاطىء • قال تعالى : ((**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**))(١) • انه متى أضعنا الميزان وجد الضلال قال عليه الصلاة والسلام « انى تارك فيكم شيئين لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » (رواه الحاكم بلفظ (تركت ••) ورواه غيره) ••

٢ ـ لقد تصور بعض الصوفية أنه يمكن أن تصل بعض القلوب الى العصمة فاعتبروا كل ما يلقى فيها وكأنه وحى منزل وبذلك جعلوا قلوب الأولياء كقلوب الأنبياء وهذا كفر وضلال فالله عز وجل تعبد الخلق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكيف نجعل على قدم المساواة ما يلقى به فى بعض القلوب بما ألقى فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ((**وانه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك**))(٢) • فأين ذلك القلب وذلك الوحى من قلوب أخرى والقاءات أخرى مختلطة ومهما ادعى المدعون أن قلبا يرقى الى حيث يدرك ما يلقى فيه فان أحدا لا يجوز أن يدعى عصمة القلب والا فانه يكفر ••

٣ ـ انطلق كثير من الصوفية بلا ميزان وبتصور أن قلوب الشيوخ معصومة فضلوا وأضلوا • قال لى بعضهم على لسان كبير من الصوفية : « بقرآنى بآياتى لو أمرنى الشيخ أن أسجد للات لسجدت » فيا ويلاه من مثل هذا • هل هذا يجوز لمسلم أن يعتقد أن ما أمره الشيخ به يجوز له تنفيذه ولو كان كفرا ؟ أليس هذا هو عين ما فعله النصارى ((**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**))(٣) وذلك كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم • ويدافع بعض الناس عن أمثال هؤلاء بأن هذا يريد كذا وأن الشيخ يستحيل أن يأمره الا بخير ونقول : هل هناك شك بأن السجود للات والعزى شرك فكيف يعلن عن استعداده للطاعة حتى فى مثل هذا ، ان مجرد الاعلان عن الاستعداد للطاعة فى مثل

---

(١) الحديد : ٢٥
(٢) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٤
(٣) التوبة : ٣١

هذا كفر فلا يضلنك يا أخى عن الطريق المبصر تأويلات الجاهلين وكما كان شيخنا محمد الحامد رحمه الله يتمثل بقول :

خـل عنك الأوهام يا أم عمـرو ودعينـــا من طيشـك المعهـود

وهكذا وباختصار رأينا ما يمكن أن يصادفه السالك من الهامات وخواطر ورأينا حدود ذلك وجوانب الخطأ التى وقع فيها بعض الصوفية فى هذا المقام ٠ وبمناسبة الكلام عن الخواطر والالهامات نقول : انه لا شىء يساعد السالك على التمييز بين الخواطر والهواجس وغيرها مثل أكل الحلال والورع فيه فقـد قالوا : «من عرف ما يدخل فى جوفه عرف ما يهجس فى نفسه» ، وقضية أكل الحلال والورع فى شأن الكسب تعتبر من بديهيات الاسلام فى حق كل مسلم فضلا عن سائر فى طريق الولاية العظمى ولذلك لم نتكلم عنها كثيرا فى هـذا الكتاب لأن البحث المفصل فيها والطريق للتدقيق فى شأنها محله كتب الفقه ٠ على أن الغزالى فى المجلد الثانى من الاحياء عقد لذلك بحثا هو من أحلى وأعذب وأجود ما يقرأ فى هذا المقام ٠ولننتقل الى قضية أخرى تعرض للسالكين وهى قضية المنامات والرؤى ٠

ثالثا ـ الرؤى والمنامات : للرؤى والمنامات فى الحياة البشرية دور كبير وقد كان هذا الدور كبيرا فى كل العصـور وفى عصرنا بالذات أصـبح للرؤيا تفسيرات متعددة وأصحاب هذه التفسيرات لهم اتجاهات شتى ، والماديون بشكل عام يعتبرون الأحلام والرؤى المنامية من باب هواجس النفس وتداعى الأفكار ولكن هذا لا يفسر كل أنواع الرؤى التى يراها أصناف من الناس ومن ثم كان كلامهم يدور حول نوع واحد من أنواع الرؤى وقد كان المسلمون هم السباقين بفضل الوحى الى تصنيف الرؤى الى أنواع ثلاثة : الرؤى التى هى أثر عن هواجس النفس وتداعى الأفكار وهى التى تسمى الرؤى النفسـية والرؤى التى يتدخل فيها الشيطان بأن يتسلط فى نوم الانسان على محـل تداعى الفكر منه فيلقى اليه ما يلقى فتنتوجه رؤياه نتيجة لتلك بهذه الالقاءات وهى الرؤيا الشيطانية ثم يأتى النوع الثالث من الرؤى وهى الرؤى الروحية الربانية وهذا النوع من الرؤى شىء مهم جدا لأنه يكون مبشرا أو منذرا أو مخبرا أو محذرا الى غير ذلك من معان هى فى الذروة من توجيه الانسان والتأثير فى سلوكه أو فى توجيهاته ولقد استطاع علماء المسلمين من خلال ما قصه الله عز وجل علينا فى القرآن من رؤى وتفسيراتها كرؤيا يوسف ورؤيا العزيز ورؤيا ابراهيم ومن خلال الرؤى التى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفسرها أو رآها أصحابه وفسرها لهم عليه الصلاة والسلام أو من خـلال القواعد المستنبطة والاستقراءات الواسعة أن يكتبوا فى موضوع الرؤى أدق الكتب

العلمية وأن يضعوا القواعد التى بها تعرف ما اذا كانت الرؤيا شيطانية أو نفسانية او ربانية ثم ماذا تعنى رموز الرؤى الربانية لأن الغالب فى الرؤى أن تكون رمزية كما نرى هذا واضحا فى سورة يوسف سواء فى ذلك رؤيا يوسف نفسه عليه السلام أو رؤيا العزيز • والسالكون الى الله عز وجل والسائرون اليه والمقبلون عليه حظهم من الرؤى المبشرة كبير وفى الحديث الذى أخرجه مالك والبخارى وأبو داوود « لم يبق بعدى من النبوة الا المبشرات • قالوا وما المبشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة » فالروح كلما شفت انطبع فيها أثناء النوم معان من عالم الغيب هـذه المعانى ذات مغزى كبير ولها دورها الكبير فى توجيه الانسان ولو أننا تأملنا الحديث الصحيح « رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » • لو تأملنا هذا الحديث لأدركنا أهمية الرؤيا بالنسبة للقلب المسلم واذا عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسـأل أصـحابه يوميا تقريبا عما اذا كان أحدهم رأى رؤيا اذا عرفنا هـذا أدركنـا جهـل الذين لا يعطون للرؤيا أهمية • ولكن اذا كان للرؤيا مثل هذه الأهمية فلا شك ان التمييز بين أنواع الرؤى مهم وأن الهجوم على تعبير الرؤى ممن لا يتقن ذلك خطأ كبير لـمـا يترتب عليه من مفاسـد كثيرة اذ أكثر الرؤى تأتى بثوب رمزى فظاهرها شىء وتأويلها شىء آخر وأحيانا يكون ظاهريا مخيفا وتأويلها مبشرا والتأويل الخاطىء فى غاية الخطورة وكل ذلك يقتضى علما فى تعبير الرؤى وتأنيا فى التعبير اذ تفسير الرؤيا فى كثير من الأحـوال يشبه الفتوى فى كون المسألة قد تكون مرتبطة بعدة أبواب ولكل رؤيا مفاتيحـها وقد يكون مفتاحها فى اسم أو اشارة خفية ومن القـواعد الرئيسـية أن الرؤيا فى حق الأنبياء وحى ولذلك يبنون عليها الأحكام فهـذا سيدنا ابراهيم بنى على رؤياه أنه قرر ذبح اسماعيل عليه السلام ولكنها فى حق غير الأنبياء ليست وحيا • فالرؤى فى حق غير الأنبياء يمكن أن تكون نفسية أو شيطانية أو ربانية فهى مختلطة وحتى الرؤيا الربانية تأتى فى كثير من الأحيان بشكل رموز وقد يخطىء المعبر ولأمر ما استعمل القرآن لفظة (الظن) قال تعالى • على لسان يوسف : « **وقال للذى ظن أنه ناج منهما** »(١) • فمع أن يوسف عليه السلام كان يعبر بالهام ربانى ومع ذلك أشعرتنا الآية أن التعبير يبقى للظن فيه نصيب هذا مع ملاحظة أن (ظن) فى اللغة تأتى أحيانا بمعنى تيقن وعليها تحمل الآية ومن ثم فاجماع المسلمين متفق على أن الرؤيا فى حق غير الأنبياء لا يجوز أن تكون مصدر تشريع وحتى قالوا لو أن الانسان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو الذى لا يمكن أن يتمثل الشيطان بصورته فأمره أمرا يخالف الشريعة فاننا نقول له انك واهم ويحرم عليه أن يبنى على رؤياه فكيف فيما سوى ذلك من الرؤيا والذى حدث فى شأن الرؤيا عند بعض الصوفية أنهم :

---

(١) يوسف : ٤٢

١ ـ يبنون على الرؤى مواقف تناقض شريعة الله عز وجل وتناقض أحكام الله فما أكثر ما بني صوفي على رؤيا فاتخذ موقفا كأن يعطي ولاءه لكافر بناء على رؤيا فأين النصوص ..!

٢ ـ ربما يوجه الشيخ رؤيا المريد في اتجاه لا يخدم حتى مصلحة المريد الأخروية وبما لا يتفق مع أصول تعبير الرؤيا .

٣ ـ كثيرا ما حدث أن أقام بعض الشيوخ بناء على رؤى أعمالا هي من باب البدع عند الفقهاء .

٤ ـ كثيرا ما كانت الرؤى سببا في اعطاء حجم لأمور أو اعطاء صفة لم يعطها الشارع كأن نجد شيخا يعتبر العمل الفلاني أعظم عند الله من عمل آخر بينما النصوص على خلاف ذلك . وهكذا نجد أن الرؤى التي يصادفها السالكون الى الله كما يصادفها غيرهم كانت في كثير من الأحيان سببا في خطأ شرعي فأبدلت النعمة بذلك فصارت بسبب الجهل اما طريقا للكفر أو معبرا لخطأ شرعي أو لضلال . هذه نماذج ثلاثة ذكرناها في هذا الباب مما يمكن أن يصادفه السالك الى الله وكيف يمكن أن تؤدي بسبب الجهل أو الخطأ أو غير ذلك الى انحرافات ولذلك أردنا أن نبين حدود هذه الأمور . ولننتقل الى قضية أخرى تصادف السالك الى الله أو يسمع عنها وللناس في شأنها أغلاط كثيرة وتقوم بسببها توهمات كثيرة وهي قضية الكرامات .

رابعا ـ الكرامات: عقد الشيخ النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين بابا ذكر فيه بعض الكرامات فلنر ما ذكره الشيخ قال : (باب كرامات الأولياء وفضلهم) .

فى كرامات الأوليــاء وفضلهم

قال الله تعالى : ((**ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون • لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم**))(١) •

وقال تعالى : ((**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عنــدالله ، ان الله يرزق من يشــاء بغير حساب**))(٢) •

وقال تعالى : ((**واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا • وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال**))(٣)• الآية ••

ـ وعن أبى محمد عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال مرة : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس ، •• بسادس » أو كما قال ، وأن أبا بكر رضى الله عنه جاء بثلاثة ، وانطلق النبى صلى الله عليه وسلم بعشرة ، وأن أبا بكر تعشى عند النبى صلى الله عليه وسلم ثم لبث حتى صلى العشاء ، ثم رجع فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله ، قالت امرأته ، ما حبسك عن أضيافك ؟ قال :أو ماعشيتهم؟ قالت : أبوا حتى تجيء وقد عرضوا عليهم • قال : فذهبت أنا فاختبأت ، فقال: يا غنثر ، فجدع وسب ، وقال : كلوا لا هنيئا والله لا أطعمه أبدا • قال : وأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة الا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبــل ذلك ، فنظر اليهــا أبو بكر فقــال لامرأته : يا أخت بنى فراس ما هذا ؟ قالت : لا وقرة عينى لهى الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مــرات ! فأكل منهــا أبو بكر وقال : انمــا كان ذلك من الشــيطان (يعنى يمينه) ثم أكل منهالقمة ثم حملها الى النبى صلى الله عليه وسلم فأصبحت عنده ، وكان بيننا وبين قوم عهد فمضى الأجل فتفرقنا اثنى عشر رجلا مــع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل ، فأكلوا منها أجمعون • وفى رواية : فحلف أبو بكر لا يطعمه ، فحلفت المرأة لا تطعمه ، فحلف الضيف أو

---

(١) يونس : ٦٢ ـ ٦٤

(٢) آل عمران : ٣٧

(٣) الكهف : ١٦ ، ١٧

الأضياف أن لا يطعمه أو يطعموه حتى يطعمه ، فقال أبو بكر : هـذه من الشيطان ! فدعا بالطعام فأكل وأكلوا ، فجعلوا لا يرفعون لقمة الا ربت من أسفلها أكثر منها ، فقال : يا أخت بنى فراس ما هذا ؟ ! قالت : وقرة عينى انها الآن لأكثر منها قبل أن نأكل ، فأكلوا وبعث بها الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر أنه أكل منها • وفى رواية : أن أبا بكر قال لعبد الرحمن : دونك أضيافك فانى منطلق الى النبى صلى الله عليه وسلم فافرغ من قراهم قبل أن أجىء ، فانطلق عبد الرحمن فأتاهم بما عنده ، فقال : اطعموا • فقالوا : أين رب منزلنا ؟ قال : اطعموا : قالوا : ما نحن بآكلين حتى يجىء رب منزلنا، قال : اقبلوا عنا قراكم فانه ان جاء ولم تطعموا لنلقين منه ، فأبوا فعرفت أنه يجد على ، فلما جاء تنحيت عنه ، فقـال : ما صنعتم ؟ فأخبروه ، فقـال : يا عبد الرحمن ، فسكت ، ثم قال : يا عبد الرحمن فسكت ، فقال : يا غنثر أقسمت عليك ان كنت تسمع صوتى لمـا جئت ، فخرجت فقلت: سل أضيافك ، فقالوا : صدق ، أتانا به ، فقال : انما انتظرتمونى والله لا أطعمه الليلة ، فقال : الآخرون : والله لا نطعمه حتى تطعمه ، قال : ويلكم ما لكم لا تقبلون عنا قراكم ؟ هات طعامك ، فجاء به فوضع يده فقال : بسم الله ، الأولى من الشيطان ، فأكل وأكلوا • (متفق عليه) • قوله « غنثر » بغين معجمـة مضمومة ثم نون ساكنه ثم ثاء مثلثة وهو : الغبى الجاهل • وقوله « فجدع » أى ستمه والجدع : القطع • قوله : « يجد على » هو بكسر الجيم : أى يغضب •

ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فان يكن فى أمتى أحد فانه عمر » (رواه البخارى • ورواه مسلم من رواية عائشة) • وفى روايتهما قال ابن وهب : « محدثون » أى ملهمون •

ـ وعن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال : شكا أهل الكوفة سعدا (يعنى ابن أبى وقاص) رضى الله عنه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستعمل عليهم عمارا ، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلى ، فأرسل اليه فقال : يا أبا اسحاق ان هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلى ، فقال : أما أنا والله فانى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أخرم عنها : أصلى صلاتى العشاء فأركد فى الأوليين وأخف فى الأخريين ، قال ذلك الظن بك يا أبا اسحاق ، وأرسل معه رجلا أو رجالا الى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة ، فلم يدع مسجدا الا سأل عنه ويثنون معروفا ، حتى دخل مسجدا لبنى عبس فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة . فقال : أما اذ نشدتنا فان سعدا كان لا يسير بالسرية ، ولا يقسم بالسوية . ولا يعدل فى القضية • قال سعد : أما والله لأدعون بثلاث : اللهم

ان كان عبدك هذا كاذبا قام رياء وسمعة ، فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعرضه للفتن ! وكان بعد ذلك اذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد • قال عبد الملك بن عمير الراوى عن جابر بن سمرة : فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، وانه ليتعرض للجوارى فى الطرق فيغمزهن • (متفق عليه) •

ـ وعن عروة بن الزبير أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه خاصمته أروى بنت أوس الى مروان بن الحكم وادعت أنه أخذ شيئا من أرضها ، فقال سعيد : أنا كنت آخذ من أرضها شيئا بعد الذى سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال : ماذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوقه الى سبع أرضين » فقال له مروان : لا أسألك بينة بعد هذا ، فقال سعيد : اللهم ان كانت كاذبة فأعم بصرها ، واقتلها فى أرضها ، قال : فما ماتت حتى ذهب بصرها ، وبينما هى تمشى فى أرضها اذ وقعت فى حفرة فماتت • (متفق عليه) • وفى رواية لمسلم عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بمعناه ، وأنه رآها تلتمس الجدر تقول : أصابتنى دعوة سعيد ، وأنها مرت على بئر فى الدار التى خاصمته فيها فوقعت فيها فكانت قبرها •

ـ وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : لما حضرت «أحد» دعانى أبى من الليل فقال : ما أرانى الا مقتولا فى أول من يقتل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وانى لا أترك بعدى أعز على منك غير نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان على دينا فاقض واستوص بأخواتك خيرا ، فأصبحنا فكان أول قتيل ، ودفنت معه آخر فى قبره ، ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع آخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فاذا هو كيوم وضعته غير أذنه فجعلته فى قبر على حدة • (رواه البخارى) •

ـ وعن أنس رضى الله عنه أن رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجا من عند النبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما ، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله • (رواه البخارى من طرق) • وفى بعضها : أن الرجلين أسيد بن حضير ، وعباد بن بشر ، رضى الله عنهما •

ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه فانطلقوا حتى اذا كانوا بالهداة بين عسفان ومكة ، ذكروا لحى من هذيل

يقال لهم بنو لحيـان فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام ، فاقتصـوا آثارهم ، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا الى موضع فأحاط بهم القوم ، فقالوا : انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدا . فقال عاصم بن ثابت : أيهـا القوم أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك صلى الله عليه وسلم . فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما ، ونزل اليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق ، منهم خبيب ، وزيد بن الدثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم ، قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر والله لا أصحبكم ان لى بهؤلاء أسوة (يريد القتلى) فجروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل ابن عبد مناف خبيبا ، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته ، فدرج بنى لها وهى غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب ، فقال : أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك . قالت : والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب ، فوالله لقد وجدته يوما يأكل من عنب فى يده الموثق بالحـديد وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : انه لرزق رزقه الله خبيبا ، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل قال لهم خبيب : دعونى أصلى ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع لزدت ، اللهم أحصـهم عددا واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا ، وقال :

فلست أبالى حين أقتـل مسلما   على أى جنب كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وان يشـأ   يبـارك على أوصـال شلو ممزع

وكان خبيب هو سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة ، وأخبر (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) أصحابه يوم أصيبوا خبرهم ، وبعث ناس من قريش الى عاصم بن ثابت حين حدثوا أنه قتل أن يوعتوا بشىء منه يعرف ، وكان قتل رجلا من عظمائهم ، فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئا . (رواه البخارى) . قوله : « الهداة » موضـع . و « الظلة » : السحاب . و « الدبر » : النحـل . وقـوله : « اقتلهم بددا » بكسر الباء وفتحها ، فمن كسر قال : هو جمع بدة بكسر الباء وهى : النصيب ومعناه : متفرقين فى القتل واحدا بعد واحد ، من التبـديد .

وفى الباب أحاديث كثيرة صحيحة سبقت فى مواضعها من هذا الكتاب .

منها حديث الغلام(١) الذى كان يأتى الراهب والساحر ٠ ومنها حديث جريج(٢) وحديث أصحاب الغار(٣) الذين أطبقت عليهم الصخرة ، وحديث الرجل الذى سمع صوتا فى السحاب(٤) يقول : اسق حديقة فلان ، وغير ذلك ٠ والدلائل فى الباب كثيرة مشهورة ، وبالله التوفيق ٠

ـ وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه يقول لشىء قط انى لأظنه كذا الا كان كما يظن ٠ (رواه البخارى) ٠

هذا ماذكره الشيخ النووى فىكتابه «رياض الصالحين» عن كرامات الأولياء وفضلهم وبه تعرف وجود الكرامة ووجوب الايمان الشرعى بها ٠ وفى كتب التوحيد عادة تبحث قضية الكرامات والخوارق للعادات بشكل عام فيذكرون هناك المعجزة والارهاص والكرامة والاهانة والاستدراج ومن المعلوم أن السحر لا يدخل فى باب الخوارق لأنه جزء من عالم الأسباب ٠ والكرامة على نوعين : منها ما هو خرق لعادة ومنها ما كان على مقتضى عالم الأسباب ولكنه من مظاهر التوفيق الالهى ويسميه العلماء : (معونة) والتفريق بين أنواع الخوارق للعادات ومعرفة كل منها كل ذلك من مباحث علم التوحيد فلتراجع هناك والذى نحب أن نقف عنده هنا هو : أن الكرامة ثابتة شرعا وأن هذا يكاد يكون من المعلوم من الدين بالضرورة ولكن التمييز بينها وبين أنواع الخوارق الأخرى دقيق جدا كما أن التمييز بين الخوارق وبين السحر أصلا يحتاج الى دقة كثيرة ٠ وكل ذلك ليس محل بحثنا هنا وانما محل بحثنا هنا نقطتان : النقطة الأولى أن الكرامة وقعت وتقع فى دوائر التصوف وأن أعداء التصوف بشكل عام يحاولون أن ينكروا أن تكون هناك كرامة أصلا تقع للمنتسبين للتصوف بل هم يحاولون أن يعطوا هذه الكرامات أسماء أخرى وهذا خطأ وغلو ٠ لقد ذكرنا من قبل أن ابن تيمية رحمه الله ذكر أن كرامات الشيخ عبد القادر الجيلانى منقولة تواترا بل كان الشيخ ابن تيمية لا يذكر الشيخ الجيلانى الا ويعقب على ذلك بقوله : (قدس الله سره) فانكار أصل الكرامة لطبقات الصوفية انكار غير علمى وليس فى محله وأهم ما ينصب عليه الانكار ما يحدث لأهل الطريقة الرفاعية من كون النار لا تؤثر فيهم ومن كونهم يضربون أنفسهم بالرصاص أو بالسيوف ولا يؤثر ذلك فيهم وهذه قضية منتشرة ومشتهرة محسة وقد تتبعها الكثير من المنكرين فرجعوا عن الانكار والواقع المشاهد أن ما يحدث لهؤلاء لا يمكن أن يكون سحرا لأن السحر جزء من عالم الأسباب وههنا لا تجد لعالم الأسباب محلا

---

(١) أنظر الحديث رقم ٣٠ ص ١٧

(٢) أنظر الحديث رقم ٢٥٩ ص ٨٨

(٣) أنظر الحديث رقم ١٢ ص ٦

(٤) أنظر الحديث رقم ٥٦٠ ص ١٦٩

كما أنه لا يمكن أن يكون من باب الرياضات الروحية لأن هؤلاء قد تحدث للواحد منهم هذه الخوارق من دون رياضة روحية أصلا بل بمجرد أن يأخذ البيعة عن الشيخ بل أحيانا بدون بيعة ٠ وقد حدثني مرة نصراني عن حادثة وقعت له شخصيا وهي حادثة مشهورة معلومة جمعني الله بصاحبها شخصيا بعد أن بلغتني الحادثة من غيره وحدثني كيف أنه حضر حلقة ذكر فضربه أحد الذاكرين بالشيش في ظهره فخرج الشيش من صدره حتى قبض عليه بيده ثم سحب الشيش منه ولم يكن لذلك أثر أو ضرر ٠ ان هذا الشيء الذي يجري في طبقات أبناء الطريقة الرفاعية ويستمر فيهم هو من أعظم فضل الله على هذه الأمة اذ من رأى ذلك تقوم عليه الحجة بشكل واضح على معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ٠ ان من يرى فردا من أفراد الأمة الاسلامية يمسك النار ولا تؤثر فيه كيف يستغرب أن يقذف ابراهيم في النار ولا تؤثر فيه ؟ وان من يرى فردا من أفراد أمة محمد عليه الصلاة والسلام يخرج السيف من ظهره بعد أن يضرب فيه في صدره ثم يسحب السيف ولا أثر ولا ضرر هل يستغرب مثل هذا حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام ٠ ان هذا الموضوع مهم جدا ولا يجوز أن نقف منه موقفا ظالما ومحله في اقامة الحجة في دين الله على مثل هذه الشاكلة ، ان الحجة الرئيسية لمنكري هذا الموضوع هي أن هذه الخوارق تظهر على يد فساق من هؤلاء كما تظهر على يد صالحين وهذا صحيح ٠ والتعليل لذلك هو أن الكرامة ليست لهؤلاء بل هي للشيخ الأول الذي أكرمه الله عز وجل بهذه الكرامة وجعلها مستمرة في أتباعه من باب المعجزة لرسولنا عليه السلام فهي كرامة للشيخ الذي هو الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله وقد تكون استدراجا في حق بعض أتباعه الفساق واني لأطمع أن يوجد من يتتبع هذا الأمر من طلاب العلم النشطين ويكتب في هذه الطريقة وشيخها وأتباعه من يوم وجودها حتى عصرنا وأن يتتبع ما يجري عند هؤلاء وأن يأخذ شهادات من شهده من أصناف شتى ولقد استطردت في هذا الموضوع لأنه ذروة ما ينصب عليه الانكار وعلى كل حال فتسجيلي هنا لهذا الموضوع انما هو لفت نظر وليس تحقيقا في كل حيثياته وخاصة حول متى يجوز أن يلمس الانسان النار أو يضرب نفسه بمؤذ ومتى لا يجوز ٠ مثل هذه الأمور لها أجوبتها الفقهية ورأيي فيها هو رأي الفقهاء كائنا ما كان وأهم شيء عندي وهو الذي سجلت من أجله هذه النقطة هو ألا نقف من الكرامات أصلا موقف المنكر وألا نتعامل مع أهلها بحساسية بل أن نعطي للتحقيق مداه هذا هو الأصل فمن نقلت لنا كراماته نقلا صحيحا ولم يكن هناك مأخذ شرعي على صاحبها فما هو المانع أن نعتبر ذلك كرامة من الله عز وجل ولقد كان لبعض شيوخنا من الكرامات ما هو الظاهر والواضح وأكرر أنني أتمنى أن يتابع موضوع الكرامات مع غيره الى نهاياته وأنني أعتبر الخدمة في هذا الموضوع من أعظم الخدمات التي تقدم لدين الله في هذا العصر اذ أن الكرامات امتداد للمعجزات

وهى من مظاهر حجج الله على خلقه بأن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

النقطة الثانية : يقول ابن عطاء فى حكمه : « ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه » ٠ وقال : « ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة » ٠ قدمنا بهاتين العبارتين لهذه النقطة للتدليل عليها من كلام الصوفية أنفسهم ٠ ان بعض الصوفية يعتبرون الكرامة دليل الولاية ويعتبرون الولاية مظنة العصمة فمتى ظهرت كرامة على يد شيخ اعتبروا ذلك علامة على العصمة وان أعطوا العصمة هنا اسم الحفظ ثم بنوا على ذلك وجوب الالتزام بالشيخ ووجوب استشارته فى كل شىء ووجوب الالتزام بكل ما قاله ويأخذون عنه الفتوى والسلوك فى كل أمر وهو موضوع يترتب عليه ما يترتب من فساد أحيانا يقول الامام مالك : «ان من شيوخى من أستسقى به ولا أقبل حديثه»٠٠ تأمل هذه العبارة العظيمة لتدرك ما نريده ٠ ان أولياء هذه الأمة كثيرون وانهم بفضل الله ليتكاثرون فاذا أعطت كل مجموعة من المسلمين شيخها صفة الامامة المطلقة المحوطة بهالة الولاية فكم سيترتب على ذلك من انقسامات وتشتتات وأخطاء ٠ ان من ظهرت كرامته وكان مستقيما فتلك مظنة ولايته وهو أهل لأن يتبرك به وتطلب دعواته ولكن ان لم يكن فقيها لا تؤخذ الفتوى عنه ٠ وان لم يكن خبيرا باصطلاحات العلوم لا تؤخذ العلوم عنه واذا لم يكن ذا وعى على ما يجرى حولنا فلا نسلمه قيادتنا فى أمور السياسة فالكرامة شىء وأن يكون لانسان دور الامامة شىء آخر ٠ هذا موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام : لقد أعطى الخضر بعض الميزات ولكن من الأفضل هو أو موسى ؟ انه موسى عليه السلام ومن الذى أعطاه الله منصب الامامة والقدوة ؟ انه موسى عليه السلام ٠ ان الفهم العميق للامور ووضع كل شىء فى محله ومعرفة ما نأخذ من كل انسان وما هو المحل الذى نضع فيه كل انسان فى جسم هذه الأمة الاسلامية الكريم ٠ ان هذا من أهم ملامح المسلم الواعى الحكيم ٠٠ اذا استوعبت كل ما مر فى هذا الباب من الكلام عن الكشف والرؤى والالهام والكرامات فقد آن لك أن تستوعب بدقة كلام الأستاذ البنا رحمه الله حين قال فى « رسالة التعاليم » عند بند الفهم :

٣ ـ وللايمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده ولكن الالهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر الا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه ٠

٤ ـ والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته الا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة ٠

٥ ـ وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك الا المعصوم صلى الله عليه وسلم وكل ما جاء عن السلف رضى الله عنهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه والا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ولكننا لا نعرض للاشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم الى نياتهم وقد أفضوا الى ما قدموا ·

٦ ـ ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة الى الله تبارك وتعالى والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ((**الذين آمنوا وكانوا يتقون**))(١) · والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم » ·

والجزء الأخير من الفقرة الأخيرة من كلامه عليه الرحمة لنا عودة عليه فالى باب آخر عن الشيخ والبيعة لما لأهمية ذلك فى قضية التصوف ولكثرة الأغلاط التى تحيط بهذا الموضوع ·

---

(١) يونس : ٦٣

الباب الخامس عشر

قضية الشيخ والبيعة

قال تعالى : ((**ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا**))(١) ٠ دلت هذه الآية على أن الغاية فى القدرة على الهداية هو الولى المرشد اذ الآية تبين أن الولى المرشد نفسه لا بخرق مراد الله اذا أراد الله اضلال انسان ومن ثم نعلم أن الدعوة الى الله عز وجل تكون أكمل ما تكون اذا وجد الولى المرشد وعندما يضع الانسان يده بيد الولى المرشد يكون ذلك أجود ما يكون فى باب الهداية الى الله والى طريقه واذا كان الرسل عليهم السلام فى الأصل هم الهداة الحقيقيين الى الله عز وجل فالأولياء المرشدون هم الوراث الكاملون للانبياء فى باب الدعوة الى الله عز وجل ، ومن هذا المعنى الذى ذكرناه ندرك أهمية وجود الولى المرشد لصلاح الدعوة الى الله عز وجل واذ أحاط بهذا الأمر كثير من الخطأ والغلط والدعاوى الكاذبة والأوهام المضللة فلا بد أن نذكر الكثير الكثير حوله وسنعرض معانى متناثرة فى فقرات متوالية يضمها أن لها صلة بعنوان الفصل كل منها يوضح جانبا من جوانب هذا الموضوع ٠

١ ـ قال تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**))(٢) يستشهد كثير من الصوفية بهذه الآية على أن الله عز وجل أمر بالكون مع الصادقين ويعتبرون من حيث المبدأ أنهم هم الصادقون والذى نقوله ان الله عز وجل قد حدد صفات الصادقين تحديدا دقيقا فمن اتصف بهذه الصفات فهو الصادق ومن لم يتصف بذلك فليس كذلك فلنذر هذه الصفات قال تعالى : ((**انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون**))(٣) ٠ وقال تعالى : ((**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام**

---

(١) الكهف : ١٧

(٢) التوبة : ١١٩

(٣) الحجرات : ١٥

الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون))(١) • وقال تعالى : ((**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا))(٢)** • وقال تعالى : ((**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون))(٣)** • فالصادقون مؤمنون ، موقنون مصلون مزكون متقون صابرن وافون بالعهود منتظرون أن يقتلوا فى سبيل الله فالشيخ المربى ينبغى أن يكون متصفا بهذه الصفات جميعا ويربى عليها والا فلا يصح للكون معه ولا يكون ممن يستأهل مقام الارشاد •

٢ ـ قال تعالى : ((**ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون • لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة))(٤)** •
هذا تعريف لمجرد الولى • وهو من اجتمعت له صفتا الايمان والتقوى والشيخ ينبغى أن يكون وليا مرشدا أى له صفة الارشاد فوق صفة الولى فمن لم يكن مؤمنا تقيا كيف يسمى وليا فضلا عن أن يسمى وليا مرشدا ومن ثم مينبغى أن يلاحظ الكثيرون هذا أن الولاية جزء المشيخة وأن الولاية ركناها : ايمان وتقوى ولا ايمان ولا تقوى بلا التزام بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

من الفقرتين السابقتين ندرك بعض أمهات الصفات التى ينبغى أن يتصف بها الشيخ واذا كان الشيخ مرشدا فلا شك أن ارشاده ينبغى أن يكون ضمن توجيهات الآية القرآنية : ((**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون))(٥)** •
من هذه الآية نفهم أن الارشاد يقتضى فقها فى دين الله ثم انذارا فمن لم يكن فقيها لا يصلح لمقام الانذار ومن لم يقم بمهمة الانذار لا يؤدى حق الله فى فقهه وذلك مظهر من مظاهر الوراثة الكاملة لرسل الله عليهم السلام ، ((**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل))(٦)**
والتفقه فى دين الله يقتضى فقها فى الكتاب والسنة وفقها فى الايمان والاسلام والاحسان والتقوى والشكر ومن لم يجتمع له الفقه فى هذا كله وتفصيلاته وما يلزم له لا يكون فقيها فى دين الله عز وجل ومن لم يحسن التربية على هذا كله لا يصلح لمقام الارشاد ومن لا يحسن تعليم هذا كله وغيره لا يصلح

---

(١) البقرة : ١٧٧
(٢) الأحزاب : ٢٣
(٣) الحشر : ٨
(٤) يونس : ٦٢ ـ ٦٤
(٥) التوبة : ١٢٢
(٦) النساء : ١٦٥

لمقام الارشاد الكامل أى مقام الشيخ الذى يخدم خدمة كاملة فى موضوع السير الى الله عز وجل ٠

٣ ـ قال تعالى : ((**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**))(١) ٠ هذه الآيه تحدد بعضا من واجبات النبوة وبالتالى بعضا من صفات الوارث أى الشيخ فى الاصطلاح الصوفى أى الولى المرشد فى الاصطلاح القرآنى فلا بد للشيخ أن يكون حكيما يدعو الى طريق الله بالحكمة ٠ والحكمة معنى زائد على مجرد العلم ٠ قال تعالى : ((**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا**))(٢) ٠ فالحكمة عطاء من الله عز وجل فقد يكون الانسان عالما بالكتاب والسنة ولكن لا يقول الكلمة المناسبة فى محلها ولا يتصرف التصرف المناسب ٠ ان الحكيم هو الذى يقول الكلمة المناسبة ويتصرف التصرف المناسب ضمن حدود الشريعة ومن ذلك قضية الدعوة ٠ والحكمة عطاء ربانى وتحتاج الى توفيق ربانى فى الأنفاس والحركات وكما أن الشيخ لا بد أن يكون حكيما ، لا بد أن يكون قادرا على الموعظة الحسنة وما أكثر الذين يعظون ولا يحسنون وما أكثر الذين لا يعظون أصلا كما أن الشيخ ينبغى أن يكون قادرا على النقاش واقامة الحجة لا بالطريقة الحسنة فقط بل بالطريقة الحسنى وذلك كله من أدب الشيخ وينبغى أن يكون جزءا من تكوينه ولا يتم هذا للشيخ الا بعلم وتربية ومجالسة وذكر كثير ٠ قال تعالى : ((**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**))(٣) ٠ ان رجاء الله واليوم الآخر والذكر الكثير يوصلان الى التأسى الكامل برسول الله صلى الله عليه وسلم ويأتى تبعا لذلك الكمال كله ٠

٤ ـ قال تعالى : ((**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**))(٤) ٠
فالوارث أى الشيخ ينبغى أن يرث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فيذكر الناس بآيات الله فى الكون والتاريخ ويربى النفس البشرية ويطهرها من عيوبها ويخلصها من أمراضها ويعلم الناس كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اذ هى عين الحكمة ويعلم الناس كل ما يلزمهم فى أمر دينهم من فقه الى غيره وهذا لا يتأتى للشيخ اذا لم يكن عالما فى الكتاب والسنة قادرا على تربية النفس البشرية محيطا بعلوم الاسلام والثقافة

---

(١) النحل : ١٢٥
(٢) البقرة : ٢٦٩
(٣) الأحزاب : ٢١
(٤) البقرة : ١٥١

الاسلامية عارفا بعصره وبالتاريخ • وههنا يطرح الناس فكرة هى أنه لا يشترط بالشيخ ذلك لأن كثيرا من كبار الأولياء تتلمذ عليهم كبار العلماء •

نقول اننا لا ننفى أن يكون وليا قادرا على التربية والهداية مع قصور باع فى علوم الكتاب والسنة والفقه وغير ذلك • ولا ننكر أن يستطيع مثل هذا أن يفيد كبار العلماء فى هذا الجانب ولكن هـذا شىء والوارث الكامل شىء آخر ، والشيخ الكامل والمرشد الكامل هو الذى نتحدث عنه والمشكلة الكبيرة أن كثيرين يعتبرون شيوخهم هم الوراث الكاملين مع أنهم لم يرثوا عن رســول الله صلى الله عليه وسلم الا بعض الأمر والشيوخ أنفسهم يسكتون عن غلو تلاميذهم بهم بحجة أن المريد يستفيد بقدر ثقته بالشيخ الا أن هذا يترك آثارا سيئة فى المجتمع الاسلامى اذ لا يعرف مريد أمثال هؤلاء الشيوخ من الذين يشكلون القيادات الحقيقية للمسلمين • ولقصـور شيوخهم فى باب العلم فانهم يفتونهم الفتاوى القاصرة فى الشئون العامة أو الخاصة وفى ذلك ما فيه من خلل •••

٥ ـ روى الامام مسلم عن حنظلة بن الربيع الأسيدى أحد كتاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : لقينى أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة • قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنـار والجنـة كأنا رأى عين • واذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا • قال أبو بكر : فوالله انا لنلقى مثل ذلك • فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله • فقال وما ذاك ؟ قلت : نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا • فقال صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة • ثلاث مرات » • من هذا الحديث نفهم أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حالا يترقى به أصحابه حتى انه ليعدل الذكر فى كون ملازم الجلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل الى ما يصل اليه الذاكر الدائم الى حالة يمكن أن تصافحه بها الملائكة • وقد ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى روايات صحيحة عنهم كيف أنهم أنكروا قلوبهم بعد أن فرغوا من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم • كل هذا يدل على أن الأحوال القلبية كانت محسوسة من خلال مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوده بين الصحابة وأن من مظاهر هذا الحال أن يستشعر الصحابى وكأنه يرى الجنة والنار رأى عين • من هذا كله ندرك أن الشيخ

الوارث ما لم يكن عنده شيء من هذا الحال فانه لا يكون وارثا نبويا كاملا ، ومن خلال الواقع نجد أن الذين ليس لهم سير صوفى لا يستطيعون أن ينقلوا هذه الاحساسات الى غيرهم كما أنهم هم أنفسهم لا يستشعرون بها • ومن ثم فاننا نقول : ان كل طالب علم ينبغى أن يتحقق بهذه المعانى بسلوك الطريقة الموصلة الى ذلك واننا لنرجو أن يكون هذا الكتاب موضحا لكل حيثيات هذا السلوك •

من خلال النصوص التى ذكرناها ندرك بعض صفات الولى المرشد أو الوارث الكامل أو المرشد الكامل أو الشيخ • فهو ولى مرشد حكيم داعية الى الله معلم لآيات الله معلم للكتاب والسنة قادر على تزكية النفس • قادر على نقل القلب البشرى الى آفاق الاستشعار لكثير من أمور الغيب قادرا على النقل الى مقامات الاسلام ، وهذا كله يقتضى أن يتجمع فيه علم معين وعمل معين وحال معين ليكون معلما مربيا من خلال القدوة والتعليم بآن واحد وعليه أن يتحقق بصفات الصادقين التى من جملتها الجهاد بالنفس والمال وقد رأينا أدلتها من قبل • هذه قضايا لها حكم البديهيات لنعطى انسانا صفة الوارث الكامل لظهورها فى النصوص ووضوحها • والآن لنر بعض ما يقوله الصوفية أنفسهم فى قضية الشيخ ننقلها مع شيء من التعليق مستأنسين بشرح بعض الشارحين :

« عار لمن لم يرض العلوما » أى لم يعانها ويمهر فيها حتى تصير طوع يده ليكون على بينة من ربه • « ويعلم الموجود والمعدوما » أى يعلم الوجود الواجب والوجود العارض والعدم الواجب والعدم العارض • « ولم يكن فى بدئه فقيها » أى ينبغى أن يكون الفقه هو السابق على كل شيء اذ لا ينبغى لانسان أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه • « وسائر الأحكام ما يدريها » أى لا يعرف حكم الله فى الأمور التى تواجهه أو تصادفه أو يمكن أن يبتلى فيها • « والحد والأصول واللسانا » المراد بالحد علم المنطق • وبالأصول علم أصول الفقه وباللسان علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وغير ذلك • « والذكر والحديث والبرهانا » المراد بالذكر القرآن وبالحديث السنة وبالبرهان علم العقائدالتوحيدية • « ولم يكن أحكم علم الحال » المراد بعلم الحال علم التصوف أى ينبغى على الشيخ كذلك أن يتقن علم الحال والمقام بحيث يكون سلك طريق الأحوال ثم سكن فى المقامات • « ولا درى مقاصد الرجال » : أى لا يستطيع أن يفهم عبارات العلماء فى تصريحهم وتوضيحهم واشاراتهم ورموزهم وألغازهم ومقاصدهم فى ذلك كله • « ولم ينزه صفة المعبود » بأن يعرف الله حق المعرفة منزها اياه عن الحدوث أو الحلول أو الاتحاد أو المشابهة أو المشاكلة أو غير ذلك

مما لا يجوز عليه جل جلاله . « ولا درى مراتب الوجود » أى من وجوَد عارض ووجود واجب ووجود مشاهد ووجود مغيب « والنفس والعقل معا وَالروحا » أى لا يعلم على ماذا تطلق كلمة النفس وعلى ماذا تطلق كلمة العقل وعلى ماذا تطلق كلمة الروح ومتى يكون المحل واحدا ومتى يكون المراد مختلفا وليس المراد معرفة الكنه كما مر معنا من قبل « ويدرى منه صدره المشروحا » أى ولم يدر أيضا معنى الصدر المشروح بالاسلام وما علامة شرحه من تجاف عن دار الغرور وانابة الى دار الخلود وغير ذلك « وعلم سر النسخ والمنسوخ » أى ولم يعرف قضية الناسخ والمنسوخ فى الكتاب والسنة لأنه بدون هذا العلم يضل (بفتح الياء) ويضل (بضمها) ، ثم قال الشيخ : «أن يتعاطى رتبة الشيوخ » أى من لم يجتمع له كل ما مر فعار عليه أن يتصدر للمشيخة . وطبعا المراد بها هنا الارشاد الكامل أما ما سوى ذلك من نصيحة ومذاكرة وتعليم وافادة بالمقال أو بالحال فهذا بابه مفتوح لأفراد الأمة . ففى الحديث : « بلغوا عنى ولو آية » .

وقال صاحب المباحث فى مكان آخر من قصيدته فى شأن الشيخ ما سنذكره مع شىء من التعليق الخفيف عليه « وانما القوم مسافرونا » السفر هنا عبارة عن الانتقال من مقام الى مقام كالانتقال من مقام الاسلام الى مقام الايمان ثم الى مقام الاحسان ثم الى مقام التقوى ثم الى مقام الشكر . ومن رؤية أفعال الله عز وجل الى استشعار صفاته وأسمائه ومن عالم الحس الى عالم المعنى ومن أمراض النفس الى صحتها وكل ذلك قد مر من قبل « لحضرة الحق وظاعنونا » أى مسافرون الى الله عز وجل ومنتقلون فى سيرهم اليه من مقام الى مقام . من مقام الغفلة الى مقام اليقظة ومن مقام اليقظة الى مقام الحضور الى غير ذلك . « فافتقروا فيه الى دليل » أى فافتقروا فى سفرهم هذا الى دليل يدلهم على الطريق وهو الشيخ الذى من صفاته ما سيأتى بعد هذا الشطر « ذى بصر بالسير والمقيل » أى لا بد أن يكون الشيخ بصيرا بأحوال السير ومنازله فيسير كل مريد بحسب طاقته وجهده ويراعى احتياجات السالك الى الراحة « قد سلك الطريق ثم عادا » أى لا بد أن يكون الشيخ قد سلك طريق السلوك من بدايته الى نهايته ثم عاد بعد أن عرف ليدل غيره ولذلك قال : « ليخبر القوم بما استفادا » أى ليخبر المريدين بما استفاده من علوم الأذواق وأنوار الشهود ولذلك قالوا : لا بد للشيخ أن يكون له علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة مرضية « وجاب منها الوهد والآكاما » الوهد : المكان المنخفض . والآكام جمع أكمة : وهى المكان المرتفع ، وجاب بمعنى نقب وقطع وههنا بمعنى : دخل وسلك ، والمراد أن الشيخ ينبغى أن يكون ذاق طعم الخمول والذلة على المؤمنين والعزلة الهادفة وأمثال ذلك مما هى بمثابة المنخفضات فى الطريق الى الله ، كما ذاق طعم المشقات فى الطريق من أمر بمعروف ونهى عن منكر وجهاد

ومجاهدة « وراض منها الرمل والرغاما » راض المكان : اختبره • والرغام : التراب ، والمراد أن الشيخ ينبغى أن يكون عارفا بالطريق لينها الذى يشبه الرمل وصعبها الذى يشبه التراب الصلب وبالتالى فانه يسير كل مريد على حسب همته وعلى حسب الطريقة المناسبة له من طول وقصر وصعوبة وسهولة « وجال فيها رائحا وغاديا » أى يشترط فى الشيخ أن يكون ماهرا فى الطريق سار فيه صباح مساء اشارة الى علم البدايات والنهايات « وسار كل فدفد وواديا » • الفدفد : الموضع الذى فيه غلظ وارتفاع • والوادى : المسيل • وأشار بالفدفد والوادى الى ما يلقاه المريد من الامتحانات والتسهيلات والتوفيقات والعطاءات « وعلم المخوف والمأمونا » أى يعلم الأمور التى يخاف على المريد منها فيأمره بالبعد عنها كالركون الى التعظيم والتبجيل والدعة والكسل والدنيا ويعلم الأمور التى ينال بها المريد الرضى من الله عز وجل حتى يكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون من اقامة الفرائض والاكثار من النوافل ومن صحبة الصالحين وموالاة أهل الحق « وعرف الأنهار والعيونا » • الأنهار هنا علوم الشريعة • والعيون هنا : منابع الفطرة فالشيخ يعرف علوم الشريعة ويعرف كيف تتفجر ينابيع الفطرة وكف يفجرها « قد قطع البيداء والمفاوز » البيداء : الصحراء • والمفاوز : جمع مفازة وهى الصحراء الشاسعة الأطراف • ولمراد بالبيداء هنا أرض النفس حال شهوانيتها ورعوناتها • والمراد بالمفاوز المسافات البعيدة عن رضوان الله عز وجل : « وارتاد كل حابس وحاجز » • الارتياد هو التقدم أمام القوم لاختبار الأمكنة وما فيها والحابس هو الذى يحبسك عن بلوغ المراد • والحاجز هو الذى يحجز بينك وبين مرادك فلا بد للشيخ أن يعرف ما يحبس السير من وقوف عند مظهر من مظاهر الكون مثلا وأن يعرف ما يحجز من الوصول الى الله من ملل من المجاهدة وركون الى الراحة وغير ذلك « وحل فى منازل المناهل » • المنهل : هو الموضع الذى ينزله الركب بشرط أن يكون فيه ماء والمعنى أنه يشترط فى الشيخ أن يكون حل فى منازل السائرين من يقين وورع وزهد وخوف ورجاء وتوكل وصبر ورضى وتسليم ومشاهدة وتزكية وفناء عما سوى الله وبقاء فى الله « وكل شرب كان منه ناهل » الناهل : الشارب • أى يشترط فى الشيخ أن يكون قد شرب من مياه هذه المقامات بأن ذاقها وتحقق بها « فعندما قام بهذا الخطب » • الخطب : هو الشأن الجسيم • أى عندما تحقق بهذه الأمور كلها التى مرت معنا من بداية هذه الأبيات « قالوا جميعا أنت شيخ الركب » قال له اخوانه وشيوخه وعارفوه لقد وصلت الى رتبة المشيخة وآن لك أن تجاز بالتسليك الى ملك الملوك • « والسفر المذكور بالقلوب » أى السفر الذى مر معنا فيما مضى هو سفر القلوب الى حضرة علام الغيوب وهو بالتفصيل من أربعة مواطن الى أربعة مواطن : من موطن الذنب والغفلة الى موطن التوبة واليقظة • ومن موطن الحرص على الدنيا الى موطن الزهد فيها وطلب

الآخرة · ومن موطن مساوىء النفوس وعيوب القلوب الى موطن التخلية منها والتحلية بأضدادها · ومن شهود الكون الى شهود رب الكون « اعبد الله كأنك تراه » · ثم يكون بعد ذلك سير « والشيخ بمنزلته الطبيب » فكما أن الشيخ بمثابة شيخ الركب فى معرفة الطريق فهو أيضا بمثابة الطبيب للقلوب « يعلم منها الغث والسمينا » الغث : اللحم الذى ليس سمينا · والمراد بالغث هنا القلب الضعيف من العلم والعمل والحال والضعيف اليقين والخافت النور والمراد بالسمين القلب الملىء بالعلم والعمـل والنور والحال والمعرفة فالشيخ ينبغى أن يكون بصيرا بهـذا وهذا ويسير بهذا وهذا على مقتضى ما يناسب كلا منهما « ويدرك الصلب معا واللينا » الصلب : الشديد اليبوسة · واللين : ما قابل ذلك · والمراد بالقلب هنـا القلب القاسى من كثرة الذنوب والغفلة أو القلب الشديد على أعداء الله والمراد باللين هنا : القلب الخاشع أو القلب الرحيم بخلق الله · فالشيخ يعرف طبيعة هذا وهذا ويسير كل انسان بما هو مؤهل له أو بما يناسب حاله نحو الأرقى فى حقه بما يحقق الحكمة التى جعل الله عز وجل بها قلوب عباده متفاوتة « قد أحكم التشريح والمفاصل » المراد بالتشريح هنا المعرفة بعلاج الأمراض القلبية والنفسية والروحية والمراد بالمفاصل هنا معرفة علاج الجوارح · والمراد أن الشيخ يعرف واجبات القلب وواجبات الجسد ويعرف كيف يداوى انحراف القلب وانحراف الجسد « وصار علم الطب فيه حاصل » · أى حصل أمر الطب الدينى كله حتى أصبح علم الطب كله فيه أى عنده فهو قادر على أن يعالج كل حالة تواجهه على أى مستوى فى قلب الانسان أو جسده ليكون على مقتضى الشرع · وفى محل هذا الانســان مع غيره من المسلمين ، وفى موقف المسلمين من غيرهم بالفتوى والارشاد والنصيحة والتربية والتأديب والجهاد وغير ذلك « وكان عشابا وصيدلانى » · العشاب : هو الذى يعرف أعيان الأعشاب ومنافعها وخواصها · والصيدلانى هو الذى يعرف أنواع الأدوية والعقاقير · والمراد أن الشيخ كما أنه طبيب يصف الداء ويصف الدواء فانه فى الوقت نفسه يعرف الأدوية وخواصها ويعرف كيف يركبها فهو طبيب وصيدلى بآن واحد فى قضـايا أمراض القلوب · « قدحا وكحـالا ومارستانى » · القدح فى اصطلاح الأطباء قديما : هو جراحة العيون وجراح العيون قديما كان يسمى القداح والكحال : هو الذى يعرف أدوية العين ويعالجها بالكحل والمـارستانى : هو المدير العام للمستشفى العام للامراض المتعددة · والمراد أن الشيخ ينبغى أن يكون خبيرا بجراحة عين البصيرة ومداواتها عارفا بمجموع الأمراض قادرا على مداواة أصحابها جميعا « أمهر فى الأعـراض والأخلاط » الأعراض ما يطرأ على الجسم من حالات · والأخلاط ما اجتمع فى المعدة من العلل الناشئة عن اختلاط الأغذية المختلفة « من أسقلا جالينوس أو بقراط » جالينوس وبقراط طبيبان · والأسقل كما يبدو : كتابهما الطبى ومراد المؤلف أن الشيخ ينبغى أن يكون أمهر فى علم القلوب ومداواتها من

هذين الطبيبين فى تطبيب الأجساد ، ومراده بالأعراض ما يعرض للمريد من القواطع والشواغل كميله للرئاسة والجاه وتقدمه للتصدر فى شأن قبل الكمال فيه وأمثال ذلك وأراد بالأخلاط الخواطر الرديئة والمقاصد الدنيئة التى يمكن أن تشوش حال بعض المريدين « ويعلم البسيط والمركبا » البسيط : هو ها هنا القلب غير المعقد والمركب هنا هو القلب المعقد أو البسيط هو ما كان أقرب الى الفطرة • والمركب هو الذى خالط الفطرة فيه ما عكرها فالشيخ ينبغى أن يكون عارفا بهذه وهذا وما يصلح لكل ، وكيف يسير كلا من أصحاب هذين القلبين « وما بدا منها عليه واختبا » بعض أخلاق القلوب تظهر بشكل واضح فى سلوك الانسان وبالتالى يسهل على الانسان اكتشافها وبعض قضايا القلوب تكون غامضة وتحتاج الى فراسة دقيقة لادراكها والشيخ ينبغى أن يكون ذا بصيرة وفراسة يدرك فيها حال مريده الظاهر والخفى « والطبع والمزاج والتركيبا » الطبع ما جبل عليه الانسان من خوف أو شجاعة أو كرم أو بخل ، والمزاج هنا التركيب النفسى للانسان من كونه بارد الطبع أو حاره ، أو حاد المزاج أو هادئه • والتركيب هنا اختلاط الشىء بغيره كاختلاط الأصيل بالدخيل والعليل بالسليم • فالشيخ ينبغى أن يكون عارفا بالطباع والسجايا والأمزجة والاختلاطات النفسية والقلبية وعلى ضوء هذه المعرفة يسير أصحابها بما يصلحهم ويقربهم الى الله بما يحقق الحكمة على ضوء الشريعة وكما ينبغى أن يكون عارفا ذلك كله ينبغى أن يعلم « والكون والتحليل والترطيبا » المراد بالكون هنا واقع الانسان من صحة أو مرض والمراد بالتحليل هنا تذويب ما تعقد فى قلب الانسان من علل والمراد بالترطيب هنا المعرفة بطرق تليين ما صلب ويبس من القلوب والمعنى أن الشيخ ينبغى أن يكون ماهرا بأحوال القلوب عارفا بعللها عالما بعلاجها مهما كان شأنها وواقعها • فالأمراض القلبية بارشاداته تتحلل وجفوة القلوب بمجالسته ومذاكرته تزول « فعندما صح له التحصيل » أى بعدما حصل هذه المقامات التى مرت معنا كلها على التمام والكمال « يممه السقيم والعليل » أى قصده المرضى على اختلاف أنواع أمراضهم « فكان يبريهم من الأمراض » أى يشفيهم باذن الله من الأمراض القلبية والنفسية مما مر معنا بعضها « والساخط القلب يعود راضى » أى من كان قلبه ساخطا أصبح بعد الشفاء راضيا • فمن علامات الشفاء الرضا عن الله فى كل حال ولذلك كان من دعاء المسلم : (والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار) •

« وليس هذا طب جالينوس وانما يختص بالنفوس »

هذا تنبيه من المؤلف على أن الطب المذكور فى الأبيات ليس هو طب الأبدان بل طب النفوس لتستقيم على أمر الله وطب القلوب لتصح من

الأمراض والعيوب فتنخرط فى سلك من أتى الله بقلب سليم ٠

« فهكذا الشيوخ قدما كانوا   يا حسرتى اذ سلفوا وبانوا »

كأن الشيخ يريد أن يقول انه لم يبق من هذا النوع من الشيوخ أحد ،وهى كلمة تقال للتحسر ولرفع الهمة للوصول الى رتبة المشيخة بحق والا فان الأمة لم تخل من الوراث الكاملين فى كل عصر والحمد لله ٠ ومن عرف شيخنا محمدا الحامد رحمه الله عرف ما قلناه ٠٠٠.

فى المجموعة الثانية من الأبيات التى نقلناها ذكر صاحب المباحث ثلاث نقاط رئيسية فى قضية الشيخ :

أولا : أن يكون الشيخ قد سار فى الطريق من مبداه الى منتهاه وعرف كل خفاياه حتى أصبح قادرا على أن يدل أصناف الخلق جميعا على هذا الطريق ٠

ثانيا : أن يكون الشيخ بصيرا بأنواع القلوب وأنواع أمراضها قادرا باذن الله على تطبيبها ٠

ثالثا : أن يكون عارفا بأنواع الأدوية القلبية وما يناسب منها للادواء ٠

والآن لنر بعض عبارات ابن عطاء فى الشيخ ، قال ابن عطاء :

« لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ربما كنت مسيئا فأراك الاحسان منك صحبتك الى من هو أسوأ حالا منك » « ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه » ٠ « من رأيته مجيبا على كل ما سئل ومعبرا عن كل ما شهد وذاكرا كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله » ٠ « تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير ، كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز ، من أذن له فى التعبير فهمت فى مسامع الخلق عبارته وجليت اليهم اشارته ٠ ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار اذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار ، عباراتهم اما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد ٠ فالأول حال السالكين والثانى حال أرباب المكنة والمحققين والعبارة قوت لعائلة المستمعين ٠ وليس لك الا ما أنت له آكل ، ربما عبر عن المقام من استشرف عليه وربما عبر عنه من وصل اليه وذلك يلتبس الا على صاحب البصيرة » ٠

بعد أن رأينا نموذجا من النصوص ونموذجا من كلام الصوفية مما تحرك به قضية الشيخ لنتساءل الآن : اذا كانت هذه مهمة الشيخ فى تربيته

للمريد من جانب علمى وروحى يبقى أن نتبين ما هى مهمة الشيخ فى عصرنا الذى استشرت فيه الردة وسيطر فيه الكفر وما تأثيرات ذلك وانعكاساته على تربية المريدين ؟ ثم ما هى مهمة الشيخ فى عصر لم يعد للمسلمين فيه دولة . وكيف تكون الصلة بينه وبين غيره وهكذا ليكون المسلمون صفا واحدا ويدا واحدة وجماعة واحدة .

لأشرح تصورى عن هذا الموضوع وبعد ذلك نقف وقفات ، تبدأ رحلة الأمة المريضة الى الصحة بوجود المجدد ونوابه الذين ينقلون الانسان الى صحته فى جوانب ثلاثة : الالتزام والخصائص والثقافة . فى رسالتنا التى عنوانها ((**من أجل خطوة الى الأمام على طريق الجهاد المبارك**)) ذكرنا بعض مظاهر المرض فى الأمة الاسلامية أو فى بعض منها وقلنا هناك باختصار أن الطريق الى الصحة يبدأ بوجود نموذج الصحة الأول المتمثل بالنسبة للامة الاسلامية فى كل عصر أو قرن أو جيل بالمجدد ثم بالوراث الكاملين الذين ينطلقون فى عملية التجديد حتى نهاياتها مبتدئين بايجاد المسلم الكامل ومنتهين باعلاء كلمة الله حيث وصلت الى ذلك قدراتهم . وهناك فى رسائل أخرى من هذه السلسلة تحدثنا كثيرا عن الدواعى التى تجعل نقطة البداية فى الصحة هى المجدد وكيف أن الأستاذ البنا رحمه الله هو نقطة البداية هذه وعلى ضوء نظريات المجدد فى العمل التجديدى لحياة الاسلام والمسلمين لا بد أن ينطلق الوراث ليصوغوا المسلم صياغة كاملة ويرتقوا بكل مسلم الى قمته التى تستاهلها طاقاته وهمته واستعداداته . وهذا يعنى بشكل مبدئى أن توجد طبقة من الوراث تغطى احتياجات هذه الأمة وذكرنا فى أكثر من رسالة من هذه السلسلة أن اصطلاح النائب فى كلام الأستاذ البنا رحمه الله هو الذى يقابل كلمة الوارث الكامل أو الشيخ أو غير ذلك مما اصطلح عليه الناس كرمز الى عالم عامل مرب وتكلمنا كثيرا فى هذه السلسلة عن العمل الاسلامى والتربية الاسلامية . وههنا نحب أن نبرز نقطة فقط وهى : ما هى مهمة الوارث الأولى فى تكوين الانسان المسلم فى عصرنا ؟ لا شك أن هناك ثلاث دوائر يحتاجها المسلم المعاصر وهى التى تحتوى كل ما يمكن أن يتصوره أحد فى باب تكوين المسلم سواء كان المتصور صوفيا أو فقيها أو مجاهدا . هذه الدوائر الثلاث هى : العلم والأخلاق الأساسية وما يتفرع عنها ولزوم جماعة المسلمين وامامهم وما يلزم لذلك من تربية ووعى وسلوك والتزام . وعلة العلل أن المسلم المعاصر تفوته واحدة من هذه أو اثنتين أو الثلاثة أو يأخذ بعض هذه الثلاثة بضعف .

تصور أن مسلما عنده علم ولكن الأخلاق الأساسية تفوته أو واحدا منها . ان الأمر لا يستقيم على ذلك . وتصور أن ما يقتضيه الالتزام بجماعة المسلمين من تربية ووعى وغير ذلك ليس موجودا فان الأمر كذلك لا يستقيم . ان علة

العلل تكمن فى ضياع واحدة من هذه الثلاثة أو أخذها بشكل قاصر ، ويدخل فى العلم فى رأينا : الثقافة الاسلامية بأصولها وفروعها التى أحصيناها فى كتاب ((**جند الله ثقافة وأخلاقا**)) ويدخل فى العلم تحصيل الثقافة المعاصرة حتى لا يكون الانسان غريبا عن عصره وعما يجرى فيه ويدخل فى العلم الثقافة التأهيلية اما لاختصاص حياتى أو لاختصاص داخل العمل الاسلامى المعاصر ٠

وأما الأخلاق الأساسية فهى التى تحدثت عنها آيات الردة فى سورة المائدة وقد فصلنا الكلام فى شأنها فى كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقا) وهى محبة الله والذلة على المؤمنين كل المؤمنين والعزة على الكافرين كل الكافرين والجهاد فى سبيل الله وتحرير الولاء لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ٠

وأما لزوم جماعة المسلمين فيقتضى معرفة بماهية جماعة المسلمين والشروط التى يجب أن تتوافر فيها حتى تكون هى جماعة المسلمين ، كما يقتضى معرفة بالقواعد التى يقوم عليها العمل الاسلامى وتسير عليها الجماعة كما يقتضى عقلية شورية تقبل الشورى وتنزل على مقتضياتها على ضوء قواعد الشورى الاسلامية ٠

اذا اتضح هذا كله وكان هذا كله ضروريا فماذا يحدث الآن ؟

تجد شيخا يزعم أنه يسير المريد فى طريق الجنة وتنقصه التربية على الذلة للمؤمنين والعزة على الكافرين والجهاد وتحرير الولاء ، وتجد شيخا يعلم بعض مسائل الفقه أو التوحيد وينسى تعليم الكتاب أو السنة أو السيرة وحياة الصحابة أو تاريخ الأمة الاسلامية أو غير ذلك مما يلزم لثقافة اسلامية متكاملة ، وتجد من يدعو الى دعوة الأستاذ البنا نفسه وتفوته أمور كثيرة فى الثقافة أو الأخلاق أو التربية الجماعية الاسلامية وفى احدى هذه الدوائر يكمن الخلل ويبقى الحال كما نرى ٠

ان مهمة الشيخ هذا كله ، ولا شك أن استعدادات الناس متفاوتة ولكن حدا أدنى مما يلزم لكل انسان لا بد من تواجده ومهمتنا أن نرتفع بالناس لا أن ينزلنا الناس الى ما يريدون ٠ اذا أدركنا هذه السطور القليلة أصبح بامكاننا أن ندرك نقاط الخلل فى رتبة المشيخة المعاصرة وعرفنا ما يلزم للارتفاع بهذه الرتبة ٠ وأتمنى لكل مسلم كان دون هذه القمة التى ذكرت أن يسير على يد من يستطيع أن يصل به الى هذه القمة أو يضع لنفسه برنامجا يستكمل به نقصه ٠ وقديما كانت الاجازة التى يعطيها الشيوخ شهادة لانسان بالتحصيل والقدرة على التكميل وحبذا لو وجد هذا بشكله المفصل فى عصرنا خاصة لرتبة الوراثة الكاملة أو المشيخة المربية أو لرتبة النائب فى اصطلاح

الأستاذ البنا • وانني أعتبر أن المهمة الأولى لجماعة المسلمين هي أن توجد طبقة من النواب أو الشيوخ الكمل تستوعب احتياجات المسلمين التعليمية التربوية السلوكية • وبمناسبة المرور على كلمة الاجازة نقول باختصار في شأنها : ان الاجازة شهادة على أهلية انسان ما لنوع من العلم فالاجازة في علم شهادة من أهله على أن انسانا يملك النضج أو حده الأدنى في هذا العلم • والاجازة في التربية شهادة على أن انسانا ما يملك النضج أو حده الأدنى الذي يؤهله للتربية • ولا شك أن الشهادة من أهلها تبعث على الاطمئنان • ومن ثم تشترط الاجازة للاستقلال بالعلم والتربية أما للتعاون والمساعدة على العلم والتربية فهذه فيها سعة اذا وجد الأساس الصالح ، اذا استوعبنا ما مر نكون قد أدركنا رتبة المشيخة كما يحتاجها عصرنا وأدركنا حال المشيخة في وضعها الحاضر •

تصور الآن انسانا يتصدر لرتبة المشيخة وهو لا يعرف عصره وليس قادرا على الفتوى المستوعبة للزمان والمكان والأشخاص جاءه مريد يستفتيه في شئونه العامة أو الخاصة أو يستفتيه في شئون الاسلام والمسلمين الى أين يمكن أن تصل فتاواه • ولذلك حذرنا في هذا البحث من الالتزام المطلق بشيخ بل نصحناه وننصحه بما يلي :

أولا ـ أن يكون الالتزام المطلق لجماعة المسلمين وامامهم حيثما وجدت جماعة المسلمين واذا لم تكن موجودة فعليه ايجادها والعمل من أجل ذلك •

ثانيا ـ أخذ الخير أنى وجده وتحرير كل ما يسمعه على ضوء العلم الصحيح فاذا استوعب المسلم هاتين القضيتين وكان بيده الميزان الصحيح وهو العلم الصحيح فلا عليه بعد ذلك أن يجالس كل أحد ويستفيد من كل أحد ، ولا شك أنه سيجد كاملا وأكمل وعالما وأعلم وذا حال طيب وذا حال أطيب فيأخذ من هذا أكثر من هذا وكل ذلك طيب ولكن اياه والالتزام المطلق الا لجماعة المسلمين وامامهم لأنه اذا أعطينا لأنفسنا أن يلتزم كل منا بشيخ التزاما مطلقا فكيف يكون للمسلمين جماعة واحدة ؟ ولذلك قال السيوطي «رجل أعطى العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر أي العهدين يلزمه ؟ قال لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك » • (اذ الأصل الوحيد هو لزوم جماعة المسلمين وامامهم) فاذا كان الشيخ هو امام المسلمين المنبثق عن شوراهم أو كان من جماعة المسلمين وأنا واياه ملتزمان بالجماعة وأمرت أن ألتزم به على ضوء قواعد الجماعة فالالتزام به التزام بجماعة المسلمين ولا تناقض وذكرنا من قبل أن الصوفية بحثوا حالة لا يجد فيها الانسان مرشدا كاملا فقالوا بأن العلم مع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كافيان للانسان لأن الله عز وجل وعد من يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي هو عليه ففي الحديث : « من صلى علي صلاة صلى الله بها عليه عشرا » • واذا صلى الله على

الانسان أخرجه من كل ظلمة الى كل نور « **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور**»(١) • ان التسليم لغير المرشد الكامل والالتزام المطلق بغير جماعة المسلمين وامامهم خطآن كبيران • وأكثر الصوفية الآن تغيب عنهم هاتان القضيتان فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه فى هذا الشأن فيترك العصبية العمياء لشيخه اذ يعطيه مقاما غير مقامه ويترك هذه السيوبة عن جماعة المسلمين ، فان الالتزام بجماعة المسلمين هو واجب شرعى ، وقد ذكرنا فى رسالة « **المدخل** » من هذه السلسلة شروط اعتبار مجموعة ما جماعة المسلمين فلتراجع • فاذا كانت هذه الجماعة موجودة فلنلتزم بها والا فلنوجدها • ومن العبارات الشائعة عند الصوفية عبارة تقول : « من لا شيخ له فشيخه الشيطان » • وهى عبارة تنقل عن واحد من كبار الصوفية ، ونحب أن نكون واضحين ونحن نناقش هذا الأمر •

ان علماء الأصول لم يعتبروا رأى الصحابى نفسه ملزما للامة فكيف برأى غيره ؟ وانما يكسب قول أى انسان قوة بقدر ما تؤيده النصوص فعلينا أن نتذكر دائما هذا الأصل فاذا اتضح هذا الأصل نقول : ان هذه العبارة صحيحة فى صورة واحدة وهى : أنه لو وجد انسان جاهل وليس عنده قدرة على أن يتعلم لنفسه العلوم الشرعية فهذا انسان يسير فى عباداته ومعاملاته وتصرفاته على غير علم فهذا لا شك شيخه الشيطان أما الانسان القادر على أن يتعلم بنفسه وهو يسير على ضوء العلم الصحيح فهذا شيخه العلم الصحيح وشيخه الكتاب • أما الانسان الذى يأخذ العلم عن أهله فهذا له شيوخه • فاذا أدركنا هذا عرفنا محل هذه العبارة وعرفنا الخطأ المتعمد أو الجاهل الذى به يحاول بعض الناس أن يحملوا هذه العبارة على من لا شيخ صوفيا له وبالتالى فهم يتكئون عليها للدعوة الى شيوخهم وقد يكون شيوخهم جهالا يحتاجون الى شيوخ • ومن المفاهيم الشائعة عند بعض الصوفية أنه مستحيل وصول الى الله الا عن طريق شيخ صوفى وهذا وهم كبير وقد رأينا عبارة ابن عطاء « وصولك الى الله وصولك الى العلم به » • فمعرفة الله عز وجل بابها مفتوح لمن سلك طريق ذلك سواء كانت المعرفة الذوقية أو المعرفة العلمية وان تعليق المعرفة بالله على وجود شيخ من طراز خاص وتأثيم من لا يسلكون على يد أمثال هذا الشيخ • ان هذا يعنى أن ملايين المسلمين ماتوا وهم جهال بالله وبعضهم المفسر وبعضهم المحدث • والحق أن الاصطلاح على المشيخة الصوفية جاء متأخرا فى العصور الاسلامية فهل كان الناس قبل ذلك لا يعرفون الله وهم أفضل الأجيال على الاطلاق • والمناقشات الفارغة فى هذا المقام لا تغنى عن الحق شيئا • أدبنا كمسلمين أن نأتى البيوت من أبوابها ولكل شىء بابه الذى نلج الى البيت من خلاله ولكل انسان أحواله ولكل انسان أوضاعه •

---

(١) الأحزاب : ٤٣

والفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا فهذا انسان فى حقه أن يذهب الى شيخ فقيه الأمر فرض ، وهذا انسان فى حقــه أن يذهب الى عالم بالتوحيد الأمر فرض ، وهذا انسان فى حقه أن يذهب الى شيخ صوفى الأمر فرض • والفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا • يقول الشيخ أحمد الزروق فى موضوع الشيوخ « وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين فى الاكتفاء بالكتب عن المشايخ فكتبوا للبلاد فكل أجاب على حسب فتحه ، وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة (أولها) النظر للمشايخ : فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق يعرف موارد العلم ولشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لذى دين عاقل ناصح • قال شارح بداية السلوك : وقل آن يوجد لغلبة الهوى ، وشيخ الترقية يكفى عنه اللقاء والتبرك وأخذ كل ذلك من وجه واحد يعنى أن أخذ ذلك عن الشــيخ فى الأوجه الثلاثة أتم للنجح وأبلغ للمراد • (ثانيها) النظر لحال الطالب فالبليد لا بد من شيخ يربيه ، واللبيب تكفى الكتب فى ترقيه لكنه لا يسلم من رعونة نفسه وان وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه • (ثالثها) النظر للمجاهدات : فمجاهدة التقوى لا تحتاج الى شيخ لبيانها وعمومها والاستقامة تحتاج للشيخ فى بيان الاصلح منها وقد يكتفى عنه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف والترقية لا بد فيها من شيخ يرجع اليه فى فتوحها كرجوعه عليه السلام فى عرضه على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ومبادىء ظهورها حين فاجأه الحق وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها والله تعالى أعلم » (انتهى) • لاحظ قوله : فالتقوى لا تحتاج الى شيخ • والتقوى كما عرفناها تفصيلا فى كتاب « **جند الله ثقافة وأخلاقا** » هى مطلب الله عز وجل من عباده لأنها تحتوى ما قبلها وتضع قدم الانسان فيما هو أرقى منها كمقام الشكر ولا تقوى أصلا الا بمعرفة الله عز وجل • وقد آن الأوان بعد الذى ذكرناه فى هذا الباب أن نتبين ضرورة الشيخ فى العلم والتربية فقد استجرنا التوضيح ومناقشة الأخطاء الى كلام عن موضوع الشيخ قد يفهم منه فاهم أن الشــيخ لا محل له أصلا لذلك أحببنا أن نوضح هذه النقطة :

١ ــ ان الشيخ البصير فى الأمور يختصر لك الطريق فبدلا من أن تنصب فى الطريق أى طريق سواء كان طريق تحصيل علم ما أو طريق الاستدلال على صلاح القلب أو طريق التخلص من مرض فانه يختصره لك •

٢ ــ ان الشيخ الكامل يجنبك الخطأ فى الفهم أو الخطأ فى السلوك أو الخطأ فى التصورات التى يمكن أن تنشأ عن سير الانسان نفسه •

٣ ــ ان الشيخ من خلال صحبته تأخذ منه حالا وتأخذ منه سمت العلماء وأدبهم •

٤ ـ ان مجرد قبول الانسان أن يأخذ العلم أو التربية عن أهلها يحرره من كثير من الأمراض كمرض الغرور أو المنجهية أو الكبر ٠

٥ ـ وكل حالة يفترض على انسان تحصيل شيء ولا يستطيع تحصيله الا من جهة ما فان الأخذ عن هذه الجهة فى حقه يصبح فرضا من باب : ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ٠

٦ ـ واذا كان الشيخ صالحا وداعيا الى هدى فان الانتفاع به فى الدنيا والآخرة تدل عليه النصوص ٠

٧ ـ والتجمع حول شيخ والمشاركة فى حلقات العلم والذكر والتآخى الخاص فى هذه الأجواء تترتب عليه مصالح كثيرة فى الدنيا والآخرة وكل ذلك غيض من فيض فى محل الشيخ ومكانه ٠ ونحن بقدر ما نركز على أن تزول الأخطاء من التصورات والسلوكيات فى باب الشيخ فاننا نركز على أن نقطة الانطلاق الصحيحة هى وجود الولى المرشد ٠٠

فصل فى البيعة :

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رسول الله يأخذ البيعة على الدخول فى الاسلام وعلى أعمال من الاسلام وكانت البيعة فى أحد أوجهها بيعة لشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ثم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدت صيغة وحيدة للبيعات هى البيعة السياسية بمعنى أنه لا توجد الا بيعة واحدة هى البيعة التى تعطى لأمير المؤمنين ولما اختلفت الاتجاهات فى الأمة الاسلامية بقيت البيعة تعطى على أساس الولاء الشخصى لجهة فى اطار سياسى مرتبطا بالحكم والسلطان وبقى الأمر على ذلك حتى القرن الخامس للهجرة حيث وجدت البيعة للشيخ فى بعض الهيئات على أساس التزام بأعمال أو شيء من ذلك ، وفصل هذا النوع من البيعات للشيوخ عن الاطار السياسى فأصبح بعض الناس لهم بيعتان : بيعة للسلطان على الطاعة فى الأحوال العامة وبيعة للشيخ على الالتزام بالتقوى وأصبح كل شيخ يأخذ البيعة على مريديه فى هذا الاطار واستمر الأمر على ذلك حتى سقوط الدولة الاسلامية وانتهاء الحكم الاسلامى فى كثير من الجهات ٠ وغلب الجهل على الناس فغابت عنهم قضية الخلافة وضرورة العمل من أجلها وغاب عن كثير من الناس ضرورة العمل لاقامة الحكم الاسلامى فى أقطارهم وضاع فى خضم ذلك فكرة البيعة السياسية وبقيت فى بعض الدوائر فكرة البيعة الصوفية ٠ فخلط بعض الصوفية بين البيعة للامام وبين البيعة للشيخ واعتبروا أن البيعة للشيخ لها نفس شروط البيعة تلك وأن لها أحكامها وأنها تغنى عنها ولذلك صحح الفقهاء هذا الموضوع فقالوا : كما فى « تنقيح الفتاوى

الحامدية » عن السيوطى « رجل أعطى العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر أى العهدين يلزمه ؟ قالوا لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك » • وواضح أن البيعة الصوفية ذات صفة غير ملزمة من هـذا الحديث الذى رواه مسلم وهـو فيما يسمى فى اصطلاحنا اليوم بالبيعة السياسية « اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»• فلو أن هذه البيعات التى تعطى للشيوخ لها حكم البيعة المعروفة لجاز لنا أن نقتل كل الشيوخ ما عدا شيخا واحدا ما داموا جميعا يأخذون البيعات وهـذا لا يقول به أحد ، ثم ان كثيرا من المجموعات الاسلامية صارت تأخذ عهـودا وبيعات على المنتسبين لها وهذه البيعات كلها ان كانت على عمل بعينه فان لها حكم النذر أو اليمين أو كانت لأخذ ولاء شخص لجهة معينة فانها تكون بيعة غير ملزمة بل أحيانا تكون واجبة الفسخ الا فى حالة واحدة وهى البيعة لامام المسلمين وجماعتهم ولكن حتى تتوافر فى جهة ما شروط كونها هى الجماعة الاسلامية وحتى يوجد من له أحكام الامام هذا موضوع له مواصفاته الكثيرة• والعاملون للاسلام الآن اما أنهم مجموعات ليست مرشحة لأن تكون جماعة المسلمين أو أن بعضهم يعمل لتوفير شروط الجماعة فى ذاته وهو مرشح لذلك ، أو أن بعضهم توافرت فيه وفى قياداته شروط الجماعة المسلمة والبيعة فى كل حالة من هذه الحالات لها أحكامها ودرجة الزامها وبشكل عام نقول :

١ ـ ان شيوخنا كانوا يرون أن البيعة التى تعطى للشيخ عند الصوفية هى بيعة على التقوى ولذلك فانهم يكتفون فيها بوضع اليد وقراءة قوله تعالى: **« ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما »**(١) دون أن يضيفوا شيئا آخر ، ان البيعة فى هذا الاطار أى بأن يلحظ فيها ألا تكون لها أحكام البيعة العامة وبحيث لا تحول دون الالتزام بجماعة المسلمين وامامهم ، ان البيعة بهذا الشكل لا حرج فيها •

٢ ـ ان البيعة الملزمة الوحيدة هى التى تعطى لجماعة المسلمين وامامهم ولكن على الانسان قبل أن يعطى هذه البيعة أن يتأكد من أن هذه الجمـاعة وامامها متوافرة بها الشروط اللازمة وعلى فرض أن أعطاها وتبين له أن الأمر ليس كذلك فانه يكون فى حل من هذه البيعة ولكن يبحث هل عليه كفارة يمين أولا ؟ هذا يختلف باختلاف الصيغة التى أديت بها البيعة •

٣ ـ يمكن أن تأخذ جهة مأذونة بيعة ما على أعمال اسلامية بعينهـا والالتزام فى هذه الحالة التزام بالعمل واذا عجز الانسان عن هذا العمـل فينظر هل عليه كفارة يمين أولا ؟ وبشكل عام أنا أدعو كل مسلم الى التريث

---

(١) الفتح : ١٠

فى أمور النذور والأيمان والعهود والبيعات الا اذا اقتضاه واجب شرعى أن يفعل شيئا من ذلك وأقترح على الحركة الاسلامية بعد أن تضع كل القواعد التى بها تصبح هى جماعة المسلمين بحق وامامها امامهم أن تأخذ البيعة للقيادة المنبثقة عن هذه القواعد ويطيب لى فى هذا المقام أن أسجل نقطة هى : أن كثيرين من المسلمين أنفسهم يصيبهم اليأس وهم يرون المآسى التى رافقت سلسلة الخلافة حتى سقوطها • ويصيبهم اليأس وهم يرون كيف أن الانحراف عن الحكم الاسلامى بدأ مبكرا جدا فى تاريخ الأمة الاسلامية ويصيبهم اليأس وهم يرون الحال والواقع الذى عليه المسلمون أنفسهم ويصيبهم اليأس وهم يرون واقع القوى العالمية ويتعجبون أن يتكلم أمثالنا فى الأسس الصحيحة للانطلاق ويتصورون أن هذا أشبه بالأحلام ونقول لهؤلاء جميعا : هل نحن مكلفون أولا ؟ فاذا كنا مكلفين من الله بعمل فعلينا أن نفعل ولا علينا بعد ذلك اذا فرط غيرنا بالتكليف فنحن طلاب جنة عرضها السموات والأرض وماذا يضيرنا اذا ربحناها وخسرها غيرنا • ان أهل كل عصر مكلفون باقامة الاسلام كله فهم لا يسئالون عن تقصير السابقين ولا تفريط اللاحقين • ان هذه هى نقطة التفكير السليم فيما نحن فيه اذا كنا مسلمين حقا ، على أننا مع هذا نقول : ان ما حدث من انحرافات أعطانا دروسا ، وان ما كان من مآس فان علينا أن نعمل كى لا يتكرر مرة ثانية ، وان واقع المسلمين الحالى ليس صعب التغيير اذا سرنا فى الطريق الصحيح • وان القوى العالمية لا تساوى شيئا مع وعد الله لنا ((**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**))(١) • ولحكم كثيرة قال ربنا بعد هاتين الآيتين : ((**لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ، ومأواهم النار ، ولبئس المصير**))(٢) • اننا نملك بفضل الله نقطة البداية الصحيحة وهى الانطلاق عن اجتهاد انسان مجدد لا يشك عارفوه أنه من أولياء الله عز وجل وهو الأستاذ البنا رحمه الله وعلينا أن ننطلق بدفعة التجديد فى هذه الأمة مهما كلفنا ذلك وانا لنرجو ثمرات ذلك فى الدنيا والآخرة ((**ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**))(٣) •

---

(١) النور : ٥٥ — (٢) النور : ٥٧

(٣) البقرة : ٢٠١

الباب السادس عشر

فى الأخلاق والآداب

الأدب هو الباب الذى انعكاساته على كل موضوعات السير الى الله عميقة وبعيدة فسوء الأدب يفسد السلوك كله فهو يفسد العمل ويفسد القلب ويفسد آثار الذكر وآثار الصمت وآثار الخلوة والعزلة ويستحيل معه الأخذ من الشيوخ ومن ثم فلا سير بلا أدب مع الحق والخلق ومن ثم قالوا : والله ما فاز من فاز الا بحسن الأدب ولا سقط من سقط الا بسوء الأدب • ان حسن الأدب أصلا تعبير عن كمالات النفس وعن انضباطها وعن التحكم فى نزواتها وذلك وحده علامة خير بينما سوء الأدب دلالة على أن النفس لا تزال متلطخة برعوناتها عاجزة عن الانضباط ضمن المسار الصحيح • ولا شك أن الأدب له مظهران : مظهر علمى ومظهر التزامى وسلوكى وككل شىء فالمظهر العلمى يسبق السلوك والالتزام عادة • ومن ثم فلا بد من تحديد صحيح لموضوع الآداب ، ولكن موضوع الآداب أوسع من أن يحيط به باب اذ العادة أن كل باب من أبواب الفقه فى الغالب أو من أبواب التصوف لا بد أن تدخل فيه قضايا هى من باب الآداب ، ومن ثم فنحن لا نطمع هنا أن نذكر كل شىء بقدر ما نطمع أن نذكرأمهات فى هذا الباب لا تغنى عن معرفة أخواتها فى أبواب أخرى • وهذه كلها لا تغنى عن التأدب بالكتاب والسنة • ان الكتاب والسنة هما مظهر البناء الأخلاقى والسلوكى واجتهادات الأئمة المنبثقة عن ذلك لا تغنى عن دراسة الأساس بل هى استنباط دقيق لما ورد فيهما • ومن ثم فنحن نعتبر دراسة سلسلة ((**الأساس فى المنهج**)) هى التغطية الكاملة لكل ما يلزم المسلم لانطلاق صحيح شامل واذن فكلامنا فى هذا الباب ذو حدود ضيقة جدا فليلاحظ ذلك •••

لقد كان بعض شيوخنا ينبه على ضرورة الأدب مع الله ومع الانسان ومع الحيوان ومع الأشياء ويضرب لنا مثلا على أن الأشياء اذا أحسنت التعامل معها خدمتك واذا لم تحسن لم تخدمك • يضرب لنا مثلا على ذلك باستعمالنا لابريق الوضوء فلو أنك استعملته بلطف أخذا ووضعا خدمك كثيرا والا لم يخدمك فاذا كان هذا محل حسن الأدب مع الأشياء فما بالك

بالأحياء . لابد أن نتعامل مع كل شيء بالأصول الصحيحة للتعامل على ضوء شريعة الله ، وقبل كل شيء وبعد كل شيء لابد من الأدب الرفيع مع الله عز وجل شكرا وعبودية خالصة ورغبة ورهبة ، فدوائر الآداب اذن واسعة جدا وعلينا أن نأخذ منها حظوظنا ، انه من الملاحظ أن بعض البيئات بشكل عام لم تستطع أن تصل عمليـا حتى الآن الى آداب عامة تصبح بمثابة ألف باء فى التعامل اليومى ولهذا تأثيراته الكبيرة على الحياة بشكل عام بينما استطاعت بعض البيئات أن تصل الى اعتماد كثير من الآداب المتعارف عليها فى كل جانب من جوانب الحياة فى طريق كلامها وفى طبيعة لباسها المناسب لكل مناسبة وفى طريق التعامل مع الآخرين فى كل وضع وفى طريقة التقديم والتأخير الى آخر ما يدخل فى باب التعامل العام ونحن المسلمين أغنى الخلق بعلم الآداب على الاطلاق وليس الأمر هكذا فقط بل أدبنـا فى كل حالة هو الأدب الأرقى ولكن هذه الآداب نجدها متناثرة ههنا وههنا فى كتب الفقه وفى كتب شروح الحـديث وكتب التصوف المختلفة وكتب التفسير . وأولا وقبل كل شيء فان الكتاب والسنة ما تركا أدبا ولا خلقا طيبا الا بيناه ولكن كتابا جامعا للسنة كلها بشكل عملى لا نجده فى كل بيت وفهما صحيحا للقرآن لا يسعى اليه كل مسلم ثم قراءة مستوعبة لكتب الفقه والتصوف نادرا ما يحصلها انسان بشكلها الكامل وكل ذلك أدى الى انحسار قضية الآداب أو وجودها فى بيئات محدودة وبشكل جزئى وأحيانا فان هناك مفاهيم خاطئة وسلوكا خطرا يأخذ طابع الأدب . هذا كله يحتاج الى علاج ، وبداية العلاج وجود كتاب التفسير المناسب ووجود كتاب السنة الجامع والمتوافرة فى جمعه وخدمته شروط متعددة وكذلك التأليف المناسب فى الفقه والتصوف . ولذلك وكما ذكرنا فاننا سنذكر شيئا ما فى هذا الباب لأن الأمر أوسع من أن يذكر فى باب من كتاب صغير وعلينا أن نلاحظ أن قضية الآداب فى اصطلاح الصوفية أوسع منها فى اصطلاح الفقهاء فالفقيه يتحدث عن الأدب كمكمل للفرائض والواجبات والسنن ولكن الصوفى يذكر أشياء هى من باب الفرائض فى بحث للآداب لأن الأدب عنده هو السلوك والتعـامل مع الله عز وجل ومع خلقه وهذه قضية ينبغى أن يتنبه اليهـا الانسان ، ونحن فى هذا الباب سنجرى على ذكر بعض الآداب على طريقة الصوفية وعلى هذا فما نذكره هنا تحت عنوان هذا الباب قد يكون فرضا وقـد يكون واجبـا وقد يكون سـنة أو هو مبـاح فليـلاحظ ذلك . ومجمـوع ما سنذكره فى هذا البـاب انمـا هو فصول متفرقة يجمعهـا كلها أنها آداب وأخلاق اما مع الحق أو مع الخلق أو هى من باب الخصائص وكما قلنا من قبل انه بدون احاطة فى الكتاب والسنة فاننا لا نطمع أن نتعرف على مجموع الأخلاق والآداب الاسلامية . ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن فما نذكره هنا وما يذكره غيرنا انما هو تنبيه على بعض الأمور ولا يطمع أحد فى الاحاطة . انه للوصول الى كمال النفس الذى هو

العبودية الخالصة لله ، لا بد أن نحقق شروط السير وبقدر ما يكون تفريط في هذه الشروط يكون الوصول عسيرا أو ناقصا أو مستحيلا واذن فالمسألة تحتاج الى معرفة بالشروط وكل شرط يحتاج الى آداب • وما من خلق ينفصل عن أدب فلن نتحقق بكمال اذا لم يرافق ذلك أدب فالتواضع كصفة للنفس يحتاج الى مظهر هو أدب والحلم كصفة للنفس يحتاج الى مظهر هو أدب واحترام المسلم واكرامه كصفة للنفس يحتاج الى مظهر هو أدب وبقدر ما يكون السير صحيحا وبقدر ما تتحقق شروط السير وبقدر ما تتوافر الآداب يكون الوصول الى مظهر الكمال أكيدا وبقدر ما يكون الكمال تكون القدرة على التكميل لمن أقامه الله هذا المقام • فقضية الآداب والأخلاق اذن قضية واسعة والصوفى من أولى سماته التتبع لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب والتحقق بها ومن ثم قالوا : التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف فاذا اتضحت هذه المعانى كلها فلنبدأ عرض بعض الفصول فى موضوع هذا الباب •

فصــل جامع فى موضوع الأخلاق والآداب :

عقد صاحب المباحث الأصلية فقرة لقضية الأخلاق والآداب فى الطريق ننقله ههنا مع تعليقات خفيفة على كلمات فيه : « وللطريق ظاهر وباطن » أى للطريق الى الله ظاهر وباطن سيفسرها فى بيتين آتيين وباختصار ظاهرها ما يتعلق باصلاح الجوارح الظاهرة وباطنها ما يتعلق باصلاح العوالم الباطنة « تعرف منه صحة البواطن » أى أن ظاهر الطريق تعرف منه صحة بواطن السالكين • أخبر أن استقامة الظواهر دليل تعرف منه استقامة البواطن وعبر عن الاستقامة بالصحة ، فصحة الظاهر عنوان صحة الباطن ثم فسر ظاهر الطريق بقوله : « ظاهره الآداب والأخلاق » • « مع كل خلق ما له خلاق » الخلاق : النصيب • فظاهر الطريق الأدب مع خلق الله حتى مع من ليس لهم نصيب فى الآداب فضلا عن غيرهم • والأدب هو الموقف الأفضل من كل وضع نواجهه على مقتضى شريعة الله • فهناك حالات يكون الأدب فيها هو الغضب وحالات الأدب الأرقى فيها هو الاحسان وكظم الغيظ وهو معنى دقيق لا يفطن له الا موفق ولا يعرف أن يضع كل شىء فى محله الا عالم وحكيم كان من خلق رسول‌الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يغضب لنفسه ولكن اذا انتهكت حرمات الله فانه لا يقوم لغضبه شىء واذا وجد منكر فانه لا ينتهى سخطه الا بانتهاء هذا المنكر ثم فسر باطن الطريق بقوله : « باطنه منازل الأحوال » الوارد الالهى اذ نزل فى القلب أحدث أثرا ، هذا الأثر يسمى حالا ومنازل الأحوال هى القلوب ولكنه فى البيت أراد الأحوال القلبية الصالحة نفسها بدليل أنه ذكر المقامات بعد ذلك مصاحبة للاحوال فقال : « مع المقامات لذى الجلال » الفارق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويجىء بخلاف المقام فانه رسوخ وتمكين فباطن الطريق اذن الأحوال

والمقامات فى السير لذى الجلال الله رب العالمين فكأنه قال : باطن السائر الى الله بين حال ومقام وهو فى انتقال دائم من حال الى مقام ومن مقام الى مقام ٠ وهذا كله هو باطن الطريق ٠ ولنا عودة على هذا الموضوع ، ثم بدأ المؤلف يتكلم عن الأدب فقال : « والأدب الظاهر للعيان » ٠ « دلالة الباطن فى الانسان » هذا داخل فيما تقدم من أن صحة الظواهر تدل على صحة البواطن « وهو أيضا للفقير سند » أى يستند اليه الفقير حالا فيرتفع الى المقامات العلى دينا ودنيا لأن القلوب مجبولة على حب أهل الأدب « وللغنى زينة وسؤدد » فالأدب يزين الغنى ويشرفه ويرفع قدره ومراده بهذا البيت أن الأدب لا يستغنى عنه غنى أو فقير « وقيل من يحرم سلطان الأدب » أى يمنع منه ولم يوجد فيه شىء منه « فهو بعيد ما تدانى واقترب » التدانى والقرب بمعنى واحد والمعنى أن من لا أدب عنده فهو بعيد عن الله وعن خلقه مهما تصور دنوه فى زعمه واقترابه فى وهمه قال أبو حفص : التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب مردود من حيث يظن القبول « وقيل من تحبسه الانسـاب فانما تطلقه الآداب » أى قال بعضهم من تحبسه الأنساب عن الارتقاء فى المراتب تطلقه الآداب المرضية الى أرفع المراتب ، وبعد أن بين محل الأدب فى الحياة بشكل عام رجع الى التصوف فقال : « فالقوم بالآداب حقا سادوا ٠٠٠ منه استفاد القوم ما استفادوا » ٠٠ القوم هنا هم الصوفية ، أى ما ساد الصوفية وشرفوا الا بالآداب وما استفادوا من العلوم والمعارف والأنوار والأسرار والكرامات الحسية والمعنوية الا بالأدب ثم ذكر بعض آدابهم فقـال : « اذ نصحوا الأحداث والأصاغر » الأحداث جمع حدث وهم من لم تنبت لحيته والاصاغر جمع صغير وهو هنا ما كان فى السن دون الحدث ، نبه على أن من أهم أخلاق الصوفية نصحهم الخالص لصغار السن والمردان أقول : مع ملاحظة احتياط الصوفية من صحبة المردان وخوفهم على قلوبهم وحالهم من هذه الصحبة فهم ينصحون مع احتياطهم لأنفسهم فى عدم النظر وعدم الخلوة وفى الاحتيـاط فى المصافحة وغيرها « وحفظوا السـادات والأكابر » المراد بالسادات هنا العبـاد والزهاد والصالحون والعلمـاء العـاملون والمريدون السالكون الذين لم يبلغوا رتبة المشيخة ٠ والمراد بالأكابر ههنا المشايخ ٠ وحفظ السادات والأكابر انما يكون بالتوقير وبالاحتشام وباعطاء الرتبة حقها من كل وجه ٠ ثم ذكر آدابهم فى الكلام فقـال : « واجتنبـوا ما يؤلم القلوبا » هذا أدبهم مع كل مسلم فلا يتكلمون مع مسلم بما يوجعه فى قلبه ولو كان نصحا فالوعظ انما ينفع اذا كان على وجه الملاطفة والسياسة ويتأكد ترك ما يؤلم مع الزوجة والأهل وكذلك مع الاخوان ثم ذكر آدابهم فى العمل فقال : « وابتدروا الواجب والمندوبا » أشار بذلك الى كمال عبوديتهم وأنهم يبادرون الى القيام بحقوق مولاهم واجبة كانت أو مندوبة ثم ذكر آدابهم

مع الشيوخ والاخوان فقال : « وخدموا الشيوخ والاخوانا » خدمة المسلمين أمر عظيم فى أصول السير الى الله لما تخلفه فى نفوس أصحابها من تواضع ولما تعمقه من مفهوم الذلة على المؤمنين وهو أصل من أصول الأخلاق فى الاسلام ومن لم يعتد على خدمة الاخوان فان بينه وبين الذلة على المؤمنين حجابا كثيفا ولا شك أن خدمة الشيوخ لها فضلها الزائد لما فيها من توقير الكبار فضلا وسنا ، واعتاد الناس أحيانا أن ينكروا أو يستكبروا مثل هذا وهو انكار فى غير محله فقد كان ابن مسعود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أنس بن مالكمتفرغا لخدمته عليه السلام • ان الاستكبار عن خدمة الاخوان والشيوخ مسألة مرتبطة بالكبر والعنجهية وغير ذلك من أمراض ينبغى أن يجاهد الانسان نفسه فيها « وبذلوا النفوس والأبدانا » أى فى هذه الخدمة خدمة الشيوخ والاخوان • ثم بعد هذا ذكر آدابهم فى العلم وغيره فقال : « وأنصتوا عند المذاكرات » بمعنى أن كلا منهم يعطى أخاه فرصة أثناء المذاكرات العلمية حتى ينهى كلامه فاذا تم كلام المذاكر تكلم بما عنده من غير رفع صوت ولا خصام ولا خروج عن الأدب « واحترموا الماضى معا والآتى » المراد بالماضى من تقدم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين فضلا عن الأئمة المجتهدين واحترامهم ألا يذكروا الا باحسان وأن يعرف على ماذا يحمل كلامهم • والمراد بالآتى احترامهم لأهل زمانهم ولو جاءوا بعدهم أو حتى من سيجيئون وهم فى كبر فى السن فلا ينظرون الى الأجيال اللاحقة باحتقار بل يعرفون أن فضل الله لا حد له « وسألوا الشيوخ عما جهلوا » وذلك لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم وهو معلوم من الدين بالضرورة وانما يسألون عما يحتاجون الى معرفته فى الحال من عمل أو حال أو مقام « ووقفوا من دون ما لم يصلوا » أى أنهم لا يتحدثون عن مقام لم يصلوا اليه حديث الزاعم أو الموهم أنه وصل اليه أو أنهم لا يسألون الا عما يلزمهم مما يناسب حالهم ابتعادا بأنفسهم عن التكلف أو أنهم لا يتحدثون الا عن علم فما لم يصل اليه علمهم يتوقفون فيه فهم يتوقفون عن الحديث فى شىء لم يصلوا الى علمه « وعملوا بكل ما قد علموا » فعلمهم عظيم وعملهم مكافىء لعلمهم اذ العمل هو نتيجة العلم فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، ومن كلامهم : العلم يهتف بالعمل فان وجده والا ارتحل ومن عمل بما علم أورثه الله علم مالا يعلم « وآثروا واغتفروا واحتشموا » فهذه ثلاثة أخلاق من أخلاقهم فى العلم وغيره فهم يؤثرون على أنفسهم فى الكلام ويؤثرون على أنفسهم فى صدور المجالس والمحافل وكل ما فيه تعظيم الا اذا قدمهم غيرهم ، هذا فضلا عن ايثارهم فى اللقمة والمال والمنصب وغير ذلك وهم يحتشمون عن الكلمة غير العفيفة أو غير المهذبة فى المذاكرة أو غيرها سواء هاجمهم غيرهم أو ترك الأدب فضلا عن احتشامهم من أن يتصرفوا تصرفا غير عفيف أو يقولون كلمة غير حميدة • والمراد بالاغتفار المسامحة والعفو عن جفوة الاخوان الذين هم بعد فى طور

التربية ، والصبر على الغلظة فى المذاكرة وغيرها « واحتكموا بالعدل والانصاف » فهم يحتكمون للعدل والانصار ويحكمون ان حكموا بالعدل والانصاف فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضا وعلى أنفسهم ومن توجه عليه حق من الحقوق أنصف وأذعن وانقاد للحق ولا يتعصب ولا تستفزه حمية الجاهلية • والانصاف هو الاعتراف بالحق متى ظهر من غير توقف وكانوا يقولون : الانصاف من شيم الأشراف « فوردوا كل معين صاف » الماء المعين هو الماء الجارى الذى لا ينقطع والصافى هو الذى لا تغيير فيه • والمراد أن الصوفية لما حكموا بالعدل واتصفوا بالانصاف شربوا من العلوم أعذبها وأصفاها « وبعضهم كان لبعض عونا » تحقيقا لقوله تعالى : **((وتعاونوا على البر والتقوى))**(١) • فيعين المسلم أخاه المسلم بنفسه وماله وجاهه وعلمه وهمته وحاله ومناصحته ومودادته الى غير ذلك • « يلقى لديه دعة وأمنا » الدعة : الراحة • والأمن : الأمان ، أى كل منهم يلقى عند أخيه راحة فى نفسه وأمنا على نفسه وعرضه وأمانته وسره ومقاصده « ينصره فى الحق حيث كانا » تحقيقا لقوله عليه السلام : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا يا رسول الله : ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ فقال : تأخذ على يديه فترده عن ظلمه » (رواه البخارى) • « فان أساء قارضه احسانا » أى فان أساء صوفى الى أخيه فى قول أو فعل سامحه وبذل له احسانا فى مقابل اساءته فهو يبادله بالاساءة احسانا تحقيقا لقوله تعالى : **((ادفع بالتى هى أحسن))**(٢) • ثم بعد أبيات يتحدث فيها عن قضية يظنها الناس أدبا وليست أدبا يقول : « والقصد من هذا الطريق الأدب ••• فى كل حال منه هذا المذهب » اشار فى هذا البيت الى أن الطريق مبنية على الآداب بل هى الهدف فى الطريق فمن لا أدب له لا طريق له ، وبالبيت الأخير تنتهى الفقرة التى عندها صاحب المباحث الأصلية فى الأخلاق والآداب وقد نقلنا بعض التعليقات عليها مستأنسين بشرح ابن عجيبة لهذه القصيدة كعادتنا تقريبا حيث علقنا على ما ننقله من هذه القصيدة وبمناسبة شرح البيت الأول من هذه الفقرة ذكر ابن عجيبة : يعنى أن باطن الطريق هو محل تنزل الأحوال والمقامات وهى القلوب والأسرار لأنها باطنة لا يعلمها الا الله والفرق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويجىء بخلاف المقام فانه رسوخ وتمكين قال فى العوارف : كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت اشارات المشايخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابهما فى نفسهما وتداخلهما فتراءى للبعض الشىء حالا وتراءى للبعض مقاما وكلا الرأيين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما تشعر بالفرق ، فالحال سمى حالا لتحوله والمقام مقاما لثبوته واستقراره وقد يكون الشىء بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة

---

(١) المائدة : ٢ (٢) المؤمنون : ٩٦

ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة تعاهده الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس الى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويقلب حال المحاسبة فتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ثم ينازله حال المراقبة فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالا ثم يحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد الى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير مقام المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبة قراره الا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة الا بنازل حال المشاهدة فاذامنح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا ويحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما وتتخلص شمسه من كسوف الاستتار ثم فى مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال الى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص الىالبقاء والترقى من عين اليقين الى حق اليقين يقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة ٠ (انتهى) ٠ وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضى والتسليم تكون أحوالا ثم تصير مقامات فما دامت مجاهدة فهى أحوال فاذا كانت ذوقا فهى مقامات وقد قالوا : الأحوال مواهب لأنها موهبة من الله جزاء على الأعمال والمقامات مكاسب لأن التمكين منها مكتسب بدوام الأعمال وفى التحقيق كلها مواهب ٠

٢ ــ قال السلمى : وعلى كل جارحة آداب تختص به قال الله تعالى : **((ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا))**(١) ٠ وقال بعض المشايخ : حسن الأدب مع الله تعالى أن لا تتحرك جارحة من جوارحك فى غير رضى الله عز وجل ٠ فأدب اللسان أن يكون رطبا بذكر الله تعالى وبذكر الاخوان بخير والدعاء لهم وبذل النصيحة والوعظ ولا يكلمهم بما يكرهونه ولا يغتاب ولا ينم « يعنى لا يمشى بالنميمة » ولا يشتم ولايخوض فيما لا يعنيه واذا كان فى جماعة تكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعنيهم فاذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك ويتكلم فى كل مكان بما يوافق الحال فقد قيل : لكل مقام مقال ، وقيل : خلق الله اللسان ترجمانا للقلب ومفتاحا للخير والشر ، وقيل : اذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك والزم الصمت فانه ستر للجاهل وزين للعاقل ٠ قال صلى الله عليه وسلم : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم » ٠ وآداب السمع ألا تسمع الفحش والخنا والغيبة والنميمة والمناكر ٠ وأنشدوا :

أحب الفتى ينفى المناكر سمعه   كأن به عن كل فاحشة وقرا

---

(١) الاسراء : ٣٦

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بالفائدة دينا ودنيا ، ويحسن الاصغاء الى مكلميه ومخاطبيه ملتذا بذلك • وآداب البصر الغض عن المحارم وعن عيوب الاخوان وعن المنكرات وعن المحرمات فان الله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وقيل من طاوع طرفه تابع حتفه. أى موته وفى رواية : من أرسل طرفه مات حتفه ، وأنشدوا :

وانك مهما ترسل الطرف رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر

ترى ما الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر.

ثم قال السلمى : وقيل من غض طرفه تم ظرفه ، وقيل : من كثرت لحظاته دامت حسراته • ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته وجميل صنعه عاريا عن حظوظ النفس الأمارة بالسوء ••• وآداب القلب مراعاة الأحوال السنية المحمودة والتفكر فى آلاء الله ونعمائه وعجائب خلقه قال الله تعالى : « **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** »(١) • ومن آداب القلب حسن الظن بالله وبجميع المسلمين وتطهيره من الظن والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد فانها من الخيانة قال الله تعالى : « **ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** »(٢) • وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد واذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهى القلب » (رواه البخارى) • وقال سرى السقطى : القلوب ثلاثة : قلب كالجبل لا يحركه شيء وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح يميل بها يمينا وشمالا وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت •

وآداب اليدين : « البسط بالبر والاحسان وخدمة الاخوان وألا يستعين بهما على معصية الله تعالى • وآداب الرجلين السعى بهما فى صلاح نفسه واخوانه ولا يمشى بهما مرحا ولا يختال ولا يتبختر ولا يزهو فانها مما يبغضه الله تعالى وألا يستعين بهما على المعاصى » •

وأما الأخلاق فالمراد بها حسن الخلق مع كل مخلوق ومرجعها الى الحلم والعفو والصبر أو تقول مرجعها الى أن تعامل الخلق بما تحب أن تعامل به أو تقول : مرجعها الى كف الأذى وبذل الفدا والانصاف فيما ظهر وما بدا وحمل الجفاء وشهود الصفا ورمى الدنيا بالقفا وقال الغزالى : هو ملك النفس عند الشهوة والغضب ويرجع الى ما تقدم •

---

(١) آل عمران : ١٩١ (٢) الاسراء : ٣٦

٣ ـ بمناسبة قول المؤلف : « فالقوم بالآداب حقا سادوا ٠٠٠ » قال ابن عجيبة : قلت السؤدد : هو الشرف أى ما ساد القوم وشرفوا الا بالآداب مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع أشياخهم ومع سائر المسلمين ٠ فالأدب مع الله بامتثال أمره واجتناب نهيه والاستسلام لقهره وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرح الحكم : هو حفظ الحدود والوفاء بالعهود والتعلق بالملك الودود والرضى بالموجود وبذل الطاقة والمجهود ، والأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وايثار محبته والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه والأدب مع الأشياخ بحفظ الحرمة وحسن الخدمة وصدق المحبة والأدب مع المسلمين بأن تحب لهم ما تحب لنفسك أو أكثر وتقدمت آداب الجوارح فلا بد منها وكذلك آداب الأوقات وهى تعميرها بالطاعات ٠ فأوقات العبد أربعة كما قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : وقت الطاعة ووقت المعصية ووقت النعمة ووقت البلية ، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر فاذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام ٠

٤ ـ وبمناسبة قول المؤلف : « اذ نصحوا الأحداث والأصاغر ٠٠٠ » ٠ قال ابن عجيبة : ونصحهم بغرس الخير فى قلوبهم كما قال ابن أبى زيد فى رسالته : وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر اليها ٠ وقال السلمى رضى الله عنه : والصحبة مع الأصاغر بالشفقة والارشاد والتأديب والحمل على ما يوجبه حكم المذهب ويدلهم على ما فيه صلاحهم لا على ما فيه مرادهم وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه ويزجرهم عما لا يعنيهم ٠

٥ ـ وبمناسبة قول المؤلف : « واجتنبوا ما يؤلم القلوبا ٠٠٠ » قال ابن عجيبة : ويرحم الله القائل :

اذا شئت أن تحيا ودينك سالم	وجاهك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء	فعندك عورات وللناس ألسن
وعينك ان أبدت اليك معايبا	فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى	وفارق ولكن بالتى هى أحسن(١)

---

(١) للامام الشافعى ٠

قال الشيخ زروق فهذه الأبيات جامعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب فمن عمل عليها سلم من هذه الآفات التى أصلها كلها التجسس عن أخبار الناس وسوء الظن بهم • (انتهى) • ونختم هذا الفصل بكلمة ابن عطاء فى الأدب • وبكلمة للجنيد : « خف من وجود احسانه اليك وداوم اساءتك معه أن يكون ذلك استدراجا لك **((سنستدرجهم من حيث لا يعلمون))**(١) من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد وأوجب الابعاد فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن الا منع المزيد • وقد يقام مقام البعد وهو لا يدرى ولو لم يكن الا أن يخليك وما تريد » • ويقول الجنيد : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال وانما أخذناه عن الجوع والسهر وكثرة الأعمال » •

فصــل فى بعض آداب الشيوخ :

من أدب الشيوخ والمربين والدعاة أن يبدأوا مع الآخرين باللطف والايناس والرفق قبل أى شىء ليصلوا الى قلوبهم ويستكشفوا استعداداتهم ويزيلوا ما بينهم وبينهم من الحجب • فكثيرا ما يهجم المربى أو الشيخ أو الداعيــة على الآخرين بأنواع التكاليف وأنواع الطلبات فينفر الآخـرون أو يفرون وفى ذلك من الخطأ فى الأسلوب ما فيه بل ذلك يجافى الحكمة • ان هناك فارقا بين مريد جاء الى شيخ وطلب منه أن يقرأه كتابا ، ان مثل هذا لو بدأ معه فى العلممباشرة فذلك جيد ولكن أحيانا يأتى انسان مسترشدا أو يبدأ انسان مع مرب صلة جديدة ففى مثل هذه الحالة لو بدأت المسألة بالتعارف والسؤال والجواب والتعليق اللطيف ثم التكليف غير المرهق فان ذلك يكون أجود فى بعض الحالات وفى ذلك يقول الجنيد : اذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق فان العلم يوحشه والرفق يؤنسه • وعلق الامام الغزالى على هذا بقوله : وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدىء الطالب وكل من كان منهم اكمل حالا وأوفر علما كان أكثر رفقا بالمبتدىء الطالب » • ومن آداب الشيوخ والمربين والدعاة أن يحاولوا نقل الانســان ولو نقلة بسـيطة فى الخير فكل نقلة فى الخير مهمـا كانت قليلة فانها تدفع بالانسان الى الله لأن الله عز وجل من شأنه أنه من تقرب اليه شبرا تقرب اليه باعا وعلى هذا فأى زحزحة للانسان من حال الى حال أعلى منه مع النية الصاحة تدفع الانسان نحو باب الله عز وجل • ولذلك فان المشتغلين فى الدعوة والتربية عليهم أن يلاحظوا دائما قضية نقل الانسان نقلة ما مهما كانت بسيطة لأن هذه النقلة قد تكون مقدمة لما هو أعلى منها وأرقى • ومن آداب الشيوخ : الانصات الكثير لكل متكلم ومعرفة ما يصدق (بتشديد الدال) ومالا يصدق والتمييز بين من يصدق وبين من لا يصدق ثم

---

(٢) القلم : ٤٤

حدود الموافقة للآخرين وهذا كله نأخذه منقوله تعالى : **((ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين))**(١) • ومن قوله تعالى : **((واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم))**(٢) • فكل ما فيه مشقة بالمسلمين وارهاق لهم لا يطيع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا ((وكان من أدبه عليه الصلاة والسلام أنه ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما)) • ثم ان الأدب الرئيسى للشيخ بعد التعليم هو التزكية ، والتزكية تدور بين تخلية وتحلية ومهمة الشيخ أن يبقى اخوانه دائما فى حالة ترق دائم وفى باب التحلية والتخلية أنت بين أمرين : اما أن تتحلى بخلق وتتخلى عن خلق ثم تنتقل الى آخر وثم حتى تصل الى الذروة والى الكمال وهذا طريق واما أن تضرب بضربة واحدة أصل كل خلق ذميم وتتحقق بالأصل الذى ينبع عنه كل خلق حميد ثم يأتى كل شىء بعد ذلك ويكون الكمال وهذا طريق آخر • يقولون ان الاسكندر المقدونى قبل أن يبدأ فتح العالم مر على معبد وهناك قال له الكهنة : ان العالم لا يفتحه الا من استطاع أن يحل عقد هذه الكتلة من الخيوط المعقود بعضها ببعض فما كان من الاسكندر الا أن ضرب الكتلة بسيفه فانحلت عقدها كلها وكذلك الشيخ الكامل اذا جاءه المريد الصادق فانه بضربة واحدة يستطيع أن يحل له عقده كلها ليجعله ينطلق من جديد • ان أخصر طريق لتحقق النفس بكل كمال وتخليتها عن كل نقص أن توضع النفس فى ظرف تتخلص فيه دفعة واحدة من ربوبيتها وتتخلق بعبوديتها متحلية بصفات الكمال وأعظم المربين هو الذى يستطيع أن يعرف كيف يضع المريد فى نقطة البداية هذه وأصدق الطالبين من لا يبالى أن يفعل ما أمر به فى سبيل الوصول الى هذا •••

ولنشرح المسألة : حضيض الأخلاق السافلة ، الكبر والعجب والرضى عن النفس اذ عن هذه الأخلاق تنبع كل رذيلة فمتى كان فى القلب شىء من هذا حجب عن الحق وعن قبوله وحجب عن الانتفاع وحجب عن الله وآياته وبدون أن يتخلص القلب من هذه الأمراض فلا فائدة ترجى منه ولا يتوقع أن يتفجر خيره بل كل خلق سىء يمكن أن يتراكم عنده ، الحسد والحقد والعدوان والغل والبغى والصد عن سبيل الله وغير ذلك كثير ويكفى للتدليل على ذلك قوله تعالى : **((سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ••))**(٣) واذن فالطريق الأخصر هو أن يتخلى الانسان عن هذه المعانى كلها دفعة واحدة وبداية ذلك أن يكون عنده استعداد للتلقى فمن رضى أن يكون تلميذا وأن يضع نفسه فى حجر التربية فانه يتخلى مباشرة عن قسم كبير من هذه المعانى فاذا كان المربى عارفا بالله عالما بالشريعة خبيرا بأمراض

---

(١) التوبة : ٦١ (٢) الحجرات : ٧

(٣) الأعراف : ١٤٦

النفوس أشار عليه بأمر ما أو ألزمه اياه فحرره من البقية الباقية من هـذه المعانى من نفسه كأن يأمره بخدمة اخوانه أو يأمره بالتواضع لخلق الله والجلوس حيث انتهى به المجلس أو يأمره بالتلمذة على من دونه أو يأمره بمخالفة نفسه ، فاذا فعل طالب الله مثل هذا فانه مباشرة يتحرر من كل قيد ويصبح وقد أسقط الخلق من اعتباره ولم يعد يرى الا الخالق لينطلق مباشرة بقلب جديد • ان هذه مهمة الشيخ الأولى ثم تأتى بعد ذلك مهماته الأخرى ولكن هذا الطريق لن يتم له الا اذا وجد صدق عند المريد ، ان أكثر الناس لا يجتمع لهم العلم والشعور والعمل أو العلم والحال ولا يعرفون الطريق لاستكمال كل من هذه • وهذا باب من الجهل عظيم ولا نقصد طبعا العلم بالدنيا ، ان هناك علما بالله وعلما بشريعته ومع وجود علم بالله وعلم بشريعته لا نجد تقوى أحيانا واذا وجدت تقوى فلا نجد كمالا فى الأخلاق فما السر فى ذلك ؟ السر يعود الى أن العلم بالله لم ينتقل من اطاره الفكرى والعلمى الى اطاره الذوقى والشعورى واذا لم ينتقل الى اطاره الفكرى والشعورى فانه لا يكون موجها التوجيه الكامل وعجز المربين أحيانا يكمن فى كونهم لا يعرفون الطريق الى نقل الانسان من العلم الاستدلالى بالله الى العلم الشعورى به جل جلاله ومن ثم يبقى فارق كبير بين العلم والشعور ((**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**))(١) بين العلم والشعور والعمل المتناسب معهما وقد لا يكون السبب عجزا فى المربى وانما زهد فى الناس لعدم المعرفة بالقيمة الحقيقية للاشياء فمن كانت عنده أعلى قيمة فى هذا الوجود لمعرفة الله وكان يعلم أن ما يزيده معرفة فى الله يشترى بالأرواح مثل هذا قريب أن يحصل ، أما من كانت قيمة هذه المعانى عنده قليلة فأنى له أن يبذل لذلك جهـدا أو أن يعمل فى ذلك عملا • ولننتقل من هـذه التعميمات الى الجواهر : أن تعرف أن الله سميع وبصير وقدير هذا فرض الفروض عليك ولكن أن تشعر بأن الله يسمعك ويراك وأن كل شىء فى هذا الكون فعل الله ثم أن يرى قلبك أن أفعالك كلها فعل الله هذا أثر صحيح للمعرفة الأولى •

ان مشكلة كثير من الخلق أن احساساتهم القلبية تقف عند حد واحد لا تتعداه ومهمة المربى أن ينقل الانسان فى عالم الاحساسات من مرحلة الى التى تأتى بعدها بشكل تلقائى وألا يبقيه عند احساسات أدنى مع وجود احساسات أعلى منها ان هذا هو طريق التربية الصحيح وهذا هو الطريق لاستكمال شرط العمل الصحيح فبقدر المعرفة الشعورية لله يكون الالتزام بأمره بقدر ما تعرف أن كل شىء فعله تتحقق بالتوكل وبقدر ما تعرف أن ما سواه فان يكون الاخلاص له وبقدر ما تعرف جلاله تخشى معصيته وبقدر ما تعرف من جماله تطيعه والشيخ مهماته تدور فى هذه الدوائر أولا فاذا فشل

---

(١) الأنفال : ٢٤

فى هذه الدوائر فانه على غيرها كذلك عاجز ٠٠٠ ان مهمة الشيخ الأولى التعليم والتزكية وهذا يقتضى جهدا وترتيبا وتنظيما لكثير من الأمور فالسير لا بد فيه من المذاكرة الدؤوب والحكمة الملهمة عند المربى ، وتمر على الطالب فترات من الفتور وفترات من النشاط وفترات من الجذب الروحى وفترات من غلبة الشهوة ومن ثم كان الاجتمـاع العام وحضور الاجتماع العـام ضروريا لتأخذ روحه من أرواح اخوانه ويمتص قلبه من أحوال اخوانه وليسمع ما يستجيش بواعث الطموح نحو الربانية فى قلبه فللاجتماع بركة خاصة وسكينة خاصة وتجليات خاصة ٠٠٠ اذا اتضح هذا كله فهل للوصول الى هذه المعانى طريق خاص وذكر خاص ؟ الذى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والذى تؤيده السنة ويشهد له حال الأمة أنه ليس لذلك ذكر بعينه بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يلقن وردا بعينه لكل صحابى وبدليل أن الطرق الصوفية لكل منها وردها مع أنها تتول ان النهاية واحدة فالمسألة اذن ترجع الى حكمة المربى واستعداد الطالب وحاله فلـكل ذكر آثاره فى النفس والأنفس مختلفة والمهـم أن يكون المربى عارفا بتأثير كل ذكر على حال الانسان وأن يعطى لكل انسان ما يناسب حاله الذى هو فيه وأن يلفت نظره الى أن يلاحظ ما تنبغى ملاحظته ٠٠٠ فاذا أمره بلا اله الا الله مثلا يلفت نظره الى معنى من معانى لا اله الا الله مرة والى معنى آخر مرة أخرى أو يأمره بملاحظة المعانى واحدا بعد واحد فى الجلسة الواحدة واذا أمره بذكر اسم الله (الله) يأمره بملاحظة أن يقرأ الوجود الظاهر كله بهذا الاسم ثم يقرأ الوجود الغيبى كله بهذا الاسـم ثم وثم ٠ هذا كله من مهمات الشيخ الأولى ولكن له بجانب ذلك ومع ذلك وفوق ذلك مهمات ٠ أن يربى المسلم على أنه جزء من أمة وأن يربيه على القدرة على الكون فى الصف الاسلامى الواحد ثم أن يكون هو واياه فى هذا الصف سائرين فى الطريق لتحقيق الأهداف الاسلامية على كل مستوى وتحمل ما يقتضى ذلك من تضحيات ومحن وما يستلزم ذلك من صراعات وأدوات صراع وبصر دقيق فى مستلزمات ذلك ٠ ان هذا كله أدب الشيخ بل واجبه ، وفى مقابل ذلك فان المريد لا بد أن يتحقق بالصدق فى الطلب وأن يملك حسن الأدب وأول ذلك الاحترام الكامل الذى لا يمنع من قولة حق بل من النصيحة الخالصة يقدمها للشيخ ٠ فنحن أمة يجمعها أدب احترام الصغير للكبير ورحمة الكبير للصغير فى اطار النصيحة الخالصة فيما بين الجميع ، والشورى الواسعة التى هى أدب الجميع مع ملاحظة أن لكل قضية دائرة من الشورى بحسب هذه القضية ٠

فصـــل فى الأخلاقية العامة للصوفى :

قال صاحب المباحث : « ونسبوا الصوفى للكمال » وذلك لوراثته العلم والعمل والحال وأخذه الكمال من مقامات الاسلام والايمان والاحسان والتقوى

والشكر • أخذ من مقام الاسلام أعلى درجات العمل وأخذ من مقام الايمان أعلى درجات اليقين والاطمئنان وأخذ من مقام الاحسان أعلى مراتب المراقبة والمشاهدة وأخذ من مقام التقوى كمال الاستقامة على أمر الله وأخذ من مقام الشكر خالص العبودية الظاهرة والباطنة « وضربوا معناه فى المثال » وضربوا للصوفى أمثلة شبهوه بها تعبيرا عن تحصيله لهذا الكمال وهى ما سيأتى « فهو كالهواء فى العلو » أى الصوفى كالهواء فى اللطف وفى احتياج الخلق له مع عدم شعورهم بوجوده تقريبا فتصرفاته فى غاية اللطف وفى غاية البساطة والناس فى غاية الاحتياج اليه ولا يكادون يحسون به الا عند فقده لكثرة اللطف وعدم التكلف وانسجام الفعل مع العقل والفطرة والسلوك القريب الى النفس ثم هو كالهواء من حيث ارتفاعه عن الأرض مع مخالطته لها فهو مع أبناء جنسه من بنى البشر ولكنه فى علو الهمة وفى الاقبال على الله مباين للآخرين مرتفع عنهم لا مترفع وشتان بين الحالين « ثم كمثل الأرض فى الدنو » فهو كالأرض للمسلمين يطئونها وتتحملهم وتعطيهم من ثمارها الخيرة بل يطرح عليها كل قبيح وتعطى المليح فالصوفى فى غاية التواضع وفى غاية الحلم وفى غاية التحمل وفى غاية العطاء « ثم كمثل النار فى الضياء » أى هو كالنار فى كونها تضىء من ناحية ومن ناحية أخرى تحرق ما يلقى فيها فالصوفى ينير للخلق الطريق ويحرق كل الأخلاق الرديئة فى نفسه كما أنه يحرق من خلال الكلمة والقدوة والتوجه الأخلاق الرديئة عند كل من يخالطه أو يصحبه أو يتتلمذ عليه « ثم كمثل الماء فى الارواء » فالصوفى يروى القلوب الظمأى الى الخير المحتاجة الى الرى بالايمان واليقين ويروى الأرواح الظمأى الى معرفة الله والعبودية له • ويروى العقول الظمأى الى الحقائق الخالصة ، فالصوفى الكامل اذن هذا شأنه فى لطفه وتواضعه وانارته للطريق لخلق الله وريه لمريدى وجه الله عز وجل •

فصل فى طريقة حكيمة فى الدعوة الى الله :

كان بعض شيوخنا يرى أنه فى عصرنا ينبغى أن نلاحظ أمرا مهما فى الدعوة الى الله من أجل ارجاع المسلم الى اسلامه • ان هناك كثيرا من الحالات يصادفك مسلم قد عقدته أشياء كثيرة حتى كاد الكفر أن يسرقه أو سرقه فعلا فلم يبق له من الاسلام الا الاسم ، وفى كثير من الأحيان لا تجد فرصة لتقول لهذا الانسان شيئا ثم نحن الآن فى مرحلة ضعف فكان الشيخ ينصحنا أن نستعمل سلاح الاحسان ، فالاحسان هو الذى يستخرج الخير من قلب الانسان ان كان فيه خير • ومن الاحسان التحمل والصبر ، ولقد كان من خلق رسولنا عليه الصلاة والسلام أنه لا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما ، انه من خلال الاحسان يمكن أن نصل الى بعض القلوب ومن خلاله نستطيع أن نقول كلمة أو نخفف حقدا ويكون ذلك كله وسيلة هداية • ولا بد من الاخلاص فى هذا الشأن وغيره ولا بد من ملاحظة أدب الوقت وحق الوقت وواجب الوقت

ثم حكم الله فى موقفنا المناسب من كل حالة ، إذ ذكر علماؤنا أن الدعوة الى الله بدايتها البيان ثم الوعظ ثم التعنيف ثم وثم وهذه النصيحة تصلح كمقدمة للبيان فى بعض الحالات وتصلح اذا كان حق الشرع يقتضى منا ذلك ، ولكن قد يكون حق الشرع فى بعض الحالات أن نهجر أو نعنف أو غير ذلك وكل ذلك ينبغى أن يراعى ، ولا يوفق الى أن يضع الأمور فى مواضعها الا حكيم ولا حكمة الا بتوفيق الله عز وجل ٠

فصــل فى خلق عظيم يحرص عليه الصوفية :

من العبارات الصوفية المشهورة : « الصوفية بخير ما تناكروا » ٠ هذه العبــارة من أشهر العبارات المتوارثة فى حلقــات التصوف والمعنى أن الصوفية بخير ما أمر بعضهم بعضا بالمعروف ونهى بعضهم بعضا عن المنكر ، أى هم بخير ما لم يسكت أحدهم عن منكر أخيه فضلا عن سكوته عن منكر الآخرين والحقيقة أن المسلمين جميعا لا يكونون بخير الا بهذا الخلق فالله عز وجل قال : **((والعصر ٠ ان الانسان لفى خسر ٠ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر))**(١) ٠ فلا فلاح للانسان الا اذا اجتمع له ايمان مع عمل صالح وتواص بالحق وبالصبر ٠ فالتواصى بالحق والتواصى بالصبر أحد أركان النجاة عند الله عز وجل ولقد استحق اليهود اللعنة من الله بتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما بينهم وقد أنذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باستحقاقنا للعنة الله عز وجل وتشتيت قلوبنا كما حدث لليهود اذا لم يأمر بعضنا بعضا بالمعروف ولم ينه بعضنا بعضا عن المنكر ان من سنة الله عز وجل أنه لا يؤلف بين قلوب عباده الا اذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خلقا من أخلاقهم قال الله عز وجل : **((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورســوله ، أولئك سيرحمهم الله))**(٢) ٠ فمن اجتمعت لهم هذه الصفات فقد وعدوا من الله عز وجل بالرحمة التى من آثارها وحدة القلوب على الله عز وجل ٠ قال تعــالى : **((ولا يزالون مختلفين ٠ الا من رحــم ربك))**(٣) ٠ فالمرحومون هم الذين لا يختلفون ، ولا مرحومين هذه الرحمة الخالصة الا من اجتمع له مجموعة أخلاق من جملتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأين هذا من حال الناس اليوم حتى فى دوائر العاملين للاسلام ؟ وهذا مظهر من مظاهر الخلل ، أما فى دوائر الصوفية فالأمر فى كثير من الأحيان يكون على عكس ذلك فبدلا من أن يربى الانسان على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة يربى على التسليم لحال الشيخ حتى لو رآه المريد على المنكر ، وبدلا من أن يعرف

---

(١) سورة العصر ٠ (٢) التوبة : ٧١

(٣) هود : ١١٨ ، ١١٩

المريد على المعروف كله وعلى المنكر كله من خلال العلم الصحيح فانك تجد الجهل بالمعروف والمنكر عاما وطاما فى بعض الدوائر لدرجة يصبح فيهــا المعروف منكرا أو المنكر معروفا وما أصعب ذلك وما أبعده عن هدى دين الله عز وجل ، ولهذا كله فانه لا بد من عودة كاملة الى هذا الخلق حتى يأخذ طابع البديهية والعادة فى الفكر والسلوك فيصبح الواحد منا بكل بساطة يقول لأخيه هذا خطأ يا أخى ويقول له الآخر : جزاك الله خيرا يا أخى وبكل أدب يقولها الصغير للكبير وبكل اخبات للحق يقبلها الكبير ولو جاءت على لسان الصغير ، وبكل رحمة يقولها الكبير للصغير وبكل فرح يقبلها الصغير من الكبير وأما الشيخ فينبغى أن يهش لذلك ويبش ليعود المريدين على ذلك ولا بد للجميع أن يقفوا موقفا حازما من المنكر حتى ينتهى مهما كلفنا ذلك مع ملاحظة أنه ينبغى أن يزال المنكر بالطريقة الحكيمة التى لا يترتب عليها منكر أكبر وألا يتجاوز فى الانكار الحدود الشرعية ، ولحجــة الاسلام الامام الغزالى فى كتابه «احياء علوم الدين» بحث عن المنكر ما أظن أن الانسان يعثر على مثله فى بابه فليراجع ٠

فصـــل فى بعض آدابهم فى الطعام :

من كلام صاحب المباحث الأصلية فى هذا الموضوع : « وأدب القوم لدى الطعام » ٠ « جم فمنه ترك الاهتمام » ٠ أى آداب القوم عند تناول الطعام أو قبله كثيرة : فمنهاعدم اهتمامهم به قبل الحاجة اليه الا اذا كان على الانسان مسئولية فى شأضه لغيره « وقلة الذكر له ان غابا » أى من آدابهم قلة ذكر الطعام قبل حضوره لأن ذكره دليل تعلق النفس وتشوقها اليه « لكونه عندهم حجابا » أى لأن ذكره حجاب عن أشياء كثيرة باشتغال النفس فيه لولوعها به طلبا وذكرا فأن يكثر الانسان من ذكره فذلك انشغال وتضييع لأوقات كثيرة فى غير مهم هذا عدا عن كون ذلك من علامات ضمور الهمة وعدم المبالاة بالمروءات « بل أنزلوه منزل الدواء ، عند العليل بغية الشفاء » أى أن الصوفية أنزلوا الطعام والشراب منزلة الدواء لقيام هذا البدن فلا يتناولون منه الا قدر شفائه وهو ما به قوامه أخذا من الحديث الصحيح : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » ٠ فلا يتناولون منه الا قدر قوام البدن ولا يذكرونه ولا يهتمون به الا قليلا اشتغالا عنه بما هو أهم من ذكر أو فكر أو شهود أو معاملة ظاهرة واذا تناولوه قصدوا به التقوى على طاعة الله « ولميكن همهم بجمعه ٠٠٠ وكسبه وفضله ومنعه » اذ أن هم السائر الى الله الوصول الى الله والوصول الى رضوانه كما أن من آدابه أن يلحظ فى كل عمل من أعماله أن يكون عمله كله طاعة لله وتنفيذا لأمره جل جلاله فاذا أصبح تأمين الطعام فى حقهم أو فى حق عيالهم فرضا أو واجبا أو سنة فهم عندئذ يعملون ملاحظين ذلك ٠ قال ابن عجيبة : « ومن اشتغل منهم بشىء من الأسباب فان ذلك قياما برسم العبودية وان

حصل منها شئ كانوا فيه أمناء على وجه أنهم خزان الملكة يترصدون سد الخلل فيمسكون ما أمروا بامساكه ويرسلون ما أمروا بارساله والمراد بالفضل فى البيت زيادات الطعام فليس همهم فى زياداته وليس همهم بمنع الطعام عن خلق الله بل فى غير ذلك مما ذكرناه « ولا استقلوه ولا عابوه » أى من آداب القوم عند حصول الطعام ألا يستقلوه بأن يصغروه ومن آدابهم ألا يعيبوا طعاما تحققا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الحديث : « ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط كان اذا اشتهاه أكله والا تركه » (متفق عليه) • فهم لا يحتقرون الطعام ولو كان قليلا فى الحسن أو رديئا فمن آدابهم أن يتلقوا القليل من صاحبه الذى أتى على يديه بالبسط والفرح والتعظيم والتكثير والتبريك ويبتدئون بأكله قبل غيره تطييبا لخاطر صاحبه ورفقا بقلبه وكذلك يفعلون فى الطعام الخشن أو الردئ « ولم يكن قصدا فيطلبوه » أى أن الطعام عند الصوفية لم يكن مقصودا لعينه فانهم لا يطلبونه على وجه يصبح هدفا فى حد ذاته كحال الجشعين والشهوانيين « والقوم لم يدخروا طعاما » وهذا ذروة الأدب فى شأن الطعام وغيره • قال تعالى : **« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »**(١) • فالصوفية المتقدمون فى شأن الطعام وغيره ، كانوا يأخذون قدر حاجتهم فى الوقت ويتصدقون بالزائد • وقد اختلف اجتهاد المتأخرين منهم بعد انتشار الحرام وشح الناس وتعطل الأحكام فى المجتمع الاسلامى حتى اعتبر بعضهم أن استغناء الشيخ عن مريديه من أخلاقه وذلك لا يتأتى له الا اذا كان ذا مال وهم فى الأصل لا يحرمون الادخار فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخر قوت سنة لعياله فى أخريات حياته عليه الصلاة والسلام فالموضوع اذن له أحواله المتعددة والفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا « بل تركوا الحلال والحراما » تركوا الحرام تقوى وتركوا التوسع فى الحلال ورعا • قال ابن عجيبة: فتركوا الحلال زهدا وتركوا الحرام تقوى وتركوا المتشابه ورعا «الا يسيرا قدر ماتيسرا» أى الا قليلا من الحلال بالقدر المتيسر والذى دعاهم الى التقلل حتى من الحلال تعذر الحلال المحض بسبب فساد المعاملات وضعف الفقه فى الحلال والحرام عند أكثر الخلائق وقلة الورع ولذلك قال : « اذ الحلال المحض قد تعذرا » الحلال المحض هو الخالص الذى لا شوب فيه ولا اختلاف ، أو هو الحلال بالنسبة لعلم الله وذلك لم يكلفنا به الله عز وجل ، ولما كثر الفساد وأصبح هذا النوع من الحلال الخالص قليلا فان الصوفية ألزموا أنفسهم بأن يأكلوا ضمن حدود الحاجة فيما لم يعلموا حرمته قطعا وما أكثر هذا النوع • قال ابن عجيبة : وكثيرا ما يجرى على ألسنة المتدينين أن الحلال ضالة مفقودة أو معدوم وهو أمر يجعلونه عكازا للاسترسال وأخذ كل ما والاهم • بل الحلال موجود ، ولو لم يكن موجودا فى كل زمان ما كلفنا

---

(١) البقرة : ٢١٩

بطلبه ولانقطع أولياء الله اذ هو قوتهم وذلك باطل واذا حرمت الكل حللت الكل وكل من بيده شيء يستأنف فيه حكم الله ، ومن كلام ابن عجيبة : «اذا فقد ــ أى الحلال ــ رأسا أقيم من عشرة أشياء : تجارة بصدق واجارة بنصح وأعشاب الأرض غير المملوكة وهدية من أخ صالح وصيد البر حيث يباح وصيد البحر ومهر النساء بطيب نفس وقسمة المغنم على وجه شرعى والميراث على أصل مجهول والسؤال عند الحاجة » • أقول : وللغزالى فى احيائه بحث نفيس فى قضايا الكسب فليراجع ويمكن أن يتوصل الى المال الحلال عن طرق أخرى غير التى ذكرها الشيخ وبعض العلماء قالوا : ان المال الحرام لا يتجاوز ذمتين فاذا وصل انسان الى مال حرام ولم أعرف عينه ثم انتقلت ملكية هذا المال الى بطريق مشروع حتى بالهدية فان هذا المال فى حقى حلال على رأى هؤلاء ولذلك فان أكثر العلماء مذهبهم عدم التدقيق فى السؤال عن أصل الأشياء ولذلك ذهبوا الى أن الحلال ما جهل أصله « وجنبوا طعام أهل الظلم ••• والبغى والفساد خوف الاثم » قال ابن عجيبة : « أهل الظلم هم ملوك الجور والعمال المضروب على أيديهم وأهل البغى هم السراق والمحاربون وأهل الفساد من يتعامل بالربا وبالمعاملة الفاسدة ولا يتحاشى من الحرام » وقال الشيخ زروق : « وأما تجنبهم طعام الظلمة ونحوهم فلوجوه « أحدها » ما فى ارضائهم من الموالاة التى لا تحل أى لأنهم يفرحون بأكل طعامهم من أهل الصلاح والخير مع ما هم عليه من الظلم ما لم يخش الضرر الواضح •

« الثانى » : ما فيه من تسلطهم على المنتسبين اما بسوء الظن بالجهل لاعتقادهم حرمة ما بأديهم وأن من يأكله لا خلاق له فيستهينون بهذا الشخص بل بكل أهل جنسه بجعله حجة على غيره فمن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع أو ضيق حظيرة أى ضيق دائرة معرفته فيقول له فلان أكبر منك أكل طعامى وما تكون أنت منه فيؤذى ذلك •

« الثالث » : ما فيه من اعانتهم على ما هم فيه اذ يرون أنفسهم حينئذ أنهم من أهل الخير •

« الرابع » : ما فى ذلك من ميل النفس لهم ومحبتهم ، حكى أبو نعيم فى حليته أن ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه وذكره فأعطاه مالا فاشترى به عبيدا فأعتقهم فقال له محمد بن واسع فى ذلك فقال له : ذكرتهم بالله ووعظتهم وأخذت منهم مال الله وصرفته فى وجهه فقال محمد بن واسع : (الله) قسم قلبك الآن لهم كما كان ؟ قال لا • فاستغفر ، رحمة الله على الجميع •

« الخامس » : ما فى ذلك من تناول الشبهة من غير ضرورة فقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : من كان من فقراء هذا الزمان

مؤثرا للسماع أكولا لأموال الظلمة ففيه نزعة يهودية قال الله تعـالى : ((سماعون للكذب أكالون للسحت))(١) ا ٠ هـ باختصار ٠

« السادس » : ما يلحقه بسبب ذلك من الذلة وتغيير الحال كما اتفق لكثير من الناس واتخذه بعضهم أى بعض الكبراء سياسة فاذا رأى فقيرا استظهر عليهم بالقوة وخافوا دعوته أو غيرها والوه واحتالوا عليه حتى يدخل فى أيديهم فلا يمكنه التعزز عليهم وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول : الفقير لا يمشى بالليل ولا يهرب بالنهار ان رأى ما يخاف ولا يأكل طعام الظلمة (قلت) : لأن هذه كلها تورث الذل ٠

« السابع » : ما فى ذلك من فتح باب التشويش باعتقاد الناس أن له عندهم جاها فيتوجهون له بطلب الشفاعة وذلك أمر لا يمكنه استيفاؤه وقلما تعلق به رجل فسلم فى ديانته والله تعالى أعلم وهذا كله ما لم تكن ضرورة والمرء فقيه نفسه « بل أكلوا مما استبان حله ، غير الذى لا يعرفون أصله » قال ابن عجيبة : يعنى أن القوم لا يأكلون الا ما ظهر حله وتحققت اباحته ولا يأكلون مما لا يعرفون أصله هل هو حلال أو حرام ولعل ذلك مع قيام الريبة والشك ٠ أقول : وقد مر معنا هذا الموضوع من قبل فراجعه ٠

« ولم يكونوا كرهـوا الـكلاما عليـه لـكن كرهوا الارغاما »

قال ابن عجيبة : الكلام على الطعام حسن لأن السكوت على الطعام يدل على الشر والنهمة ٠ ويستحب أن يكون بعلم أو بحكايات الصالحين ويكون الكلام بعد بلع الطعام لا فى حال مضغه لأنه ربما يخرج شىء من فمه فيسقط فى الطعام فيتقذره على غيره فلا يتكلم الآكل مادام الطعام فى فمه وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه استحب أن يسمى عند كل لقمة ويحمد عند ابتلاعها قال ابن الحاج وهذا أمر حسن لكن السنة لم ترد به وهى أحسن من كل ما سواها فلم يكن القوم يكرهون الكلام فى حال الطعام ولكن كانوا يكرهون الارغام أى التحتيم على الاخوان فى الاكل لما فى ذلك من التكلف المنهى عنه بل الأدب فى ذلك تركه يفعل ما يشاء وقد يكون قولك له : (كل) سببا فى رفع يده حياءا واذا شعر صاحب الطعام أن ضيوفه يخجلون من الأكل عنـد حضوره فانه يحاول أن يتغيب بحجة عمل أو غيره ليعطيهم فرصة يأخذون فيها حريتهم :

ويكرهون الأكل مـرتين فى اليوم والمرة فى اليومين

---

(١) المـائدة : ٤٢

المراد باليوم هنا النهار • قال ابن عجيبة : والمراد باليوم بياض النهار من الفجر الى الغروب وقال : ويفهم من كلام الناظم أن الممدوح هو الأكل مرة فى اليوم يعنى مرة فى النهار ومرة فى الليل وهو الوسط وأن الأكل مرة فى اليومين تفريط كما أن الثلاثة فى اليوم افراط • قال الشيخ زروق : وهذا حكم من اعتدل مزاجه أو قارب فأما من انحرف الى حد الافراط أو التفريط فلا ينبغى أن يهمل حكمه بل يعمل بما يصلحه من غير اخلال ولا بعد عن الحق فان الشبع المفرط الذى يفسد المعدة ويضيع الطعام من غير احتياج محرم والذى يثقل الأعضاء ولا يفسد شيئا مكروه على خلاف فيه ، والأولى بالشخص ألا يأكل حتى يجوع متوسطا وهو الذى يشتهى ما يقوم به أوده أى قوامه من معتاد طعامه ولا يفرط الى أن يشتهى كل خبز فانه مضر بالفكرة مخل بالقوة ولا يفرط بحيث يأكل بالتشهى وهو طلب الطعام مقرونا بالشهوة ، أقول يمكن أن يستأنس للاكل مرتين فى الأربع والعشرين ساعة بالقياس على الصيام فأكلة للسحور وأكلة للفطور ، ويقول تعالى فى وصف حال أهل الجنة : ((**ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا**))(١) • وعلينا أن نلاحظ أنه ليست العبرة فى أن يكون أكله بالليل أو النهار فان بعض البلدان قد يكون نهارها ثلاثة وعشرين ساعة فالعبرة اذن أن يكون لنا فى الأربع والعشرين ساعة أكلتان وهذا من باب الأدب ونلاحظ فى حياة العرب بشكل عام قبل الاسلام وبعده أن لهم شربتين : شربة الصباح ويسمونها صبوحا وشربة الليل أو المساء ويسمونها غبوقا • وكان شرابهم الحليب، وقد وردت فى نصوص السنة اشتقاقات الغبوق، وورد فى صحيح السنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشرب آخر سهره وقد اعتاد الناس فى زماننا على شرب الشاى والقهوة بحليب أو غير حليب فى كثير من الأوقات فاذا استطاع الانسان أن تكون له أكلتان رئيسيتان فى الأربع والعشرين ساعة وشربتان مساعدتان فى الأربع والعشرين ساعة مع الاعتدال فى كل ذلك فاننى أرجو ألا يكون بأس فى ذلك ولا شك أن أهل عصرنا توسعوا فى الطعام والشراب حتى ظهر فيهم السمن وأصابتهم الأمراض ولذلك لا بد من عودة الى السنة فى شأن الطعام ولا شك أن كثرة وجبات الطعام ليست من السنة ولكن هناك حالات مرضية لا بد لأصحابها من تعدد الوجبات فليلاحظ ذلك وليلاحظ مجموع آداب المسلم فى هذا الموضوع وغيره فاذا دعى المسلم فلذلك آدابه والوضع العادى له آدابه والوضع الاستثنائى له آدابه والاسراف دائما حرام أو مكروه على حسب درجته •

وفضلوا الجمع على الافراد ... فيه لأجل كثرة الأيادى

فهم اذن يفضلون الأكل جماعة على الأكل فرادى لتحقيق سنة تكثير الأيدى على الطعام وفى ذلك من التماس البركة الحسية والمعنوية ما فيه كما أن

---

(١) مريم : ٦٢

فيه مرانا على العفة وعدم الحرص والشره لأن أكل الانسان منفردا دليل على البخل أو الحرص أو النهمة الا لضرورة شرعية أو ضرورة عادية ويلاحظ الانسان من يأكل معه فقد قال الجنيد : المؤاكلة مراضعة فانظروا من تآكلونه ٠
« ولم يلقم بعضهم لبعض » أى أن الصوفية لم يكن من عادتهم أن يلقم بعضهم لبعض على وجه الملاعبة لما فيه من قلة الاحتشام والتوقير أما اذا كان على وجه التبرك أو الايناس فلا بأس به بل قد يكون أحيانا أدب الوقت ٠
« ولم يجل بصره بل يغض » ٠ من آداب القوم ألا يمدوا أبصارهم الى من يأكل معهم بل يغضون أبصارهم وينظرون أمامهم لما فى اجالة البصر من اخجال الآكلين خاصة وأن هيئة الانسان أثناء الأكل نوع عورة لا سيما اذا كان كبير السن :

« ولم يروا فيه بالانتظار فيذهب الوقت بلا تذكار »

أشار فى هذا البيت الى أن مذهب الصوفية اذا حضر الطعام بادروا اليه بالاكل ولم يكن رأيهم فيه انتظار من كان غائبا بل يعزلون حقه ويأكلون حتى لا يضيع الوقت سدى ٠ أقول : وهذا حيث لا كلفة أو كان هناك موعد «وكرهوا البطنة للاخوان » ٠ البطنة هى امتلاء البطن من الطعام ، أخبر المؤلف أن الصوفية كرهوا الشبع أو الزائد فوقه الى حد لا يضر والا حرم وعلل هذه الكراهية بقوله « فالبطن كالوعاء للشيطان » ٠ أشار بهذا الى الحديث « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » (متفق عليه) ٠ ومراد المؤلف أن الشيطان من خلال ملء المعدة يصل بالانسان الى كثير من مراداته فكأن المعدة هى الوعاء الذى يضع فيه الشيطان أمنياته التى يريدها من الانسان
« وأمروا فيه بفتح الباب » ٠ أى فتح باب المنزل الذى يأكلون فيه ليدخل عليهم كل من يحتاج الى الأكل وذلك من كرمهم وغنى قلوبهم فهم لا يدفعون من يأتيهم بل يقابلونه ويفرحون به وربما رأوا له المنة عليهم فى أكله معهم بل يعتقدون أنه هدية من الله اليهم لا سيما ان كان من اخوانهم أو من ذوى الحاجة ، والمسألة على كل حال من باب الآداب ، وقد يوجد من الموانع من الأدب ما هو الأقوى من الأدب فيحول بين الانسان وتطبيق الأدب والفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا فمثلا من كان مهيئا طعاما لعدد مخصوص ولا يسعه أن يؤمن لزائد عنهم فان حقهم يتأكد على حقوق غيرهم « وأكلوا بالقصد والآداب » ٠ الأكل بالقصد أى من غير افراط وتفريط فلا يزيد على الشبع المعتاد بل يقصر عنه ولكن لا الى الحد الذى يختل فيه بدنه ولا يكبر اللقمة جدا ولا يصغرها ٠٠ والأكل بالآداب أى مراعاة كل أدب من التسمية جهرا بابتدائه ونية التقوى على طاعة الله وغسل اليدين وخاصة ان كانت اليد وسخة والأكل على الأرض ان أمكن لا على مائدة مرتفعة والجلوس على احدى رجليه وهى اليسرى ورفع الأخرى والصاقها ببطنه ان أمكنه ذلك والأكل مما يليه اذا كان

لا يختلف وتصغير اللقمة وتجويد المضغ وترك النظر الى لقمة صاحبه ، وليس من الأدب أن يلعق أصابعه قبل تمام الطعام ثم يردها فى القصعة وليس من الأدب أن ينحنى على الطعام بحيث يسقط من فمه شئ وليس من الأدب أن ينفض يده فى القصعة ومن الآداب الحمد سرا بعد انتهائه من الطعام ولعق الأصابع ان أكل بها وغسلها ومسح الأيدى والفم وغسل ذلك بعد الطعام ومنها لقط ما سقط من الطعام ومنها الاكل باليمين الا اذا كان من باب مساعدة الشمال لليمين وعدم جولان يده الا أن يكون مع أهله وولده وحيث يباح الجولان « وفتحوا الباب لكل سار » ٠ هذا تأكيد ما مر معنا من قبل « وأكلوا بالرفق والايثار » ٠ المراد بالرفق التأنى فى الأكل بحيث يصغر اللقمة ولا يرفع أخرى حتى يبلع ما فى فيه ويجيد المضغ ويلوك طعامه الى أن يمضنه مضغا ولا يظهر الشره والحرص بل يظهر القناعة والغنى عنه ٠ والأكل بالايثار هو أن يؤثر غيره على نفسه ان كان الطعام قليلا أو كان فيه ما يشتهى فيقدمه لغيره ٠ ونختم هذا الفصل بالتذكير بأن من الأدب تشييع الضيف الى باب الدار وبالتذكير بقول أبى عبد الرحمن السلمى قال : قال بعض مشايخ الصوفية : واجب على المضيف ثلاثة أشياء وعلى الضيف ثلاثة أشياء فأما على المضيف بأن يطعمه من الحلال ويحفظ عليه مواقيت الصلاة ولا يحبس عنه ما قدر عليه من الطعام وعلى الضيف أن يجلس حيث يجلسه وأن يرضى بما قدم اليه ولا يخرج الا بعد استئذان ٠

فصل من آدابهم فى السماع :

رأينا أن الانشاد مهيج على السير ومساعد عليه كما رأينا أنه يخدم خدمات متعددة ومن ثم اعتمده الصوفية وهو موضوع ذكرناه من قبل وبينا ما له وما عليه ورأينا كيف أن الأصل فى سماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو استماع القرآن وما سوى ذلك كان عارضا وضمن حدود فهو بالنسبة لمجموع قوت القلوب كالملح بالنسبة للطعام وعلى كل حال فكونه له أصله وكونه معتمدا فلابد أن نلاحظ آدابه ومن ثم فقد تحدثوا فى كتبهم عن السماع وآدابه ٠ ولذلك فقد خصص صاحب المباحث الأصلية لذلك فقرة وكان جزء من هذه الفقرة حول آدابهم فى السماع ولننقل بعض هذا الجزء من الفقرة مع شئ من التعليقات عليها مستأنسين بشرح ابن عجيبة ٠ قال صاحب المباحث: « ولا يجوز عنده التكلم » ٠ أى لا ينبغى التكلم أثناء السماع لأن الكلام يبعد عن الغرض فى السماع فاذا كانت جلسة السماع لحكمة فان هذه الحكمة تنتفى بسبب وجود الكلام ثم قال : « ولا التلاهى لا ولا التبسم » ٠٠ وذلك لأن التلاهى عنه اشعار بعدم الأدب فيه وهذا يقتضى ألا يحضر أصلا ، وأما التبسم أثناءه فلما يشعر من الازدراء أو الاستهجان أو الاستهزاء أو غير ذلك ومن ثم فانهم يعتبرونه اساءة أدب وبالجملة نقول : ان جلسات السماع انما

هى بمثابة الأدوية وبمثابة المساعدات على بعض المعانى فالانسان بين أمرين اما أن يحضرها ويعطيها حقها واما ألا يحضرها أصلا :

« والزعقـــات فيه والتمزيق ضعف وهز الرأس والتصفيق »

أى أن الصياح وتمزيق الثياب وتحريك الرأس وضرب الكف بالكف كل ذلك من مظاهر الضعف · قال ابن عجيبة بعد ذكره ما مر : انما يصدر من ضعيف الحال الذى هو مغلوب للاحوال أما القوى المالك للاحوال فلا يصدر منه شىء من ذلك · أقول : اذا كان مثل هذا يعتبر ضعفا فما بالك بمن يفعل أكثر من ذلك لقد آن الأوان أن يضبط السائرون الى الله تصرفاتهم فلا يكونون محل الانكار من العامة والخاصة بل محل الاستهجان · لقد آن الأوان لحياة روحية منضبطة بالحدود التى كان عليها الصحابة رضوان الله عنهم وضمن هـذه الحدود فاننا لا نبالى بقول قائل · أما ما زاد على هذه الحدود فقد آن الأوان لنقسر أنفسنا على تركه فنرحم بذلك أنفسنا ونرحم المسلمين ·

« ولم يكن لأجـله اجتمـاع ولا لدى غيبتــه انصـداع »

وما ذلك الا لأن السماع ليس ركنا فى الطريق ولا شرطا فيه فهو ان وجد كان واذا لم يوجد لا يفتقد فليس هو محور الاجتماع ، وللاسف فان كثيرين من الصوفية أصبح السماع هو الذى يجمعهم فأصبح المنشد هو مركز الاجتماع لا الشيخ ولا السير الى الله وهذا اخراج للامور عن مواضعها ثم ذكر الشيخ بعد ذلك كيف أن سـماع القوم لا ترافقه آلة لهو فقـال : « ولم يكن فيــه مراسنونا » · أى مدندنون كعادة أهل اللهو اذا فرغ المغنى من غنائه دندنوا له اظهارا لتجاوبهم وانسجامهم « ولا طنابر ومسمعونا » · الطنابر جمع طنبور وهو شبيه بالعود فى صورته وقيل هو نفسه ، والمسمعون هم المرصدون للغناء فى الولائم يسمعون الناس غناءهم ، فنشيدهم اذن نشيد غير متكلف ولا ترافقه ما يرافق الغناء من آلات وعادات « وليس أيضا كان فيه طار » · الطار هو ما يكون له صنجات « ولا مزاهر ولا تنقار » المزاهر جمع مزهر وهو المجلد من جهتين دون أن يكون له شراشر والتنقار فى البيت هو فعل النقر فكل ما يسمى نقرا ليس موجودا فى حلقاتهم سواء كان نقر طبلة أو نقر كوبة وهى التى يسميها الناس الآن دربكة أو نقر عود « والشمع والفرش والتكالف ·· أحلف ما كانت يمين حالف» · يعنى أنهم لايتكلفون بالسماع حتى يحضروا الشموع الموقدة والفرش الممهدة والوسائد المزوقة وانما يحضرون له على حالة الفاقة والابتذال على ما يصادف الوقت والحال وليس مراده أنها محرمة بل مراده أن طريق القوم عدم التكلف · ثم ذكر صاحب المباحث أصل نشأة السماع عند القوم وأسباب وجوده وذكر بعد ذلك أن من آدابهم أن ينهوا جلسات السماع بالمذاكرة وشروح ما قيل فقال : « فان تمادى وأتم الشعرا » · أى ان استمر المنشد فى انشاده حتى أتم قصيدته « أبدوا من الشرح عليه سفرا » · السـفر

هو الكتاب والمراد أنهم بعد الانشاد يتذاكرون فيما قيل ويشرحونه ليوضع الانشاد على مواضعه فى المعانى ليرتقى السامعون الى أعلى درجات الادراك لخفى المعانى فتنشط هممهم نحو تحصيل المقامات ٠

فصل : مختارات من توجيهات ابن عطاء :

« من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل » ٠ « اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل انطماس البصيرة منك» ٠ «الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها» ٠ «تشوفك الى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك الى ما حجب عنك من الغيوب» ٠ « من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها » ٠ « من رأيته مجيبا عن كل ما سئل ومعبرا عن كل ما شهد وذاكرا كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله » ٠ « الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض اليها من علامات الاغترار » ٠ « لا يخاف عليك أن تلتبس الطريق عليك وانما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك » ٠ « كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا ، منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين » ٠ « الناس يمدحونك لما يظنون فيك فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها ، المؤمن اذا مدح استحيا من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه ، أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس ، اذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فاثن عليه بما هو له أهل » ٠ « اذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك فقد يكون ذلك آخر ذنب قدره عليك » ٠ « استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك » ٠ « خير علم ما كانت الخشية معه ، العلم ان قارنته الخشية كان لك والا فعليك « ٠ « من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا اذ ليس التواضع الا عن رفعة ، فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر ، ليس المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ولكن المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه دون ما صنع ، التواضع الحقيقى هو ما كان ناشئا عن شهود عظمته وتجلى صفته » ٠

فصل فى الأخلاق الجامعة :

فى كتابنا ((**جند الله ثقافة وأخلاقا**)) ذكرنا أن الأخلاق الأساسية للمسلم التى اليها مرجع كل خلق هى ما ذكره الله عز وجل فى آيات الردة من سورة المائدة فى قوله تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ٠ انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ٠ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب**

الله هم الغالبون »(١) • فهذه الآيات ذكرت أخلاقا خمسة هى قوام أخلاقية حزب الله وأى تفريط فى واحدة من هـذه الأخلاق يعنى انحرافا ما عن هـذه الأخلاقية الرفيعة وما أكثر الذين يفرطون • ونحيل القارىء الى ذلك الكتاب وهو أحد أجزاء هذه السلسلة وفى رسالة « **من أجل خطوة الى الأمام على طريق الجهاد المبارك** » من هذه السلسلة أبرزنا كيف أن خصائص الجماعة المسلمة حددتها آيات سورة الشورى هذه « **فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا • وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون • والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون • والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون • والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون • وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفـا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين • ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل • انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ،أولئك لهم عذاب أليم • ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور** »(٢) • لاحظ أن الشورى كخصيصة من خصائص الجماعة الاسلامية جاءت بين الصلاة والانفاق فما أكثر أهميتها اذن وما أشد تفريط المسلمين فيها ولاحظ أن الانتصار من الظلم والظالمين هو أحد خصائص الجماعة المسلمة قال النسفى : « وكانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق ، ولاحظ أن الانتصار ينبغى أن يكون فى حـدود العدل ولاحظ خطـأ الناس اذ يلومون المظلوم اذا انتصر ولا يلومون الظالم على بغيه والله عز وجل يقول : « **ولمن انتصر بعـد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل • انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق** » • ثم لاحـظ بعد ذلك كله تربية الكثير من صوفيى عصرنا ومحلها فى مجموع هذه الأخلاق الجامعة لترى الانحراف فى باب الأخلاق عند الكثيرين منهم بشكل واضح ولتعلم كيف أن تصوف الحركة الاسـلامية المعاصرة هو التصوف الصحيح باذن الله وتوفيقه •

هذه فصول متفرقة فى بعض مواقع مهمة فى كل منها لفتنا النظر الى آداب أو أخلاق أو أحكام سلوكية ولم نرد احاطة فى الأمر بل أردنا أن نلفت النظر الى قضية الآداب والأخلاق فى التصوف بشكل أخص وفى الاسلام بشكل أعم ليعرف محل ذلك فانه وان كانت هذه الرسالة نقطة علام على الطريق فانه من النقص فيها أن لا يكون بارزا فيها بعض الأمور وفى الباب القادم سنذكر فصولا متفرقات نعتبرها كذلك مما ينبغى أن يتعرض لهـا فى كتاب عن التصوف ولو كان مختصرا ومن ثم كان الباب القادم « فى فصـول شتى » •

---

(١) المائدة : ٥٤ ـ ٥٦ (٢) الشورى : ٣٦ ـ ٤٣

الباب السابع عشر

فى فصول شتى

هذا الباب فصوله شتى ولكن يجمعها أنه لا بد من اشارة اليها فى رسالة تعرف على علم التصوف وتدل الانسان على أن يأخذ حظه من هـذا العلم سلوكا وعملا ٠

فصل فى أن السير الى الله لا يعنى قطع احتياجات النفس ولا يعنى شل الطاقات :

كثيرا ما يقع السالكون فضلا عن غيرهم فى خطأ كبير ، هذا الخطأ هو تصورهم أن السلوك هو قطع لاحتياجات النفس البشرية وانهاء لها أصلا وتعطيل للطاقات بينما الحقيقة هى أن السلوك هو الوصول الى حالة تعاد فيها الأمور كلها الى حجمها والى أن تنبثق عن وضع صحيح ٠ فمثلا العلاقة الزوجية تنبثق فى حالة من الحالات عن وضع شهوانى بحت ولكن بعد الوصول تنبثق العلاقة الجسدية نفسها عن معان فى النفس نورانية الأصل كثيرة الاشعاعات العاطفية المتكاملة ومن ثم فاللذات والمتع تزداد بعد الوصول بعـد أن حدث انقلاب جذرى فى التركيب العام للنفس البشرية وللقلب البشرى وما يقـال فى هذا الجانب يقال فى جوانب أخرى ٠ انه بعد السير الكامل الى الله عز وجل أى عندما يصبح التركيب العام للانسان كله سليما تنبثق الأشياء كلها على ضوء العلم واذا بالتصرفات كلها فى غاية السلامة والاستقامة والحكمة فالسير الى الله منتهاه أن يصبح الانسان حكيما يضع الأمور فى مواضعها ٠ الحزم فى محله والشجاعة فى محلها والتأنى فى محله والمخاطرة فى محلها وبذل النفس فى محله وبذل المـال فى محله فالسير الى الله يوصل الى أن تتفجر الطاقات البشرية كلها فى اطارها الصحيح طاقة العقل وطاقة الروح وطاقة الجسم وطاقة القلب وطاقة النفس فى الحياة الاجتماعية وفى الحياة السياسية وفى الحياة الاقتصادية وفى دائرة الأسرة والحى والقطر والأمة والانسانية ٠ ان من لم يفهم السير الى الله على أنه كذلك يكون خاطئا ومن عرف حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم القدوة فى كل شىء أدرك بداهة ما نقول ٠

فصل فى الارادة والنية وتصحيحهما :

رأينا ان نقطة البداية فى السير الى الله هى انبعاث الهمة أو توجه الارادة نحو السير الى الله عز وجل ومن ثم فلا بد من تصحيح لقضية الارادة من ناحية ولا بد من تحسين النية واصلاحها كذلك فالارادة لا بد ان تكون خالصة لوجه الله وأن تكون متحررة من اى أمر من أمور الدنيا قال تعالى **« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه »(١)** فارادة وجه الله مع عبادته هى المقام الذى يجب أن نحرص عليه وألا نتخلى عنه وأن نصححه بشكل دائم فالصوارف دائما كثيرة والقواطع كبيرة فالدنيا تحاول أن تصرفك عن ارادة وجه الله والشيطان يحاول أن يصرفك عن ارادة وجه الله والنفس لها تطلعاتها التى تنسيك بها ارادة التوجه الى الله وأنت مكلف بتصحيح الارادة وتحديد وجهة التوجه **« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين • لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »(٢) « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيـا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب »(٣)** وجرت سنة الله عز وجل أنه عندما يصدق انسان بالتوجه الى الله ويطلب ما يقربه اليه أن ينيله الله عز وجل ذلك ، يقول صلى الله عليه وسلم « لو كان الايمان عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » (متفق عليه) والسالكون على يد الشيوخ أنواع فمنهم من يسلك وهمه أن يكون مرشدا للخلق الى الحق ومنهم من همه أن يصل فى نفسه الى مرضاة الله وحسبه ذلك دون أن تكون عنده تطلعات أخرى ومنهم من تجذبهم حلقات السير الى الله وليس لديهم وضوح لا فى الهدف ولا فى العمل ولكل من هؤلاء طريقه • وواجب الشيوخ أن يرتقوا دائما من همة أدنى الى همة أعلى وعلى الجميـع أن يلاحظوا قضـية الاخلاص لله تعالى فى البدايات والنهايات ولابن عطاء كلام كثير فى قضية الارادة وتصحيحها ومن كلماته « ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها الا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ولا تبرجت ظواهـر المكونات لتصرفه عن السـير الى الله الا ونادته حقائقها » **« انما نحن فتنة فلا تكفر »(٤)** •

فصل فى الخدمة ومحلها فى السير الى الله :

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كثير من مظاهر الخدمة فى الله خدمة الصغار للكبار وخدمة الكبار للصغار وخدمة الأصحاب لبعضهم بعضا « وحتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل بيتـه يعمل فى مهنة أهله » وخدم بعض الوفود بنفسه صلى الله عليه وسلم تكريما

---

(١) الكهف : ٢٨ — (٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣

(٣) الشورى : ٢٠ — (٤) البقرة : ١٠٢

لحالة خاصة ووفاء لوضع معين وكان يشارك أصحابه العمل عليه الصلاة والسلام وهذا اصل كبير فى الحياة الاسلامية يوجه المسلمين فى تواضعهم لبعضهم ورحمتهم لبعضهم وذلتهم لبعضهم فلا يأنف أحدهم من خدمة الاخر بل رحمة الكبير فى الصغير تجعله يرعاه وتوقير الصغير للكبير تجعله يخدمه وتواضع الاخوان لبعضهم ومحبتهم فى الله تزيل الأنفة والكبرياء فى التعامل فيما بينهم وهذا هو الجو الاسلامى الصافى وقد فطن أهل السير الى الله الى أهمية الخدمة فى تهذيب النفس فلاحظوا أن الانسان الذى لا يأنف من خدمه الكبار والصغار انسان تحرر من أمراض كثيرة كالعجب والخيلاء والكبر وغير ذلك وتحقق بآن واحد بمجموعة من الأمور كالتواضـع والرحمة والاحترام والاكرام للمسلمين والذلة على المؤمنين وغير ذلك لذلك اعتبروا خدمة الاخوان والشيوخ فى الله من أقرب الطرق التى توصل الى الله لما يتحقق به المتبرع بالخدمة من مشاعر مخلصة مخبتة لله عز وجل ومن ثم كانت الخدمة أدبا عاما عندهم لا يأنف منه الكبير ويندفع فيه الصغير فتبقى أجواؤهم فى هذا المقـام عذبة صافية خالية من الزخارف الكاذبة والبهارج الخادعة وبعيدة عن أجواء عنفوان النفوس وكبريائها ، « ولقد كان بعض شيوخنا وهو فى سن الثمانين يقدم لنا أحذيتنا • ونحن فى أول طلبنا للعلم مما كان له فى أنفسنا أثر حميد فى تعويدنا الخدمة والتواضـع لجميـع الخلق » ان طبيعة الخدمة فى الله لا تستطيعها نفس الا اذا اجتمع فيها ايمان بالله واليوم الآخر وثقة بأن المعز المذل هو الله وأن من تواضع لله رفعه الله وايمان بأن الانسان مأجور عند الله على خدمته لاخوانه وهكذا نجد أن الخدمة فى الله دواء للنفس وغذاء للقلب من جهات متعددة •

فصـــل فى الخلوة :

قد يرغب المريد أن يقفز قفزة كبيرة فى تنوير قلبه وقد يرى الشـيخ أن مريدا ما يحتاج الى وجبة روحية كبيرة كغذاء لقلبه أو كدواء لهذا القلب من وسوسة أو شكوك وريب أو غلبة نفس وهذا وغيره دعا بعض شـيوخ الصوفية الى اعتماد مبدأ الخلوة **كاعتكاف مركز** يحقق فيه المريد أكبر قدر من المردود ويختلف الشيوخ فى نوع الأعمال المفضلة فى الخلوة ومدتها المفضلة ولكن بشكل عام يكون الذكر والمذاكرة بعد القيام بفرائض الوقت هى محور الخلوة أما الزمن فالأصل أنه تابع لحال المريد ووقته وفراغه واحتياجات قلبه أو تحقيق الهدف الذى من أجله كانت الخلوة ونحن نفرق بين خلوة يعتمدها الانسان لنفسه وبين خلوة تحت اشراف شيخ بصير فقيه فالخلوة التى تكون تحت اشراف شيخ يحدد الشيخ ما ينبغى أن يكون فيها من أذكار ومذاكرات ومكان • وأما اذا اختار الانسان لنفسه أن يقوم بخلوة فاننا نفضل له أن يكون برنامجها : عشرات الآلاف من الاستغفار وعشرات الآلاف من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعشرات الآلاف من لا اله الا الله ثم بعد

ذلك يستغرق . اما فى كلمة التوحيد أو فى الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينهى خلوته . وكثيرون من الناس يناقشون قضية الخلوة والأمر لو وجد الانصاف لا يحتاج الى هذا الاختلاف فلو أن انسانا رأى أن يخلو بنفسه فى غرفة ليقوم بأعمال مباحة دون أن يؤثر ذلك على واجب لما كان للانكار عليه محل فكيف اذا خلا الانسان لنفسه ليقدم لنفسه دواء أو غذاء . ان الأمر واضح فى كونه جائزا ولقد كانت حياة الصحابه فى غير أوقات الجهاد والعمل واعطاء الحقوق خلوات على قراءة قران أو ذكر مع البعد عن الغلو ، وفى اعتكاف رمضان وفى خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم فى غار حراء قبل النبوة وبعدها ما يستانس به لهذا الموضوع . وان كثيرين من مفكرى العالم فطنوا لما للخلوة الطويلة من تأثير كبير على صفاء الفكر والنفس وجودة القرارات فاعتمدوها وانا لنتمنى للحركة الاسلامية أن تعتمد مبدأ الخلوات ذات العمل العبادى الروحى المركز وخاصة للعناصر التى ترشحها لأمور التنفيذ ليكون اعتماد هذه العناصر للتنفيذ وقلوبهم منورة وحالهم صالح واستعداداتهم للتضحية فى سبيل الله عالية وراقية بل انى أرى أن اعتماد مبدأ الدورات الروحية والخلوات المكثفة هى البداية الصحيحة للتربية الاسلامية الجهادية وما الخلوة الا دورة روحية مكثفة فى عصر غلب فيه الانسان على أمره أمام طواحين الوقت والقلب والفكر والأعصاب .

فصل فى أدوية مناسبة لأوضاع معينة :

أخرج الامام أحمد بسند صحيح كما فى «الترغيب والترهيب» عن أبى هريرة أن رجلا شكا الى النبى صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » تجد فى هذا الحديث كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى لهذا الانسان الشاكى الدواء المناسب لحاله وفى حديث صحيح رواه مسلم « أن عمر قال يا رسول الله : لانت أحب الى من كل شىء الا من نفسى فقال : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب الى من نفسى فقال : الآن يا عمر » فهنا حالة ذكرها عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى حالة تنافى أحد مضامين ما يدخل فى الحديث « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين » . (متفق عليه) . ولذلك أفهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذه الحالة ليست هى الكمال وبمجرد التذكير بالوضع الكامل من رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل عمر الى هذا الحال فهنا حالة بسيطة اقتضت علاجا سريعا هو الكلمة المبينة .. ووافق العلاج استعدادا عاليا فانتهت الحالة مباشرة . ولا ننسى أن لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعداد عمر الدور الأعظم بعد البيان . وهناك ناس صاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم منافقون وماتوا وهم منافقون ، وهناك ناس كانوا منافقين ثم تابوا الى الله وأنابوا فأصبحوا من خيار هذه الأمة . من هذه الأمثلة ندرك أن أمراض

القلوب والنفوس أحيانا تكون معقدة وأحيانا تكون بسيطة وأحيانا يكون الدواء كلمة وبيانا وأحيانا لا يكفى البيان وحده دون أن يبذل المريض جهدا خاصا • فقد نجد انسانا عاش فى بيئة معينة اعتاد فيها العجرفة والكبر والعجب والاسراف والتطاول على الناس وغير ذلك • فى مثل هذه الحالة لو جاء هـذا الانسان لشيخ وكان صادقا فى مجيئه فقد يأمره الشيخ بأمر ما يكون علاجا لكل هذه الأحوال دفعة واحدة ومن ثم لا بد أن يكون الشيخ خبيرا بأمراض النفوس وطرق علاجها وأن يعالج هذه الأمراض بالأدوية الشرعية • وفى هذه الرسالة نماذج يكون فيها السفر أو العزلة أو السؤال أو غير ذلك علاجا لبعض الحالات ثم ان القلوب نفسها تختلف واستعداداتها تختلف ولا بد للشـيخ أن يلاحظ أنواع القلوب وأنواع استعداداتها وييسر بكل انسان بما يوافق حاله • فقد يكون انسان مرشحا للنجاح فى أمر فعليه أن يوجهه له ولذلك نلاحظ أن بعض فروض الكفايات يصبح فى حق بعض الناس فرض عين لأنهم وحدهم المرشحون لأدائها فالله عز وجل جعل المسلمين يكمل بعضهم بعضـا فما أجهل من يريد أن يقصر المسلمين كلهم على بعض المعانى معطـلا معانى أخرى • عند قوله تعالى **« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »**(١) ذكر ابن كثير الحديث الذى أخرجه الامام أحمد وغيره والذى فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن • وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » من هذا النص ندرك أن القلوب نفسها تختلف وان كانت جميعها فى الذروة من الكمال ومن ثم فلا بد أن يلاحظ الشيخ استعدادات القلوب وأنواعها فيوجه كل قلب فيما هو مناسب له • فقلب غلبت عليه الرحمة يوجهه نحو التفرغ لدعوة الخلق الى الله ، وقلب غلب عليه حب التأديب للكفار يوجهه نحـو التفرغ لقضية الجهاد • وبمناسبة الكلام عن مداواة القلوب أقول : ان كثيرين حتى من علماء المسلمين والعاملين للاسلام لا تتقبل ذوقيتهم العامة كثيرا من تصرفات الشيوخ فى معالجات بعض الأمراض كما أن بعضهم يشمئز أن يرى انسانا ما يتصرف تصرفا ما لا يتفق مع المألوف فى علاج نفسه • الى هؤلاء أنقل هاتين الروايتين :

أخرج الترمذى بسند قال عنه : (حسن غريب) عن جبير بن مطعم قال : يقولون فى التيه (أى العجب والاختيال والكبر) وقد ركبت الحمار ولبست الشملة وحلبت الشاة » • وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من فعل هذا فليس فيه من الكبر شىء » وأخرج الشيخان ومالك « وكان أبو هريرة يستخلف على المدينة فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيشق السوق ويقول : طرقوا للامير حتى ينظر الناس اليه » أقول انما كان يفعل ذلك أبو هريرة من باب مداواة

---

(١) الأنفال : ٦٨

نفسه ومعالجتها وهذا شيء نجد أمثلته كثيرة فى حياة الصحابة حتى ان عمر رضى الله عنه كان ينصرف التصرف فيعاتبه عليه ابنه فيذكر له كيف أنه فعل ذلك علاجا • انه لا بد من عودة كاملة لحياة اسلامية كاملة تظهر فيها بشكل كامل أخلاقية جيل الصحابة فى كل شيء •

فصـــل فى اللباس :

حاول بعض الصوفية أن يربطوا بين التصوف وبعض الأمور المرتبطة فى اللباس والذى يقال فى هذا المقام ان المسألة ان كان لها أصلها فى السنة فالعبرة للسنة وان كانت كعلاج مشروع لا يصل به الانسان الى ارتكاب مكروه أو محرم فلذلك كذلك وجهه • فاذن نحن ههنا لا نقيد أنفسنا بغير الأحكام المتعلقة باللباس ومما يمكن أن يقال فى هذا المقام :

١ ــ ان هناك نوعا من اللباس محرما على الرجال كالحرير أو ما كان لباسا خاصا للنساء وهناك لباس محرم على المرأة وهو ما كان لباسا خاصــا بالرجال الا لمصلحة تقال وهناك تفصيلات فى مثل هذه المقامات يراها الانسان فى كتب الفقه •

٢ ــ بشكل عام لباس المرأة المسلمة ينبغى أن يكون ساترا سابغا لا يصف ولا يشف وأن لباس الرجل لا ينبغى أن يصف عورة وهناك تفصيلات محلها كذلك كتب الفقه •

٣ ــ الاسراف فى اللباس لا ينبغى فى حق الرجال والنساء والاسراف قضية نسبية تختلف باختلاف أحوال الناس •

٤ ــ للزى العربى المتمثل بصور والمتمثل بمكملات أخرى فضل خاص لأنه به تتحقق مجموعة من المعانى لا تتحقق فى غيره من كونه لا يصف عورة ومن كونه يستطيع الانسان بشكل مريح أن يحقق سننا كثيرة كالأكل جالسا وكالبول جالسا وغير ذلك •

٥ ــ يمكن أن يكون للانسان لباس عمل يناسب عمله كالطيار والجندى وعلى هذا فلباس الراحة هو الذى نحرص أن يكون ذا وضع خاص ، فالقميص (الذى يسميه الناس الآن جلابية فى بعض الأقطار) هو أحب اللباس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان يكون لباس راحتنا جلابية وأن يكون هناك غطــاء رأس كالقلنسوة أو العمامة أو الحطة فوق العمامة فذلك أكمــل شيء ••

٦ ــ أن يعتاد الانسان على ألا يستعبده اللباس فذلك من أخلاق المسلم ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الخميصة» ، وقال عليه

الصلاة والسلام : « البذاذة من الايمان ٠٠ » (رواه أحمد وابن ماجه) ، ومن مظاهر البذاذة ان نستعمل الثوب ولو تقادم وآلا نلقى به بمجرد أن يكون أصابه شيء ما ولذلك أثر عند بعض الصحابة أنهم كانوا يرقعون ثيابهم وهو موضوع ينبغى أن يعطى أهميته لما يترتب عليه من فساد فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية أن يلقى الانسان ثوبه القديم ويلبس دائما جديدا ان هذا ارهاق والموضوع يقيده ما اذا تصدق الانسان بالقديم أو كان القديم لا يذهب هدرا بل يستفاد منه بشكل ما ٠

٧ ـ ان موضوع اللباس موضوع معقد يرتبط بأمور كثيرة فلكل أمة لباسها المرتبط بثقافتها وعادتها وكثيرا ما يكون لبس الانسان لباس أمة أخرى هو أثر عن اعجاب بها وبحضارتها ونوع احتقار لأمته وهذا الموضوع ينبغى أن يعالج بمنتهى الحكمة فى عصرنا فلا نتشدد فيه التشدد الذى يجعلنا نضخم المكروه فنجعله حراما ولا نتساهل فى التربية عليه حتى ننسى أن لنا زيا خاصا هو المفضل وهو الأفضل ٠ انه لا يوجد لباس يرتاح فيه جسم الانسان وترتاح منه أعضاؤه كزينا الذى ورثناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك « كان عمر رضى الله عنه يرسل الى الجيوش الاسلامية موصيا أن يميتوا زى العجم ـ الكافرين وقتذاك ـ ويحيوا زى العرب » ٠ ولقد عرجنا على موضوع الزى والهيئة أكثر من مرة فى هذه السلسلة لأهميته فى موضوع ذاتية الأمة ٠

٨ ـ يقول عليه الصلاة والسلام « من تشبه بقوم فهو منهم » (رواه أحمد) والعلماء حملوا هذا الحديث على من تشبه بقوم فى أمر هو من باب الخصوصيات الدينية عندهم أما ما كان مشتركا بين بنى الانسان أو كان من نوع التشبه فى أمر عادى لا يهدم شعيرة اسلامية أو لا يتعارض مع سنة فالأمر واسع ٠

٩ ـ هناك حالة سنتحدث عنها فيما بعد وهى حالة يرى فيها الشيخ أن نوعا من اللباس ضرورى فى حق انسان اما لمقام أو كعلاج وهناك حالة يرى فيها الامام أو الأمير أو جماعة المسلمين لانسان أن يلبس لباسا ما كعملية تمويهية لتحقيق مصلحة فهاتان قضيتان لهما وضع خاص والفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا والفتوى ههنا هى التى تحدد الحكم فى حق الانسان ٠

فصل فى العفة عن سؤال الناس :

ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئا ففى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم وأبو داوود والنسائى عن عوف بن مالك الأشجعى قال : «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكنا

حديثى عهد ببيعة فقلنا قد بايعناك يا رسول الله فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلى ما نبايعك قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا ـ وأسر كلمة خفية ـ قال: ولا تسألوا الناس شيئا ٠ فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله اياه » ، فهذه هى الحالة العليا فى التربية الاسلامية وقد سمح للانسان فى بعض الحالات أن يسأل الناس حاجاته اما لوضع خاص أو لحالة اضطرارية وبقدر الحاجة ٠ أخرج الامام مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل الناس تكثرا فانما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر » ، وفى كل الأحوال جعل العمل هو الحالة الأكمل للانسان وسمح بالسؤال كعلاج لحالة استثنائية « واليد العليا خير من اليد السفلى » ، هذا هو الأصل العام فى هذا الموضوع ومحل التفصيلات فى كتب التفسير والحديث والفقه وانما عرجنا على هذا الموضوع هنا بسبب فهم خاطىء لتصرفات بعض الشيوخ فقد حدث مثلا أن وجدت حالة معقدة لبعض أمراض القلوب عالجها بعض الشيوخ بأن طلب من صاحبها أن ينزل الى السوق ويسأل الناس أن يعطوه ، والواجب فى هذا المقام أن يسأل الناس وهو ينوى أن يوصل صدقتهم لمستحقيها وانما يفعل ذلك من باب الدواء فتوسع بعضهم فى هذا الشأن وهو موضوع ينبغى أن يطوى بساطه فى عصرنا وأن يرجع الى المسألة فى أصلها الصحيح كما ذكرناه ٠

فصـــل فى الســـفر :

كان للرحلة فى الماضى وضع خاص ، اذ كانت أدب العالم لتحصيل العلم وأدب الصوفى لتحصيل العلم والتربية عند أهل ذلك اذ يبدأ الانسان فيأخذ ممن عنده علم أو حال فى محيطه ثم يرحل لاستكمال الأمر ، وأحيانا يكون السفر علاجا لبعض الأحوال النفسية والقلبية فمثلا قد يقع الانسان فى عشق أو فى اثم بسبب وجوده فى بيئة فيعالج الشيخ مثل هذه الحالات بأن يأمر المريد أن يسافر ليغير بيئته أو ينسى ، وفى الحديث الذى قصه علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حادثة الرجل الذى قتل مائة شخص كيف أن العالم أمره أن يترك أرضه الى أرض أخرى (رواه البخارى) ٠٠ فى هذا الحديث ما يمكن أن يستأنس به لهذا الموضوع ، فلصلة الرحلة بهذه القضايا التى ذكرناها وغيرها دأب علماء التربية أن يتحدثوا عن موضوع السفر فى كتبهم فلننقل بعض عباراتهم مع شىء من التعليق عليها ، يقول صاحب المباحث الأصلية « مذهبهم فى جولة البلدان » « زيارة الشيوخ والاخوان » ، أى هذا من مقاصدهم فى السفر الزيارة فى الله للاخوان فى الله وللشيوخ العارفين بالله وذلك لنيل مقام ما أشار اليه الحديث الصحيح « وجبت محبتى للمتحابين فى والمتزاورين فى والمتباذلين فى » (رواه أحمد وابن حبان) بلفظ متقارب أوله

(حققت محبتى ..) « ثم اقتباس العلم والآثار » ، أى هذا كذلك مقصد من مقاصدهم فى السفر وهو طلب العلم عامة وطلب علم الحديث خاصة وهو المراد هنا بكلمة الآثار « أو رد ظلم أو للاعتبار » ، أى ومن مقاصدهم فى السفر رد المظالم ان كانت على واحد منهم وذلك فرض كما اذا كان على الفقير دين أو قصاص أو حق من حقوق العباد فيسافر اليه ليرده أو يتحلل منه وقد اعتبر الشيخ زروق أن مما يدخل فى باب رد المظالم رد ظلم العباد بعضهم عن بعض وجعله من تغيير المنكر وقال : « هذا على من يمكنه ذلك من غير نقص فى دينه » وهذه لفتة كريمة من الشيخ زروق وما أجود أن يعتاد المسلمون على الخروج لمثل هذا ولجماعة الدعوة والتبليغ فى عصرنا باع طويل فى مثل هذا فجزاهم الله خيرا ، وأدخل الشيخ زروق فى هذا الباب السفر فرارا من ظلم يلحق بالانسان أو فرارا من أرض فيها ظلم وهو موضوع له صلة بقضية الهجرة ومن مقاصدهم فى السفر ، السفر بقصد التأمل وأخذ العبرة ، قال ابن عجيبة فى شرح هذا المعنى : « الاعتبار بما يرى فى سفره من جبال وعيون وبحار وأشجار وثمار وأصناف المخلوقات وضروب الكائنات » « أو للخمول أو لنفى الجاه » أى من مقاصدهم فى السفر أن يسافروا فرارا من الشهرة أو فرارا من التعظيم وذلك يفعله المريد فى ابتداء أمره ليتسنى له الكمال وذلك لأن الشهرة والتعظيم فى ابتداء أمر المريد قد تمنعانه من الكمال فى العلم والسلوك فيكون السفر فى حقه من باب الدواء والأخذ بالأسباب للوصول الى الكمال ليستطيع افادة خلق الله بشكل أكمل وليتمكن الاخلاص فى قلبه بشكل أعمق ، قال ابن عجيبة : « والمراد (أى فى هذا المقام) بالجاه المضر أو الجارى على غير وجه مستقيم أو الذى يخشى منه نقما أو شغلا أو الذى تميل اليه النفس وتركن اليه » « أو للرسول أو لبيت الله » ، أى من مقاصدهم فى السفر زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم زيارة قبره صلى الله عليه وسلم وكذلك من مقاصدهم الحج والعمرة وزيارة بيت الله الحرام فهذه مجموعة الوجوه التى من أجلها أو من أجل واحد منها يسافر السالك الى الله ، قال الشيخ زروق : « كل هذه الوجوه تحتاج لتصحيح النية وتحقيق القصد فان النفس خادعة وللامور آفات » ، وقال ابن عجيبة : « وبقى من فوائد السفر صحة البدن والقلب فقد قال عليه السلام : « سافروا تصحوا وتغنموا » (رواه البيهقى والطبرانى فى الأوسط) .

ولنرجع الى كلام صاحب المباحث : « ولم تكن أسفارهم تنزها ، بل كان لله فيها نحوه التوجها » وذلك أن الصوفى يحاول ألا يتصرف تصرفا ولو كان مباحا الا بنية صالحة لأن النيات تجعل العادات عبادات « ولم تكن أيضا بلا استئذان ، للشيخ والآباء والاخوان » لينال دعواتهم ويأخذ وصاياهم ويستفيد من ملاحظاتهم وربما كانت لهم حاجة فقضاها وربما

ترتب على سفره مضرة فيفطنونه لها « ولم يكن ذلك للفتوح » المراد بالفتوح فى اصطلاحهم ما يعطيه الناس للانسان من هدايا وصدقات فهذا مما لا ينبغى أن يفكر فيه الصوفى أصلا • قال ابن عجيبة : « ولم تكن أسفارهم لقصد الدنيا فان ذلك من الهمة الدنية » « أو لامرىء مبتذل ممدوح » ، أى أن الصوفى لا يسافر من أجل أن يمدح الناس كفعل الشعراء فى الماضى فهذا مما لا يخطر على بال سالك الى الله وبعد ذلك ذكر صاحب المباحث بعض آداب السالك الى الله اذا وصل بلدا :

« فحيث ما حلوا بلدا فبالحرا　　　أن يقصدوا الشيخ وبعد الفقرا

أى من آدابهم اذا حلوا بلدا أن يقصدوا شيوخها وصالحيها والفقراء الى الله فيها والمراد بهم السالكون الى الله فيها ، قال ابن عجيبة : « وقوله فبالحرا : أى بالأحروية والأولوية أن يقدموا الشيخ ثم بعد ذلك الفقراء وقال : وهذا الترتيب الذى ذكرنا هو مع الاختيار فان تعذر لقاء المشايخ أولا قدم الفقراء ، والفقراء كما قلنا اسم يطلقه الصوفية على أنفسهم أخذا من قوله تعالى : **« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله »**(١) ، ثم ذكر صاحب المباحث آداب لقاء الأشياخ والجلوس معهم :

وان للقوم هنا آدابا　　　اذ جعلوا كلامهم جوابا

أى أن الاصل عندهم السكوت الا اذا سئلوا فيجيبون •

فان تعاطى الشيخ منهم قولا　　　قالوا والا فالسكوت أولى

بمعنى ان طلب الشيخ منهم أن يتكلموا تكلموا والا فان أدبهم السكوت ومن آدابهم انتظار خروج الشيخ من غير نداء عليه ولا رسول اليه وحسن الأدب فى المجالسة والمؤانسة ومن آدابهم المشاركة فى المذاكرات العلمية مع حسن الادب وكماله وحسن انتقاء العبارات بين يدى الكلام وفى حالة المخالفة فى الرأى أو سماعه أو رؤيته خطأ شرعيا ثم ذكر صاحب المباحث أدب أهل البلد مع الوافد عليهم فقال : « وواجب على أولى الاقامة » أى على الذين وفد عليهم المسافر « تفقد الوافد بالكرامة » قال ابن عجيبة فى تفسير التفقد بالكرامة : وهو الذهاب الى لقائه واظهار المسرة فى وجهه والفرح به واراحته من شئونه وتعلقاته وانزاله فى محل ••• « وهو يزور القوم فى الحرام » ، أى فى البلد الحرام أى فى مكة أى الوارد أحق أن يزار فى محله الا أن يكون بمكة فان عليه أن يزور المجاورين لبيت الله الحرام لحرمة بيت الله الحرام وذلك « وانما ذاك للاحترام » أى هو يبتدىء زيارة أهل الحرم احتراما لهم

---

(١) فاطر : ١٥

لأنهم سكان بيت الله الحرام والمسألة ذات أوجه فالأصل أن العلم يؤتى ، ثم ذكر الشيخ بعض آداب المضيف « ويبدأ الوارد بالسلام ، وبالطعام ثم بالاكرام » ، « وكلموه بعدها تكليما ، تاسيا بفعل ابراهيم » ، عليه السلام أى يبدأون بالسلام ثم بالطعام والاكرام ثم بعد ذلك يكون الكلام كما فعل ابراهيم عليه السلام مع أضيافه سلام فاطعام فكلام ، ويقدم من الطعام ما لا كلفة فيه واذا أمكن الاكرام فلا مانع من غير تكلف مفرط ولا تفريط لأن التكلف يقطع طريق الكرم ويتعب الأهل والناس لدرجة أن الضيف بذلك يصبح ثقيلا وهذا سبب كبير في انقطاع كثير من الخير لذلك كان أدب الصوفية فى هذا المقام عدم التكلف وهو الكرم الاسلامى بعينه لأنه وحده الذى يسع الناس وبه يستمر خلق الكرم فى هذه الأمة أما اذا بدأ التكلف فقد وجد العنت فى المال واعنات الأهل والاتعاب لهم . والتكلف مسألة تختلف من انسان لانسان فمن كان غنيا لا يعتبر ما يقدمه وان كان كثيرا وغالى الثمن كلفة فى حقه على عكس الفقير « وكرهوا سؤال هذا الوارد ، الا عن الشيخ أو التلامذ» أى أنهم لا يسألونه عن أحوال الدنيا وأحاديثها فان ذلك مما لا يعنى ويقسى القلب بل يسألونه عن الشيخ والتلاميذ والسائرين الى الله وحال الناس ليطمئن على صلاح أمر الاسلام والمسلمين فسؤالهم يلحظ فيه معنى شرعى وهو باب واسع اذا وجدت النية الصالحة اذ حتى السؤال عن الأمور الدنيوية اذا رافقته نية صالحة فان ذلك يؤجر عليه الانسان « وكرهوا تضييعه أوراده ، كيف وقد جاء الى الزيادة » أوراد الانسان ما وظفه عليه شيخه أو وظفه على نفسه والمراد هنا ما كان يعمله فى اقامته فاذا سافر بقى على ما كان عليه الا اذا شق عليه ومن رحمة الله عز وجل بالانسان أنه اذا كان له عمل وشغله عنه مرض أو سفر فانه يكتب له أجر عمله فاذا لم يكن يشق عليه عمل الأوراد فانه يداوم عليها أو على بعضها ولذلك قال فى البيت : « كيف يترك أوراده بالكلية ، وهو انما سافر لطلب الزيادة فى حاله القلبى أو غير ذلك » « ومن يسافر فى هوى النفوس فانما يؤمر بالجلوس » ، أى من لم يستحضر نية صالحة لسفره بحيث يحقق سفره مقصدا شرعيا فان أهل التصوف لا يرون له السفر لأن من آدابهم ما ذكرناه سابقا من أنهم يرغبون ألا يكون لهم عمل الا اذا كانت لهم نية صالحة فيه حتى ولو كان مباحا لتصبح أعمالهم كلها عبادات ، هذا مجموع ما ذكره صاحب المباحث فى فقرة السفر وقد ذكر بعضهم جوانب أخرى فلنذكر بعضها .

١ ـ يفضل أن ينزل المسافر على أهل مشربه وألا يشق عليهم بأن يطيل المكث الا اذا كان قد نزل فى مكان أعد لذلك وأصروا عليه أما اذا كان هدفه الاقامة فعليه أن يسارع الى محل استقراره .

٢ ـ ينبغى لمن أراد السفر أن يتعلم أحكامه كأحكام القصر للصلاة والتيمم والقبلة وغيرها .

٣ ـ اذا كانوا جمــاعة فينبغى أن يؤمروا أحـــدهم ومن أدبه أن يستشيرهم ٠

٤ ـ قال ابن عجيبة ناقلا : « ومن آدابهم ألا يجرى بينهم فى حديثهم هذا لى وهذا لك ولو كان كذا لم يكن كذا ولعل وعسى ولم فعلت ولم لم تفعل وما يجرى مجراها فذلك من أخـلاق العوام ، ولا تجرى بينهم المخاصمة ولا المجادلة ولا الاستهزاء ولا الازدراء ولا المراجعة ولا المغالبة ولا الغلبية والنقيصة لا تكون بينهم بل يكون كل واحد منهم للكبير كالابن وللصغير كالأب والنظير كالأخ ٠٠٠ » ، وهذا ليس خاصا بالسفر وانما هو من أدبهم فى الصحبة على الدوام ، وفى السفر يكون أكبر هممهم فيلاحظونه بشكل أوسع لأن السفر يسفر عن كل المعايب ولا يبقى على حاله فى حال السفر الا الصديق ٠

٥ ـ ومن آدابهم أن يدعوا بأدعية السفر ذهابا وايابا وأدعية الركوب ويكثروا من التكبير والتهليل والتسبيح وغير ذلك من الأذكار ٠

٦ ـ ان تيسر له أن يستصحب فى عوده هدية لأهله وأقاربه وجيرانه فانه طيب ٠

٧ ـ اذا اســتطاع أن يدخل بلده فى النهــار فذلك هو السنة والأدب ألا يطرق أهله ليلا الا اذا كان على موعد معهم أو أعلمهم بذلك لما فى ذلك من مشقة عليهم أو لما يحتمل أن يحدثه لهم من ارباكات من وجل التساؤل عن سبب طرق الباب ومن الطارق وقد يكونون مستغرقين فى النوم استغراقا يتعبهم أو يتعبه ٠

فصــل فى مقــام الاحسان :

ذروة السير الى الله أن يصل السائر فى سيره الى مقام الاحســان الذى عبر عنه الحديث الشريف : « أن تعبــد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فهو يراك » (من حديث رواه مسلم) فهذان مقامان كل منهما يسمى احسانا ، ويختلف الصوفية فى أى المقامين أرقى ، وظاهر الحديث أن العبادة وأنت فى مقام « أن تعبد الله كأنك تراه » هو الأرقى وكل طريقة من الطرق اعتمدت بعض المعانى لتوصيل السالك على يد شيوخها الى هذا المقام ٠ والعلم والذكر هما الركنان ولكن هناك نوع من العلم له صلة بهذا المقام وهناك معان لا بد أن يلحظها السائر الى الله أثناء ذكره ليصل الى هذا المقام ٠

وبشكل عام فان السائر الى الله ليصل الى مقام الاحسان فانه يمر على ما يسميه الصوفية الفناءات : الفناء فى الأفعال بأن يحس الانسان أن

كل شيء فعل الله ، والفناء فى الصفات بأن يستشعر الانسان صفات الله عز وجل والفنـــاء فى الذات وهو أن يستشعر الانسان أولية الذات الالهية وصمدانيتها • ومتى استقر فى هذا المقام أحس بمقام الاحسان ، ويحاولون فى هذه الحالة أن ينقلوه الى مقام المشاهدة مع رؤيته الخلق وهذا الذى يسمونه مقام البقاء وقد تكون النقلة سريعة الى الفناء فى الصفات مباشرة أو قد تكون الى الفناء فى الذات مباشرة ثم يبدأ السائر يستشعر ما سوى ذلك وكما قلنا فلكل طريقة ما تعتمده من ملاحظات أثناء الذكر أو أثناء السير لتصل بالمريد الى هذه النتيجة ومجموع الملاحظات هذه اما أنها ملاحظات تجريبية دلت عليها التجربة واما أنها نوع تطبيق لبعض الآيات القرآنية ، وباجماع الصوفية أن ذكر اسم الله (الله) هو أقوى أنواع الذكر تأثيرا فى الايصال الى مقام الاحسان • يقول ابن عابدين : لا ذكر عند العلمـاء لصاحب مقام فوق الذكر بالاسم المفرد وأقول : وباجماع العلماء كذلك أنه لا يشترط الاسم المفرد للوصول الى الله ومن ظن غير ذلك فقد أخطأ وخالف الاجماع ولنا عودة على ذكر اسم الله المفرد فى فصل مستقل غير أنا مهنا نحب أن نذكر نموذجين على الوصول الى مقام الاحسان عند الشيوخ :

(أ) من الأشياء التى يذكرها الشيخ الغزالى أنها موصلة الى المراقبة أن يجتمع للانسان المحاسبة الدائمة لنفسه مع الاستغفار فان ذلك طريق كاملة للوصول الى الاحسان ومما يذكره الغزالى كذلك أن يلازم الانسان ذكرا واحدا (كسبحان الله) أو (الله) ويستمر فى الذكر حتى يستقر الاسم فى القلب ثم يستقر الشعور بمعناه فى القلب •

(ب) بعض الصوفية يدخلون المريد فى مرحلة الخلوة ويطالبونه بذكر اسم الله المفرد (الله) ويلفتون نظره فى المرحلة الأولى أن يقرأ الكون الظاهر كله باسم الله تحقيقا لقوله تعالى ـ فى رأيهم ـ ((**اقرأ باسم ربك الذى خلق**))(١) • ثم فى مرحلة لاحقة يطالبونه بقراءة الكون المغيب كذلك بهذا الاسم ، ثم فى مرحلة لاحقة يطالبونه وهو يذكر اسم الله (الله) أن يلاحظ أولية الله وصمدانيته من خلال بعض المعانى وبذلك يكونون قد أعطوه بذور مقام الاحسان ويطالبونه بعد ذلك بالاستمرار على الذكر والأوراد حتى تفرع هذه البذور فتملأ القلب وتخرج عنها بعد ذلك ثمارها • وعلى كل فان الوصول الى الله ليس مرتبطا بصيغة بعينها ، ولله طرائق على عدد الخلائق وقد يصل الانسان الى مقام الاحسان بصيغة أو بأخرى ما دامت الفرائض مؤداة والاقبال على الله موجودا والعلم امام والشيخ الكامل يختصر الطريق •

---

(١) العلق : ١

فصل فى ذكر الاســـم المفرد :

الاسم العلم على الذات الالهية هو لفظ الجلالة (الله) ولذلك أسموه الاسم المفرد لأنه الاسم الوحيد الذى يدل على الله ذاتا وصفاتا وأسماء وأفعالا بينما غيره يدل على ذات وصفة ثم هو لا يسمى به غير الله فهو مفرد من بين الأسماء كلها • ومن قال : (الله) لا شك أنه ذكر الله عز وجل وحقق الأمر القرآنى ((**واذكر اسم ربك**))(١) • فاسم ربنا هو الله فمن قال : (الله) فقد ذكر الله عز وجل بلا شك ولا ريب ومن نازع فى ذلك فانه مخطىء كائنا من كان ، انه عندما نقول : ((سبحان الله)) نكون قد سبحنا الله ونزهناه وبالتالى كذلك ذكرناه ، وعندما نقول : ((الحمد لله)) نكون قد حمدنا الله وشكرناه وبالتالى ذكرناه • ولكن عندما نقول : (الله) نكون قد ذكرناه وكما أن التنزيه فى حد ذاته مطلوب وكما أن الشكر فى حد ذاته مطلوب فذكر الله كذلك مطلوب ومن ذكر أى اسم لله عز وجل فقد ذكر الله • ان بعضهم يغالط فى هذا المقام فيقول : لو أنك بدأت تذكر اسم انسان (فلان فلان فلان) أو (يا فلان يا فلان يا فلان) فانه يتضايق من ذلك ولا يكون لفعلك معنى وهذا قياس خاطىء فان مجرد ذكر الله نحن مطالبون به ونفع ذلك لنا كبير وكثير اذ أن ذكر الله هو الذى يوقظ قلوبنا ويحييها فأن نقول : (الله الله الله) فذلك ذكر الله وذلك نافع لقلوبنا لتبقى متذكرة ربها ، ان ذكر الله بذكر أسمائه كلها هو ذكر ، والانسان مأجور عليه ، قال تعالى : ((**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه**))(٢) • وقد رأينا فى القرآن كيف أن الله عز وجل يذكرنا بأسمائه مرات ومرات وكل ذلك لتبقى أسماؤه على ذكر منا وأن يدخل مع ذكر اسم الله صيغة من صيغ الدعاء أو معنى مرافقا كالاستغفار والتسبيح والتوحيد والحمد والتكبير والتعظيم فذلك ذكر وزيادة ، ومن خالف فى جواز هذا أو هذا أو قطع الطريق على هذا أو هذا فانه خاطىء فمعرفة الله تتعمق فى قلوبنا من خلال كل الأذكار ومن خلال كل الدعوات المأثورة ومن خلال ذكر أسماء الله عز وجل كلها • ترى لو قال قائل : (الله رحيم) وكررها ليعمق فى قلبه الشعور برحمة الله ولو قال قائل : (الله بصـــير) وكررها ليعمق فى قلبه الشعور بأن الله يراه وهكذا فى كل اسم لله عز وجل ليعمق فى قلبه الشعور بالأسماء كلها هل يكون مأجورا أو مأزورا ؟ ان من يخالف فى مثل هذا من الأفضل ألا يدخل الانسان معه فى نقاش ، فاذا استقر هذا فان اسم الله المفرد هو الذى تنطوى فيه كل الأسماء ، فلو أن انسانا كرره ليستقر فى قلبه الشعور بالذات الالهية وصفاتها وأسمائها فمن أين يكون الاثم ؟ ان الأجر لا شـــك حاصـــل باذن الله والأثر فى القلب موجــود باذن الله •

---

(١) المزمل : ٨ ، الانسان : ٢٥ (٢) الأعراف : ١٨٠

قد يقول قائل نحن لا نجد فى السنة تركيزا على ذكر اسـم الله عز وجل المفرد • ونقول : ان فى الكتاب والسنة حضا عاما على الذكر وفى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما ذكر الصحابة بصيغ لم يتلقوها من رسـول الله صلى الله عليه وسلم حبذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكرها فأى ذكر لله عز وجل سواء من خلال ذكر اسم أو تسبيح أو من خلال دعاء أو صلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك فانه داخل تحت العموميات العامة ، وصاحبه منفذ للامر ومأجور ومشكور • قال تعـالى : ((**واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا**))(١) • لمـاذا يعتبر أئمة السير الى الله ذكر اسم الله المفرد أقرب طريق للوصول الى المعرفة الذوقية لله وللوصول الى مقام الاحسان ؟ انهم يقولون : انك عندما تسبح الله تتعمق فى قلبك قضية التنزيه ، وعندما تحمد الله تتعمق فى قلبك قضية الشكر ، وعندما تقول : (لا اله الا الله) تتعمق فى قلبك قضية التوحيد وهى قضايا كلها متفرعة عن استقرار معرفة الله فى القلب فاذا قلت : (الله) وكررت ذلك حتى استقرت معرفة الله فى القلب فان تسبيحك وشكرك وتوحيدك يكون أكمل بكثير من تسبيح وتحميد دون أن يكون قلبك مستيقظا على اسم الله ونحن مطالبون بأن نعمق فى قلوبنا معرفة الله وتنزيهه وشكره وتوحيده وهذا كله يؤدى بشكل كامل اذا ذكرنا لفظ الجلالة (الله) مع ذكرنا لبقية الأذكار الواردة فى السنة بل بعضهم يعتبر أن ذكر اسم الله المفرد انما هو ذكر مرحلة لنصل الى المعرفة الذوقية التى نصل فيها الى أن نؤدى العبادات والأذكار والدعوات على كمالها • دعنا الآن ننظر الى حكمة صيغ الذكر : لقد حضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملازمة الاستغفار وعلى ملازمة الصلاة عليه وعلى الاكثار من صيغ بعينها • انك لو تأملت فى حكمة تكرار صيغة من هذه الصيغ فانك تجد احدى جوانب ذلك أن يستقر فى القلب معنى معين ، فهذا القلب تحتاج المعانى لكى تتعمق فيه الى تكرار كثير •

ان القلب الذى لم تستقر فيه معرفة الله يحتاج الى أن يذكر أسماء الله حتى تتعمق هذه المعرفة • ويقول أئمة السير الى الله ان الجلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الانسان من نورانيته مالا يمكن أن يأخذه هذا الانسان من أحد ومن ثم فنحن لايصال القلب الى قريب من هذه النورانية نطالب بمثل هذا النوع من الذكر على أن من لم يرتح قلبه الى هذا النوع من السير فأى نوع من الذكر سواء كان قراءة قرآن أو أذكار بأى صيغة يوصله فى النهاية الى معرفة الله الذوقية والى مقام الاحسان وانما فى هذا اختصار طريق وانى بفضل الله عز وجل مع أنى مأذون على

---

(١) المزمل : ٨

طريقة الصوفية بتلقين الأوراد عامة وبتلقين الاسم المفرد أقول : ان الشيخ لا ينبغى أن يقيد نفسه الا بالسنة وأنه ينبغى أن يبقى المريد دائما مرتاحا الى العمل الذى يكلفه فيه • وأنا اذ عرضت قضية الاسم المفرد هذا العرض المختصر لم أرد أن ألزم المسلمين فيه بل أردت أن أبين وجهات النظر فى شأنه فاذا وجد قلب لا يرتاح لاعتماد الا ما ورد فيه ندب خاص عن رسولنا عليه الصلاة والسلام فى العمل فانى أجله وأحترمه بل وأدفع فيه فى هذا الطريق ولكنى لا أرى له ولا لنفسى الانكار على ما ينبغى اعتباره معروفا ، ان ذكر اسم الله المفرد للوصول فى القلب الى حالة معينة ثم للاستمرار بهذا القلب على هذه الحالة هو بمثابة الدواء والغذاء المركزين للقلب لا أكثر ولا أقل على أنه فى غير الذكر بهذا الاسم يوجد الغذاء والدواء كذلك • فاذا اتضحت وجهة النظر فى أصل ذكر الاسم المفرد بقى أن نذكر أن هناك من يذهب الى مندوبية ذكر الاسم المفرد ولكنه لا يرى جواز القصر فى نطقه بأن يحذف حرف المد فلا يقـال : « الله » بدون مـد وبعضهم لا يرى جواز مـده أكثر من ست حركات فى الوقف ونقول ان نطق لفظ الجلالة بالقصر فى تكبيرة الاحرام خاصة يبطل الصلاة على رأى أكثر العلماء فهم لا يكتفون باعتبار ذلك لحنا فى هذا المقام بل يجعلونه لحنا مبطلا للصلاة ، لكن فى حاشية الشهاب على البيضاوى ما يلى : « وقال الأسنوى رحمه الله : انه لغة حكاها ابن الصلاح عن الزجاج فلا لحن فيه حينئذ وفى التيسير انه لغة جائزة فى الوقف دون الوصل والأفصح اثباتها وانما تملح به المولدون فى أشعارهم كثيرا ••• الخ » • وأما مد لفظ الجلالة فقد توسع فيه الفقهاء حتى ان بعض فقهاء الشافعية أجازوا مدها فى تكبيرة الاحرام حتى الأربع عشرة حركة وبعضهم أجاز مدها أكثر من ذلك ولنكتف بهذا القدر من الكلام عن ذكر الاسم المفرد وقد ذكرنا من قبل كثيرا عن الذكر بشكل عام ••• وزيادة فى التأكيد فان الفصل القادم سنخصصه للذكر عامة ومحل الصلاة خاصة فى قضية الذكر •

فصـــل فى الذكر :

قال تعالى عن الصلاة : « **وأقم الصلاة لذكرى** »(١) وقال أثناء الكلام عن عبادة الصوم : « **ولتكبروا الله على ما هداكم** »(٢) ، وقال تعالى أثناء الكلام عن الحج : « **ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات** »(٣) وقال تعالى فى معرض الكلام عن رمى الجمار « **واذكروا الله فى أيام معدودات** »(٤) وهكذا نرى أن العبادات اما ذكر واما معنى لاقامة الذكر واما معنى يساعدنا على الوصول الى الذكر ، ولذلك قلنا من قبل ان ركنى السير الى الله انما هما الذكر

---

(١) طه : ١٤
(٢) البقرة : ١٨٥
(٣) الحج : ٢٨
(٤) البقرة : ٢٠٣

والعلم واذا أردنا أن نتبين ذلك بدقة نقول : ان المطلب الأعلى من الانسان هو التقوى والتقوى لا تنـال الا بعلم وعبادة لأن العبادة تابعة للعلم ولقد قالوا :

وكل من بغير علم يعمـل أعمـاله مردودة لا تقبل

والعبادة هي الطريق الى التقوى ((**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**))(١) والتقوى هى التى بها ننال رضوان الله ، قال تعالى : ((**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**))(٢) والعبادة كما قلنا اما ذكر أو معنى يقام به الذكر ومن ههنا ندرك أهمية الذكر فى دين الله . ... ثم ان التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم طريقه الذكر ((**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**))(٣) ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد العارفين والواصلين ، على أن سيره ووصوله غير سير السائرين وغير وصول الواصلين وان كان للسائرين حظ من السير والوصول ، ولئن كان جزء السير التحقق بأسماء الله ، ولئن كانت مراحل السير تتم بالانتقال من فناء الى فناء فان الذكر هو وسيلة ذلك كله وقد رأينا أن الله عز وجل عندما ذكر الحكمة فى الأمر بالصلاة قال : ((**وأقم الصلاة لذكرى**)) فالحكمة فى الأمر بالصلاة هى ذكر الله عز وجل وعندما ذكر فريضة الصوم ذكر أثناء عرضها قوله تعالى : ((**ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**))(٤) فمن الحكم التى يحققها الصوم أن يعظم الانسان الله عز وجل على هدايته وذلك ذكر فهو من حكم عبادة الصوم ... وعندما ذكر الله عز وجل الحج قال : ((**وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشـهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**))(٥) فالذكر مراد من فريضة الحج على الانسان ، ثم أن الله تعـالى قال : ((**ان الصلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر**))(٦) وقال واصفا المنـافقين : ((**واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا**))(٧) وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » (رواه البخارى) واذا كان هذا شأن الذكر فى السير الى الله وفى العبادة فلا بد من مسح شامل لقضية الذكر وحديث شامل عنها :

---

(١) البقرة : ٢١
(٢) الحج : ٣٧
(٣) الأحزاب : ٢١
(٤) البقرة : ١٨٥
(٥) الحج : ٢٧ ، ٢٨
(٦) العنكبوت : ٤٥
(٧) النساء : ١٤٢

١ ـ نلاحظ ملاحظة أولية أن كل أمر لله عز وجل فى نوع من الذكر قد تضمنته الصلاة ومن ثم فان الصلاة هى أكمل مظهر من مظاهر تنفيذ الأوامر القرآنية بالذكر فهى المظهر الأعلى والأكمل لذكر الله عز وجل عدا عن كونها المظهر الأعلى للعبادة العملية بما تضمنته من ركوع وسجود وقنوت ومن ثم فالكلام عن الصلاة فى موطن الكلام عن الذكر يعتبر البداية الصحيحة لكل كلام ، لقد أمر الله عز وجل المسلم بالتسبيح والتكبير وقراءة القرآن والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلام عليه والحمد والاستغفار والدعاء وكان ذلك ذكر ولكل ذلك أثره على النفس البشرية وتزكيتها وتعرفها على الله عز وجل وكل ذلك فى الصلاة أو فى الأذكار المحيطة بها ومن ثم فان الصلاة هى أداء كامل للذكر ومن ثم جعل الله عز وجل الصلوات الخمس فريضة وسن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من السنن والنوافل للراغب فى مزيد الخير ما يكمل ••• من الأوامر القرآنية فى الذكر قوله تعالى : ((**وكبره تكبيرا**))(١) وقد جعل الله تكبيرة الاحرام فى الصلاة فريضة وتكبيرات الانتقال من القيام الى الركوع ومن القيام الى السجود ومن السجود الى الجلوس سننا ، وسن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نكبر الله عز وجل ثلاثا وثلاثين بعد كل فريضة وفى ذلك كله تعليم وتأكيد للنفس وللعالم أن الله أعظم من كل شىء ومن الأوامر القرآنية قوله تعالى : ((**سبح اسم ربك الأعلى**)) (٢) وقوله تعالى : ((**فسبح باسم ربك العظيم**))(٣) • ومن التقريرات القرآنية : ((**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون • وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون • يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون**))(٤) وتبدأ الصلاة بدعاء الثناء : ((سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك)) وفى الركوع نقول : ((سبحان ربى العظيم)) وفى السجود نقول : ((سبحان ربى الأعلى)) ونسبح بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة ولما كانت الصلوات الخمس والنوافل المطلقة تسع ساعات كثيرة من الليل والنهار فانك تجد كيف أن الصلاة تحقيق عملى لهذه الأوامر ومن خلالها يتعمق فى النفس البشرية وفى العالم تنزه الله سبحانه وعلوه وعظمته واستحقاقه الحمد لأنه هو المنعم •• ومن الأوامر القرآنية قوله تعالى : ((**فاقرأوا ما تيسر منه**))(٥) أى من القرآن ومن المعلوم أن القرآن ذكر قال تعالى : ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**))(٦) والصلاة ركن من أركانها ، قراءة القرآن ، والله عز وجل

---

(١) الاسراء : ١١١
(٢) الأعلى : ١
(٣) الواقعة : ٧٤ ، ٩٦ ، والحاقة : ٥٢
(٤) الروم : ١٧ ـ ١٩
(٥) المزمل : ٢٠
(٦) الحجر : ٩

أمرنا أن نحمده قال تعالى : **((وقل الحمد لله))**(١) ومن أذكار الصلاة : ((سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد)) والله عز وجل أمرنا أن نصلى ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الصلاة : ((السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته)) ((اللهم صل على محمد وعلى آل محمد)) والله عز وجل أمرنا بالاستغفار : **((وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه))**(٢) وقد سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول بعد كل فريضة : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله ، وهكذا نجد أن الصلاة وأذكارها قد كانت استيعابا لأمهات الآيات القرآنية فى باب الذكر فهى فريضة تحقق أوامر فى الذكر وهى تحقيق لأوامر أخرى لله عز وجل كالأمر بالركوع والسجود والقنوت وغير ذلك ومن ثم كانت الصلاة عمود هذا الدين الذى لا يقوم الا به كما قال عليه الصلاة والسلام : ((رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ...)) (من حديث رواه أبو داوود) ومن ثم لا يكون الانسان ذاكرا الا بالصلاة وبالصلاة يكتب الانسان من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات . فالصلاة تنزيه لله عز وجل وشكر له وعبودية له وخضوع له وتذلل له والمظهر الأول للقيام بالتكليف ، وبمجرد أن تفعلها النفس البشرية فانها مباشرة تنتقل من طور الى طور ، من طور الكبر والعجب والعنجهية والغرور الى أضدادها من الصفات المجيدة فهى نقلة للنفس البشرية من اطار الى اطار ومن وضع الى وضع واذا كان هذا مقام الصلاة فى الاسلام ومقامها من الأمر بالذكر فلا بد من أن نأخذ صورة عنها كركن ركين فى قضية الذكر . الصلاة منها الفرائض ومنها النوافل ومنها الذى يتكرر يوميا ومنها الذى يأتى اسبوعيا ومنها الذى يتكرر سنويا ومنها الذى يكون بمناسبة وللصلاة أذكارها التى هى جزء منها وأذكارها التى تتبعها أو تأتى بعدها وكل ذلك يصب فى موضوع معرفة الله عز وجل وتزكية النفس البشرية مما يعمق موضوع القيام بالتكاليف الربانية كلها **((ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر))**(٣) وفى كتاب الأساس فى السنة وفقهها عرض شامل للصلاة وأذكارها والأذكار عامة واذا عرفنا محل الصلاة فى قضية الذكر فلنعرف أن الذكر خارج الصلاة مكمل للصلاة ولمقاصدها وفى الوقت نفسه هو عامل تنعكس آثاره على القيام الحق فى الصلاة فمن خلال الحالة القلبية فى الصلاة يعرف الانسان حاله الحقيقى مع الله عز وجل ، وبقدر ما يرتقى قلبه وتتعرف روحه على الله تكون صلاته مؤداة حقا ومن ثم كانت الصلاة فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم قرة عين ((وجعلت قرة عينى فى الصلاة)) (رواه الطبرانى فى الأوسط وغيره من حديث) ، فبين الصلاة والأذكار تكامل فلا ذكر بدون صلاة والصلاة بدون أذكار يحيا بها القلب

---

(١) الاسراء : ١١١ (٢) هود : ٣

(٣) العنكبوت : ٤٥

وترتقي بها الروح لا تكون خاشعة ، والأذكار اذا لم تكن جزءا من سير صحيح الي الله عز وجل لا تؤدى الحكمة الكاملة منها ومن ثم ولقلة السير الحق الى الله عز وجل ضاع علم الخشوع الذى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أول علم يرفع من الأرض ومن ثم ندرك أهمية علم التصوف فى الحيـاة الاسلامية عامة ولنتم الكلام عن الذكر : بعد أن عرفنا أن الصلاة ذكر وعرفنا أن للصلاة أذكارها الداخلة فيها أو التابعة لها كالأذان والاقامة والدعاء بين الأذان والاقامة ينبغى أن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله على كل أحواله ومن ثم سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أذكارا تسع أحوال الحياة كلها فمنها الأذكار المرتبطة بزمان ومنها الأذكار المرتبطة بمكان ومنها الأذكار المرتبطة بفعل ، ومنها الأذكار المرتبطة بحوادث ومنها الأذكار اليومية ومنها الأذكار السنوية ومنها الأذكار الشهرية ومنها الاذكار العمرية ومنها الأذكار المطلقة عن العدد والزمان والمكان ومنها الأذكار المقيـدة بعدد وأدب المسلم أن يعرف هذا كله وأن يحفظه وأن يأخذ حظه منه وقد ألفت فى هذا كتب خاصة ، وفى كتاب « الأساس فى السنة وفقهها » عرض شامل لهذا كله . والملاحظ أن الذكر والدعاء يندمجان فى بعض الحالات وكل ذكر دعاء عملى وكل دعاء ذكر لله لأنه يجمع مع الاعتراف المعرفة والافتقار الى الله عز وجل ومن ثم كان الدعاء كما ورد فى الحديث : « مخ العبادة » (رواه الترمذى وهو ضعيف) ولفظ أبى داوود والترمذى : « الدعاء هو العبادة » (وهو حديث حسن صحيح) ولما كان الهم الأول للسالك الى الله عز وجل هو المداومة على الذكر ولما كان لا يسهل على كل انسان أن يحفظ الكثير من الابتداء درج أهل السير الى الله عز وجل على اعتماد أذكار بعينها يأمرون بها المبتدىء لتكون ورده اليومى ومحل دأبه الدائم ومن ثم تعددت الطرق ... فطريقة اعتمدت أذكارا بعينها وأخرى أذكارا أخرى ولكل طريقة قولها : ان أذكارها لها ميزاتها فى موضوع السلوك والحقيقة أن المرشد الكامل وارث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الارث يقتضيه أن يحيى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى باب الذكر كما يحييها فى غير ذلك والتركيز على ذكر بعينه ليس عليه مأخذ ولكن ما يشيع فى بعض الدوائر أن فعل ذكر آخر غير الذكر المعتمد فى الطريق يكاد يكون من الخطايا ، غلو فى دين الله مهمة الوارث الاخراج منه ونحب أن نقول : ان نقدنا ليس منصبا على حالات خاصة تعتبر ملازمة ذكر واحد من باب الدواء أو من باب الايصال الى معنى معين الا أن هذه مرحلة قليلة بالنسبة الى مجموع الزمن أما أن يعتبر ذلك هو الأصل الذى يكاد يحرم أن يرافقه غيره فهذا الذى نعنيه بكلمة (الغلو) والذى نحب أن نؤكده هو أن الوارث مهمته الاحياء وطريقته يجب أن تكون طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى كل انسان ما يناسبه وكما أن رسول الله علم المسلمين أنواع الأذكار بمناسباتها وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبقى لنا تراثا

فى كل شىء فعلى الوارث أن يلاحظ ذلك ، ان مجموع العبادات المفروضة والمسنونة ومجموع الأدعية والأذكار تعمق معرفة الله عز وجل فى القلب كما أنها تؤدى واجبات الشكر له جل جلاله ، وان القرآن هو المذكر بالله عز وجل وهو المعرف عليه وهو المعلم لنا فى كل شىء ومن ثم كان ذكرا خالصا وعلينا أن نعطى أرواحنا حقوقها من هذا كله لكى نكون ذاكرين لله حقا عارفين حقا عبيدا له حقا .

فصـــل فى التوســـل :

عقد المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » فصلا عنوانه « الترغيب فى صلاة الحاجة ودعائها » وكان أول حديث ذكره فى هذا الفصل هذا الحديث : (عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن أعمى أتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أن يكشف لى عن بصرى قال : « أو أدعك » قال : يا رسول الله انه قد شق على ذهاب بصرى ، قال : « فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، يا محمد انى أتوجه الى ربى بك أن يكشف لى عن بصرى اللهم شفعه فى وشفعنى فى نفسى » فرجع وقد كشف الله عن بصره (رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب والنسائى واللفظ له وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى ومسلم وليس عند الترمذى) « ثم صل ركعتين » ورواه الطبرانى وذكر فى أوله قصة ، (وهو أن رجلا كان يختلف الى عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى حاجة له وكان عثمان لا يلتفت اليه ولا ينظر فى حاجته فلقى عثمان بن حنيف فشكا ذلك اليه فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل : « اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة يا محمد انى أتوجه بك الى ربى فيقضى حاجتى » وتذكر حاجتك ، ورح الى حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخـذ بيده فأدخله على عثمان بن عفـان فأجلسه معه على طنفسة وقال : ما حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فأتنا ، ثم ان الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف ، فقال له : جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت الى حتى كلمته فى ، فقال عثمان بن حنيف : والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجل ضرير فشكا اليه ذهاب بصره فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أو تصبر ؟ فقال يا رسول الله انه ليس لى قائد وقد شق على ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات ، فقال عثمان ابن حنيف : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه

لمَ يكن به ضر قط » (قال الطبرانى بعد ذكر طرقه والحديث صحيح ، والطنفسة : اسم للبساط وتطلق على حصير من سقف يكون عرضه ذراعا) ٠ يلاحظ من هذه النقول أن عثمان بن حنيف فى زمن خلافة عثمان علم انسانا أن يتوجه الى الله برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد وفاة رسـول الله صلى الله عليه وسلم مما يدل على أن الصاحبة كانوا يرون جواز التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله بعد وفاته وقد رأينا قول الطبرانى ان الحديث صحيح وهو حجة فى باب جواز التوسل الى الله برسـله بعد وفاتهم ، وقال تعالى : « **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** »(١) أى فسموه بها ونادوه بها ، حاول بعضهم أن يفهم من هذه الآية أن الله عز وجل لا يدعى الا بأسمائه ولا يتوسل اليه الا بها وحرم أن يتوسل الى الله عز وجل بأحد من خلقه كائنا من كان الا اذا كان التوسل به صالحا وكان حيـا وفهموا التوسل فى هذا المقـام على أنه هو الدعاء وبناء عليه فقـد حرموا التوسل بالأنبياء والرسل والصالحين ما داموا متوفين وقام جدل فى هذا الشأن كثير وحاول بعضهم أن يعطى هذا الجدل مضمونا اعتقاديا فاعتبر التوسل بغير الأحياء شركا واعتبر بعضهم أن عدم رؤية التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأنبياء والصالحين أمواتا أو أحياء زيغا وضـلالا والرواية الصحيحة التى مرت معنا تدل على أن فكرة التوسل الى الله برسوله عليه الصلاة والسلام كانت موجودة فى جيل الصحابة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى احدى صيغ متعددة فى كيفية الدعاء فأن يستعمل أحد الصحابة صيغة من الصيغ فذلك لا يدل على حرمة غيرها ، وبالتالى فان مجموع هذه الصيغ جائزة شرعا ولكن اذا ارتاح انسان لصيغة من هذه الصيغ فلا عليه أن يلتزمها واذا رأى أن الدليل لا يجيزها فلا عليه لو ناقش فى ذلك كما يناقش فى أى قضية فقهية ليست الا ، ولذلك فان الأستاذ البنا رحمه الله فى هذا الموضوع اعتبر الخلاف من باب الاختلافات الفقهية وليس من باب الخلافات الاعتقادية فهى اذن فى رأيه مسألة فقهية تتسع فيها وجهات النظر ويطالب بها الانسان بما تطمئن اليه نفسه ان كان من أصحاب الدليل وان كان من غير أهل الدليل فانه يستطيع أنْ يقلد فيها أى مجتهد ، قول الأستاذ البنا رحمه الله فى رسالة التعاليم فى الفقرة (١٥) من بند الفهم : « والدعاء اذا قرن بالتوسل الى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة » وقد اشتدت الأطراف المتنازعة فى هذا المقام على الأستاذ البنا بسبب موقفه هذا وهو موقف ظالم من الجميع ، ولو أن الجميع أنصفوا لاعتبروا كلام الأستاذ البنا هو النهائى فى هذا الموضوع اذ أن هذا الموضوع ليس من باب الأمور المعلومة من الدين بالضرورة والأدلة فيها تبقى من نوع الظنيات ، ظنيات الدلالة أو ظنيات الثبوت واذن للاجتهاد فى هذا المقـام

---

(١) الأعراف : ١٨٠

نصيب ولكل مجتهد أجره وما اطمأنت اليه نفس الانسان فى هذا الشأن فلا عليه لو سار عليه وله أن يناقش غيره ولكن التكفير والتضليل فى هذا الشأن خطأ وغلو وفى هذا المقام أكرر ما قلته أكثر من مرة فى هذه السلسلة : من أنه من توفيق الله عز وجل للاستاذ البنا رحمه الله أن استطاع أن يطرح صيغة للفهم ببنود قليلة هذه الصيغة هى الوحيدة التى يمكن أن تشكل القاسم المشترك الذى يمكن أن يلتقى عليه المنصفون فى هذه الأمة ، وكل صيغة غير هذه الصيغة لا يمكن أن تكون المنطلق الصحيح لعمل اسلامى مشترك نحو أمة اسلامية واحدة ودولة اسلامية واحدة وجماعة للمسلمين واحدة وان انسانا لم يدرك هذه النقطة وأهميتها ولم يعرف حتى الآن ايجابيات دعوة الأستاذ البنا بينه وبين الوعى الاسلامى المعاصر وبينه وبين احتياجات العمل الاسلامى المعاصر هوة كبيرة ، وانه لجدير به أن يبكى على نفسه بدلا من أن يحمل على هذا الانسان أو يسفه اتجاها له تالله لم أجد ولا أتصور أن أجد أنه يمكن أن تكون انطلاقة صحيحة الى الله والى خدمة دينه والى تصحيح أوضاع المسلمين المعاصرة ووضع قدمهم على طريق المستقبل بشكل سليم مراعى فيه كل ما تلزم مراعاته من أوضاع معاصرة ومن دروس مستقاة من تاريخ أمتنا وكل ذلك على ضوء فهم مستقيم الا باعتماد اجتهاد الأستاذ البنا رحمه الله مجدد هذا العصر بلا نزاع عند العارفين وأهل الفضل ٠

فصل فى استغاثات الصوفية :

ألف فى بعض دوائر الصوفية وغيرهم أن ينادى بعض الناس الصالحين من أحياء وأموات مستغيثا بهم فى تفريج كرب أو ازالة مكروه أو استجلاب نفع أو دفع ضرر ٠ نرى مظاهر ذلك فى الحياة العادية ونراه بشكل واضح أثناء الأزمات ونراه بشكل دائم فى بعض حلقات الذكر ٠ ويستعملون فى حلقات الذكر كلمة (مدد) فتجد هذه الكلمة تتكرر مرات كثيرة فى حلقة الذكر أثناء النشيد وأثناء الذكر والنشيد وفيما بين فقرات النشيد « مدد يا سيدى فلان » « مدد يا سيدى فلان » ومن مظاهر هذا الاتجاه ما نجده فى بعض الدوائر عند العامة اذ ينادون الخضر عليه السلام : « يا خضر » « خضر الحى يرعاك » تقولها المرأة لطفلها أو لغيره وبعض الشيعة يتوسعون فى هذا الموضوع حتى ليكاد يكون خطابهم لبعض الائمة له مظهر الدعاء الخالص ولعل ما وجد فى دوائر الشيعة هو الذى منه تسللت هذه الأمور الى دوائر من الناس بعد أن أعطوها مضمونا آخر وفسروها تفسيرات أخرى ، وانى أفرق فى هذا الموضوع بين النداء الذى فيه طابع التوسل الى الله فذلك له صلة فى المسألة السابقة التى عرضناها فى الفصل السابق فقد رأينا لحديث يقول : « يا محمد انى أتوجه بك الى ربى فى حاجتى » فهذا دعاء ثابت علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للاعمى وقد خاطب الأعمى فيه رسول الله صلى

-الله عليه وسلم على البعد بعد أن توضأ وصلى ثم علمه عثمان بن حنيف لصاحب الحاجة الى عثمان فما كان من هذا القبيل فالخلاف فيه هو الخلاف فى المسألة السابقة ، ومن ثم فاننى أفرق بين قول القائل : « يا محمد اشفع لى الى ربك » وبين قوله : « يا محمد اشفنى » فالصورة الأولى جزء من موضوع التوسل وهذه صورة داخلة فى موضوع فصلنا هذا وجزء من هذا الموضوع ما نجده عند بعض من يزورون قبور الصالحين اذ نجدهم يطلبون منهم طلبات مباشرة : (يا فلان زوجنى) (يا فلان اشفنى) (يا فلان بع لى غرضى) وأمثال ذلك مما تتعدد صوره وتكثر مسائله والأستاذ البنا كان جازما فى هذا الموضوع فقال فى الفقرة (١٣) و (١٤) من بند الفهم : « والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ((**الذين آمنوا وكانوا يتقون**))(١) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم . ١٤ - وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها واضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذرائع » ان من يدرس حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى فيها أن حماية جناب التوحيد هى أهم قضية على الاطلاق ولا شك أنه حتى فى حالة وجود نوع من التأويلات لمثل هذه النداءات فانها على الأقل باب من أبواب الشرك فى حق بعض الناس ، أنا أعلم أن بعضهم يعتبر أن مثل هذه النداءات التى يستعملها الصوفية هى من باب التبرك بذكر أسماء الصالحين وأن بعضهم يستند على امكانية أن يكون للارواح صلة بعالم الشهادة ولكن هذا وهذا ليسا كافيين لتبرير مثل هذه الأعمال التى يمكن أن تؤثر على أصل التوحيد ، ان الله عز وجل أمرنا أن ندعو لمن سلف لا أن ندعوهم فوصف المؤمنين بقوله : ((**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان**))(٢) وعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاتنا أن نقول : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فعندما تصبح المسألة معكوسة فبدلا من أن ندعو لهم ندعوهم فذلك هو الخطأ الذى لا شك فيه واننا نقول : الخطأ دون أن نتوسع أكثر من ذلك لما سنذراه فيما بعد وفى رأيى : الذى جعل هذا الخطأ ينتشر فى بعض الدوائر شيئان :

الأول : أن بعض البلدان حكمتها الدولة العبيدية وبعض الناس تأثروا فى الدعوة الباطنية بشكل عام وعند هؤلاء تصور عام حول الامام من معرفته

---

(١) يونس : ٦٣ (٢) الحشر : ١٠

للغيب وسماعه لنداءات الخلق وانك لتجد فى كلام هؤلاء الكثير من مثل هذا وللاسف فأن كثيرين من تلاميذ شيوخ الصوفية يعتبرون شيوخهم كذلك ، نحن لا ننكر الكشف ولكن أن يعتبر الشيخ عالما بكل شىء وأنه فى كل الحالات مستشرف على شئون العالم ٠٠٠ ان مثل هذه الاتجاهات لو ادعاها انسان فانه يكون قد ادعى مقاما فوق مقام النبوة والرسالة أصلا ومن درس حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومجموعة أقواله ومجموع ما قاله القرآن فى رسولنا عليه الصلاة والسلام أدرك أن ما ذكرناه هو من باب البديهيات نحن لا نستعظم على قدرة الله شيئا ولكن من باب الواجبات الشرعية ألا نعطى مخلوقا أكثر مما أعطاه الله عز وجل فأن يدعى انسان من المقامات مالا يعطاه الأنبياء والمرسلون فهذا هو الضلال بعينه ، ان تصورى العام أن حلقات الصوفية تسلل لها موضوع النداءات للاولياء والشيوخ من بعض دوائر التشيع بدليل أن لفظة : (مدد) التى يستعملها الصوفية هى لفظة شيعية فى الأصل والعجيب أن تجد بعضهم اذا قال الشيعى : (مدد يا على) كفره وهو يقولها بكل راحة زاعما أن تصوراته غير تصورات ذاك وصحيح قد تكون التصورات مختلفة ولكن جناب التوحيد مخدوش فى الحالتين ومما تعجب منه الشيخ أبو الحسن الندوى وسجله فى كتاب « مذكرات سائح فى الشرق العربى » أنه رأى على باب أحد شيوخ الطرق فى السودان حلقة ذكر يقول أهلها : (مدد يا سيدى حسن أنت سلطان الزمن) فعجب كيف يسكت الشيوخ على مثل هذا الذى يخدش جناب التوحيد ٠

فى رأيى أن التأثر ببعض دوائر التشيع هو السبب الأول فى انتشار هذه العادة فى دوائر الصوفية وان البديل عن ذلك كله هو (مدد يا رب) (مدد يا الله) الى (اللهم مدد) وهكذا ٠٠٠

وأما السبب الثانى فى وجود هذه الأمور فى دوائر الصوفية : فهو وجود روايات قيس عليها حيث لا ينبغى القياس فلنر هذه الروايات :

١ ــ أخرج الطبرانى فى « الكبير » باسناد قال عنه صاحب « مجمع الزوائد » : ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم الا أن يزيد بن على لم يدرك عتبة : عن عتبة بن غزوان رفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدكم عونا وهو بأرض وليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينونى ، يا عباد الله أعينونى ، يا عباد الله أحبسوا فان لله عبادا لا نراهم ، وقد جرب ذلك ٠

٢ ــ وأخرج الطبرانى والبزار باسناد قال عنه صاحب « مجمع الزوائد » : ورجاله ثقات : عن ابن عباس رفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان لله ملائكة فى الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فاذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد : أعينونى عباد الله ٠

٣ ـ أخرج أبو يعلى والطبرانى فى « الكبير » باسناد قال عنه صاحب « مجمع الزوائد » : وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف : عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادِ : « يا عباد الله أحبسوا فان لله حاضرا فى الأرض سيحبسه » ٠

هذه مجموعة الروايات التى استند اليها الصوفية فى توسعاتهم فى قضية نداءات الشيوخ والأولياء والطلب منهم وهى روايات اذا حققتها لا تصلح لهم حجة فى شىء فالحديث الأول منقطع ولا يصلح للاحتجاج به خاصة فى قضية مرتبطة بالعقائد والحديث الثالث ضعيف لا تقوم به حجة فى قضايا الفقهيات فضلا عن قضية مرتبطة بالعقائد وأما الحديث الثانى وهو الذى يرتقى الى رتبة الحسن فانه يتحدث عن الملائكة ٠ فالنص فيهم فان نحمله على غيرهم فذلك خطأ ثم ان قضايا الغيب تحتاج الى نصوص وأين النصوص التى تقول : ان فلانا كذا أو أن فلانا كذا وقضايا الغيب لا تدخل فى باب القياسات الفقهية أصلا ، ان هذا الموضوع يجب أن يستأصل من دوائر التصوف وغيره استئصالا لما يترتب عليه من خدش لجناب التوحيد على أنه لوجود التأويل وما رأيناه من بعض متكآت لأصحاب ذلك علينا أن لا نتسرع فى التكفير والرمى بالشرك الا حيث كان الرمى فى محله واضحا برهانه بينة حجته ولذلك استعملنا كلمة الخطأ فى بداية هذه الكلمة احتياطا ولكن كلمة الخطأ بمعناها العام قد يدخل فيها ما هو كفر ٠

فصل فى ما يسمى « شطحات الصوفية » :

من أعظم المآسى ومن أفظع الانحرافات فى تاريخ الاسلام والمسلمين ما أدخله الناس تحت عنوان : (شطحات الصوفية) فانه من الطامات الكبرى والدخن الفظيع والبلاء الأعظم نتبرأ الى الله ممن لايبرأ من ذلك ، سئلت عائشة رضى الله عنها كما ورد فى حديث صحيح : هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ؟ قالت : سبحان الله لقد وقف شعرى لما قلت ٠٠٠

مع أن هذه القضية خلافية ومع ذلك اقشعر من ذكرها جلد أمنا رضى الله عنها فبالله عليكم لو أن عائشة رضى الله عنها سمعت من يقول : أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الله فكيف يكون موقفها ؟ فبالله لو أن أحدا من الصحابة سمع انسانا يقول عن نفسه : (أنا الله) فماذا يكون الموقف فوالله لا يكون الموقف معه الا السيف يقطع رقبته ، ولقد كان موقف المسلمين من هذا الموضوع هو هذا فى كل العصور المشهود لها بالخيرية عصر الصحابة والتابعين وتابعى التابعين بل حتى فيما بعد ذلك حتى قتلوا الحلاج ٠ ذكر السيوطى « تاريخ الخلفاء » وفيها : أى فى سنة (٣٠١) هجرية أدخل الحسين الحلاج مشهودا على جمل الى بغداد فصلب حيا ونودى عليه : « هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه ثم حبس الى أن قتل فى سنة تسع » ويقول كذلك

السيوطى فى نفس الكتاب : « وفى سنة تسع أى بعد الثلاثمائة قتل الحلاج بافتاء القاضى أبى عمرو والفقهاء والعلماء أنه حلال الدم ٠ وفى أحواله السيئة أخبار أفردها الناس بالتصنيف » والملاحظ أن ما بين سجنه وقتله كان حوالى تسع سنين مما يدل على أنه لم يتسرع فى قتله فاذا كان الأمر كذلك حتى مقتل الحلاج وقد أجمعت الأمة على وجوب قتله أليس ذلك دليلا على أن صدر هذه الأمة مجمع على لعنة من يتجرأ على الله بمثل ذلك وللاسف الكبير فان هذا الذى قاله الحلاج فأجمعت الأمة على قتله به أصبح فلسفة تقرر وعلما يدرس حتى وجد من يذكر أنه متى يجوز للانسان أن يقول : (أنا الله) ومتى لا يجوز ألا لعنة الله على من لا يتبرأون ممن لا يتبرأ من مثل هذا ، أن يشاهد الانسان أن كل شىء فعل الله ومن جملة ذلك أفعال الانسان نفسه هذا شىء وأن يقول الانسان عن نفسه أنه الله فهذا شىء آخر ٠ أن يشهد الانسان أن كل شىء قائم بالله هذا شىء وأن يقول انسان عن نفسه : (أنه الله) هذا شىء آخر ، انه لمن عمى القلب والبصر والبصيرة أن تستمر مثل هذه الطامات فى الأمة مهما كانت التبريرات والتأويلات : ألا يخجل هؤلاء من الله ومن عباد الله وهم يتشدقون بمثل هذا الكلام لقد قال ربنا : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم** »(١) وهؤلاء يريدون أن نسلم للواحد حاله وهو يقول : (أنا الله) فأى جهل هذا وأى كفر هذا وأى دخن وأى دغل ؟ وكيف يستريح قلب لسماع مثل هذا العنس النجس ويعتبر هذا علما تالله ما هو آلا تلبيسات الشيطان ووساوسه ، ومع أننى فى سيرى الى الله أذاقنى الله من فضله من معانى اسمه الصمد جل جلاله وهو المقام الذى زل به هؤلاء وتالله لا أرى لهؤلاء الا القتل ان أصروا على هذه التشدقات والدعاوى ولنر بعض ما يتمسك به هؤلاء الضالون : يقولون ان الحديث القدسى الصحيح يقول : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه التى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » (رواه البخارى) أقول : هل هذا مما يتمسك به كدليل على أنه يجوز للانسان أن يقول عن نفسه انه الله والحديث نفسه يقول : « وما يزال عبدى يتقرب الى ٠٠٠ » أيعمون عن كلمة العبد ويتمسكون بقضية مجازية ليقولوا كلمة هى الكفر بعينه ، ويقولون ان الحديث القدسى : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ٠ قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك

---

(١) المائدة : ١٧ ، ٧٢

عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ٠٠٠ »
(رواه مسلم) أقول : هل هذا مما يتمسك به كدليل على مثل هذا والحديث
نفسه يقول : مرض عبدى فلان ، أيعمون عن كلمة (عبدى) ويتجرأون على
الله هذه الجرأة ، لقد قال الله عز وجل مبينا أن خلافته عليه السلام عن
الله كاملة : ((**ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله**))(١) وقال جل شأنه :
((**من يطع الرسول فقد أطاع الله**))(٢) فهل قائل يقول : بأن محمدا هو الله
أو قال محمد صلى الله عليه وسلم عن نفسه ذلك يا ويلاه يا ويلاه كيف
يقر لمسلم قرار وهو يسمع مثل هذا الكفر ؟ وكيف يستروح قلبه لسماع
مثل هذا ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنزله الله عز وجل
هذه المنزلة يأمره أن يقول : ((**قل انما أنا بشر مثلكم**))(٣) وهؤلاء يقولون :
(أنا الله) فمتى تثور فى قلوب المسلمين عقيدة الحق الصافية التى كانت عليها
الأجيال الأولى فيقتلون من تجرأ على مثل هذا الكلام لينقطع دابر هذا الكفر
اللعين ، ان اجماع الأمة منعقد حتى مقتل الحلاج على أن قائل مثل هذا الكلام
واجب القتل فكيف يصبح مثل هذا الكلام وكأنه اللغة العادية فى كثير من
الدوائر انه لشىء مؤسف وانه لشىء يجب أن تطهر منه هذه الأمة
وذلك باقامة حلقات التصوف المحرر من الزيغ والدغل : قال حجة الاسلام
الغزالى فى « احيائه » : وأما الشطح : فنعنى به صنفين من الكلام أحدثهما
بعض الصوفية : أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى
والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم الى دعوى الاتحاد
وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون : قيل لنا
كذا ، وقلنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب
لأجل اطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون بقوله : (أنا الحق)
وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : (سبحانى سبحانى) ٠ وهذا من
من الكلام عظيم ضرره على العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم
وأظهروا مثل هذه الدعاوى فان هذا الكلام يستلذه الطبع اذ فيه البطالة من
الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال فلا تعجز الأغبياء عن دعوى
ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ومهما أنكر عليهم ذلك
لم يعجزوا أن يقولوا : هذا انكار مصدره العلم والجدل والعلم حجاب والجدل
عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح الا من الباطن بمكاشفة نور الحق ٠
فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره حتى من
نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من احياء عشرة وأما أبو يزيد
البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وان سمع ذلك منه فلعله كان
يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه كما لو سمع وهو يقول :

---

(١) الفتح : ١٠ (٢) النساء : ٨٠

(٣) الكهف : ١١٠ ، فصلت : ٦

« انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني »(١) فانه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك الا على سبيل الحكاية ٠

الصنف الثاني من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل وتلك اما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة احاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر واما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وايرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام الا أن يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم عنها معان ما أريدت ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه ٠ ثم بعد كلام يقول الشيخ الغزالي : وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة الى أمور باطنة لا يسبق منها الى الأفهام فائدة كدأب الباطنيه في التأويلات فهذا أيضا حرام وضرره عظيم فان الألفاظ اذا صرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو اليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فانه ما يسبق منه الى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وانما قصد أصحابها الاغراب لأن النفوس مائلة الى الغريب ومستلذة له وبهذا الطريق توصل الباطنية الى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهري « المصنف في الرد على الباطنية » ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى : **« اذهبا الى فرعون انه طغى »**(٢) انه اشارة الى قلبه وقال : هو المراد بفرعون وهو الطاغي على كل انسان وفي قوله تعالى : **« وأن ألق عصاك »**(٣) أي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغي أن يلقيه ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « تسحروا فان في السحور بركة » (متفق عليه) أراد به الاستغفار في الأسحار وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله الى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا كتنزيل فرعون على القلب فان فرعون شخص محسوس تواتر الينا النقل بوجوده ودعوة موسى له كأبي جهل وأبي لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل الى ألفاظه وكذلك حمل السحور على الاستغفار فانه كان صلى الله عليه وسلم يتناول

---

(١) طه : ١٤ (٢) طه : ٤٣

(٣) القصص : ٣١

الطعام ويقول : « تسحروا » (متفق عليه) « وهلموا الى الغذاء المبارك » (رواه ابو داوود والنسائى) فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلا وبعضها يعلم بغالب الظن وذلك فى أمور لا يتعلق بها الاحساس فكل ذلك حرام وضلاله وافساد الدين على الخلق ولم ينقل شىء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع اكبابه على دعوة الخلق ووعظهم فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القران برايه فليتبوا مقعده من النار » (الرواية المعروفة لهذا الحديث : من قال فى القرآن بغير علم وفى رواية : فليتبوا مقعده من النار ، رواه الترمذى وغيره وقد صححه الترمذى وضعفه غيره) معنى الا هذا النمط وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير امر وتحقيقه فيستجر شهادة القرآن اليه ويحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ولا ينبغى أن يفهم منه أنه يجب ألا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر فان فى الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة وعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلى الله عليه وسلم فانها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر ولهذا دعا صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه فقال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » (رواه أحمد والطبرانى) . ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالالفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق الى الخالق يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع كمن يضع فى كل مسألة يراها حقا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمـدا فليتبوأ مقعده من النار » (متفق عليه) بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم لأنه مبطل للثقة بالألفاظ وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الحق عن القوانين المحمودة الى المذمومه فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى فان اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات الى ما عرف فى العصر الأول كنت كمن طلب شرف الحكمة باتباع من يسمى حكيما فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ . (انتهى كلام الغزالى) .

فصل فى بعض ما يصادفه السائرون الى الله :

١ ـ مما يصادفه السائرون الى الله عز وجل حالة الملل والكلل وهى حالة تواجه العاملين اذا لم يعطوا لأنفسهم راحة فى العمل وقد أشار الى هذه الحالة الحديث الشريف الصحيح : « خذوا من الأعمال ما تطيقونه فان الله لا يمل حتى تملوا وان أحب الأعمال الى الله ما دام وان قل » (متفق عليه) واذن هنـاك حالة من الملل تصيب القلب وقد قال الامام على رضى الله عنه :

« روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلت عميت » وهذا كله يفيد ان حالة الملل حالة ينبغى أن يحتاط لها السالك الى الله اولا بأن لا يحمل نفسه فوق طاقتها وثانيا بأن يروح عن نفسه باعطاء نفسه بعض حظوظها المباحة والحكيم ينوى نية صالحه وهو يعطيها هذه الحظوظ فتكون حتى راحته استجماما وعبادة كما أن الحكيم اذا ملت نفسه من عمل فانه يمكن أن ينقلها الى عمل آخر فاذا شبعت نفسه من التلاوة مثلا استغل فى الذكر واذا شبعت من الذكر اشتغل فى العلم واذا ملت من نوع من العلوم اشتغل فى نوع آخر واذا شبعت من العلوم الشرعية اشتغل فى المطالعة العامة واذا شبعت من هذا كله أعطى للتفكر والتأمل لنفسه نصيبا ، ويعد اعطاء الأهل حقوقهم من واجبات الوقت وهذا موضوع يلفت النظر اليه وتصعب الاحاطه فى شأنه فليلاحظ ، ولاحظ هذه النقول قال ابن عطاء : « لما علم منك وجود الملل لون لك الطاعات وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك فى بعض الأوقات ليكون همك اقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصل مقيم » .

٢ ـ ومما يصادفه السائرون الى الله حالة القبض والبسط وهما حالتان متعاقبتان على القلب تعاقب الليل والنهار ويفرق أئمة السلوك بين القبض النفسى الذى سببه الحزن على فوات شئ وبين القبض القلبى الذى هو حالة سببها روحى ، وبين البسط النفسى الذى سببه تمتع النفس بأمر دنيوى وبين البسط القلبى الذى سببه روحى وعلى السالك الى الله أن يتنبه كثيرا لهاتين الحالتين وأن يحسن استقبالهما وعلاجهما ، فقد يجره القبض الى سوء أدب مع الحق أو الخلق وقد يجره البسط الى سوء أدب مع الحق أو مع الخلق . وضبط الانسان نفسه عند البسط أشق ، لذلك قالوا : « ولا يحافظ على حدود الأدب فى البسط الا قليل » . وفى حكمة القبض والبسط يقول ابن عطاء : «بسطك كى لا يبقيك مع القبض وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كى لا تكون لشىء دونه ، العارفون اذا بسطوا أخوف منهم اذا قبضوا ولا يقف على حدود الأدب فى البسط الا قليل ، البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لا حظ للنفس فيه » . والقبض النفسى سببه الجهل فى الله وهو عقوبة . قال تعالى : **((وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شىء ، قل ان الأمر كله لله))**(١) . ولذلك قالوا : «لا تأتينا الهموم والغموم الا من جهلنا بالحى القيوم » . وأما القبض القلبى فقد يكون تعريفا بالله وقد يكون أثرا من استشعار القلب لخشية الله والبسط النفسى هو أثر من آثار جهل بالله أو أثر من تلذذ النفس بمتعة حلال أو حرام وهذا النوع من البسط على الانسان أن يحتاط فى شأنه كثيرا لأنه قد يكون أحيانا سببا من أسباب مقت الله ، وفى قصة قارون درس :

---

(١) آل عمران : ١٥٤

« اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين »(١) • وأما البسط القلبى فهو أثر عن طاعة أو شعور بأنس أو غير ذلك من معان قلبية • قال تعالى : **« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »(٢)** وعلى كل حال فلا بد أن يراعى الانسان حالى القبض والبسط فيدرك أسبابهما ويتحكم فيهما فقد يكون القبض أثرا من آثار تضييع حقوق الوقت ولذلك قالوا : « من لم يراع الوقت فوقته كله مقت » •

٣ ـ مما يصادفه السائرون الى الله حالتا الفرق والجمع والمراد بالجمع أن يكون قلب الانسان مجموعا على الله • والمراد بالفرق الحاله التى لا يكون فيها القلب مجموعا على الله او أن يحس القلب بنوع من التشويش العام أو عدم الاطمئنان • وهو على أنواع منها أن يحس الانسان بالخلق ويغفل عن الحق أو أن يحس الانسان بقلق او اضطراب أو تشويش أو شىء من هذا وأحيانا يعرف سبب ذلك وأحيانا لا يعرف • هاتان الحالتان تمران على السالك كثيرا أما غير السالك فانه يكون فى حالة فرق دائم لأن الأصل فى حقه الغفلة حتى اذا استيقظ القلب وبدأ يستشعر حالات الفناء فى الأفعال والفناء فى الصفات والفناء فى الذات عندئذ يمكن أن يحس بهذه الحالة : حالة الفرق أو الجمع وأحيانا يصل الفرق الى حالة من القوة يجد الانسان نفسه فيها شبه عاجز عن أى عمل وأحيانا ينتقل الانسان من حالة فى الجمع تعتبر هى المقام الأرفع أو الرفيع الى حالة فى الفرق تكاد تكون وسوسة خالصة وفى مثل هذا المقام يقول ابن عطاء « ربما وردت الظلمة عليك ليعرفك قدر ما من به عليك » • ومن النصوص التى ندرك بها قضية الفرق والجمع وتعاقبهما على القلب هذا النص :

« عن أبى قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : ان هذا قرأ قراءة فأنكرتها عليه فدخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ فحسن شأنهما فسقط فى نفسى من التكذيب ولا اذ كنت فى الجاهلية فلما رأى ما غشينى ضرب فى صدرى ففضت عرقا وكأنى أنظر الى الله تعالى فرقا فقال لى : « يا أبى أرسل الى أن أقرأ القرآن على حرف ••• الخ » • ففى هذا النص نجد فرقا كبيرا أعقبه جمع عظيم •

ومن هذا النص ندرك أن للفرق أسبابه وللجمع أسبابه ومن هذه الأسباب ما نستطيع التحكم به ومنه ما لا طاقة لنا به والله عز وجل يقول : **« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »(٣)** • والسالك الى الله يحاول اذا وقع فى الفرق أن يعرف أسبابه وأن يتلافاها ويحاول ما استطاع أن يبقى فى حالة جمع على الله • وبهذا ينتهى الباب الأخير من هذه الرسالة ولم يبق الا كلمة ختام •

---

(١) القصص : ٧٦ (٢) يونس : ٥٨ (٣) الأنفال : ٢٤

كلمـــة ختـــام

انى لأعلم أن هذا الكتاب سيثير مناقشات ومع ذلك فقد أرسلته للطبع وليس أمامى خيار فى ألا أفعل ٠ فالحركة الاسلامية وقد جعلت احدى سماتها أنها حقيقة صوفية لا يسعها الا أن تبين ماهية هذه الحقيقة الصوفية ولا يصح أن يبقى فراغ فى هذا الشأن ولا أزعم أن كل ما ذكرته هنا هو رأى هذه الحركة لكنى حاولت جاهدا أن أعتمد ما ظننته حقا ثم ما ظننته رأى هذه الحركة ٠

ولقد اعتمدت حكم ابن عطاء والمباحث الأصلية كمرجعين لأنهما كتابان كان الأستاذ البنا يركز عليهما على نقد له لبعض ما ورد فيهما ٠

ولقد كنت أتمنى أن أكتب فصولا وأن أنقل نقولا عن أفذاذ هذه الأمة باتجاهاتها الرئيسية فى تأييد ما ذهبت اليه فى كل موطن وكم كنت حريصا أن أنقل النقول الكثيرة عن ابن تيمية وابن القيم فى قضية السير الى الله من أجل أن يرى بعض الناس أن الحساسية فى كثير من الأمور لا يقرها العلم ٠

وأستغفر الله على ما أخطأت وأشكره على ما أحسنت وأسأله لى ولشيوخى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات مغفرة منه ورحمة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ٠

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ٤٩٩٩ / ٧٩

دار التراث العربى .

للمؤلف

1 — الله جل جلاله

2 — الرسول صلى الله عليه وسلم - جزآن معاً

3 — الاسلام - أربعة أجزاء معاً

4 — جند الله ثقافة وأخلاقا

5 — من أجل خطوة الى الأمام
على طريق الجهاد المبارك

6 — تربيتنا الروحية



الثمن ١٠٠ ص